علماء مكرمون

شوقي أبو خليل

بحوث ومقالات مهداة إليه

محمد سعيد رمضان البوطي
محمد الطيّب الإبراهيم
بديعة الجزائري
عز الدين البدوي النجار
محمد جنيد الديرشوي
خير الدين السراقبي
مصطفى عكرمة

مازن المبارك
هاني المبارك
أحمد قدور
فرحان عبد الله الفرحان
طالب عمران
محمد بن عزوز
عبد المعطي الدالاتي

عيسى العاكوب
إبراهيم الشهابي
ناديا الغزي
أيمن الشوّا
حسن إسماعيل مروة
محمود الأرناؤوط
نزار أباظة





بسم الله الرحمن الرحيم



شوقي أبو خليل

بحوث ومقالات مهداة إليه

شوقي أبو خليل: بحـوث ومقـالات مهـداة إليـه/تـأليف
محمد سعيد رمضان البوطي..[وآخرون].- دمشق: دار
الفكر؛ ٢٠٠٤.- ٣٠٤ص؛ ٢٤سم.(علماء مكرمون)
١-٩٢٩,١ ؛ أبوخليل، شوقي ب ٢- العنوان
٣-البوطي ٤- السلسلة
مكتبة الأسد

علماء مكرمون

شوقي أبو خليل

بحوث ومقالات مهداة إليه

محمد سعيد رمضان البوطي
محمد الطيِّب الإبراهيم
بديعة الجزائري
عز الدين البدوي النجار
محمد جنيد الديرشوي
خير الدين السراقبي
مصطفى عكرمة
مازن المبارك
هاني المبارك
أحمد قدور
فرحان عبد الله الفرحان
طالب عمران
محمد بن عزوز
عبد المعطي الدالاتي
عيسى العاكوب
إبراهيم الشهابي
ناديا الغزي
أيمن الشّوا
حسن إسماعيل مروة
محمود الأرناؤوط
نزار أباظة



آفاق معرفة متجدّدة

الرقم الاصطلاحي: ١٧٩٦،٠١١
الرقم الدولي: ISBN:1-59239-321-7
الرقم الموضوعي: ٩٢٠
الموضوع: تراجم وسير
العنوان: شوقي أبو خليل
بحوث ومقالات مهداة إليه
تأليف: عدد من الباحثين
التنفيذ الطباعي: دار الفكر – دمشق
عدد الصفحات: ٣٠٤ صفحة
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

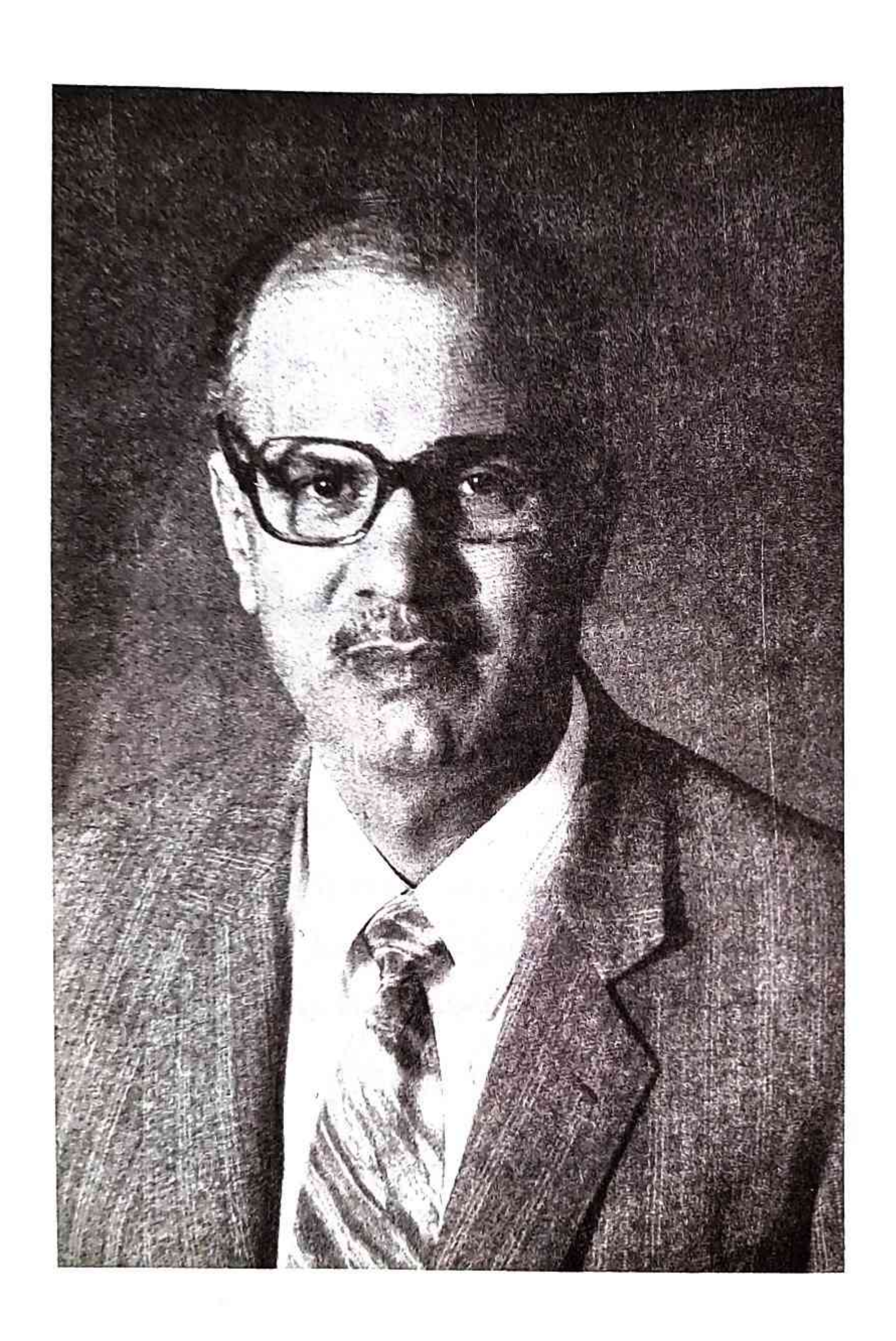
دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ – ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

Frankfurter Buchmesse 2004
العالم العربي ضيف الشرف ٢٠٠٤
Guest of Honour 2004 : Arab World
نظرة إلى المستقبل

الطبعة الأولى
صفر ١٤٢٥هـ
نيسان (أبريل) ٢٠٠٤م

المحتوى



مُقدِّمة

وهذه باقة جديدة أخرى من المقالات والبحوث والإضاءات وكلمات القلوب تقدمها دار الفكر لقرائها بمناسبة تكريم عالم آخر من أسرتها التي تضم علماء ومفكرين وأدباء وكتاباً متميزين ترفع بهم رأسها عالياً؛ ذلك لأنهم يحملون رسالة، هي رسالة الحق والخير والإحسان، ذلك بأنهم قدموا في سبيل هذه الرسالة آثاراً رفيعة المستوى للعلم والثقافة يستحقون من أجلها كل تكريم، ليس من الدار وحدها، ولا من قرائها، بل من الأمة جميعها.

وإذ تقدم دار الفكر اليوم كتابها هذا عن الدكتور شوقي أبو خليل، لترجو أن يشاركها في الاحتفاء به كل مثقف؛ لأن تكريمه وتكريم أمثاله إنما يأتي لتكريم العلم والمعرفة في شخصه.. وما أنموذجه إلا أنموذج العالم العامل الذي ينسحب علمه على حياته إيماناً وسلوكاً، فلا يفصل بين النظرية والتطبيق.. مع أن مشكلة الأمة الأساسية اليوم المباعدة بينهما، ولهذا فهي تعاني ما تعاني من أزمات.

أنتج الدكتور شوقي أكثر من أربعين عملاً جليلاً في التاريخ والتربية، بعضها في أجزاء، معظمها طبع طبعات عديدة، فضلاً عما ترجم إلى اللغات الأخرى، وقد اعتمدت عدة جامعات بعض كتبه مقرراتٍ لها.. ولقيت تلك الأعمال قبولاً واستحساناً من القارئ المهتم.

وهو إلى ذلك مربّ ناجح، وأستاذ أخلص لدروسه في الثانويات، ثم في أكثر من جامعة عربية، وأشاد به طلابه وحرصوا على حضور محاضراته، واعتزوا بالتلمذة عليه، والأخذ عنه.

وما أقدم الدكتور شوقي على عمل إلا ونجح فيه، وكتب الله له فيه التوفيق، ونال القبول، سواء بأعماله الكتابية أم بوظائفه المكتبية؛ ويعود سرّ ذلك لأسباب يعرفها عنه من حوله، من أهمها انتقاء الموضوعات المفيدة، مع الإخلاص في النية، ثم الإتقان في التنفيذ، والعرض الواضح الجميل في الأسلوب... كل هذا على أرضية المتابعة ونشاط العمل.

فتحية محبة وإكبار توجهها دار الفكر إدارة ومؤلفين وموظفين إلى الدكتور شوقي أبو خليل.. راجية له طول العمر مشفوعاً بالصحة والسعادة وموفور العطاء.

دار الفكر

نزار أباظة

الأستاذ الدكتور

شوقي أبو خليل في سطور

- ولد في بيسان ٢٥/٥/١٩٤١

- تعلم بدمشق في جميع مراحل التعليم

- إجازة في التاريخ من كلية الآداب بجامعة دمشق ١٩٦٥

- دكتوراه في التاريخ من أكاديمية العلوم بأذربيجان ١٩٩٠

- مدرس ومدير في الثانويات ١٩٦٦- ١٩٧٨

- رئيس قسم الامتحانات بمديرية تربية مدينة دمشق ١٩٧٩-١٩٨٠

- موجه اختصاصي لمادة التاريخ ١٩٨٠-١٩٨٧

- عضو مديرية المناهج والكتب في وزارة التربية ١٩٨٨-١٩٩١

- أستاذ مادة الحضارة الإسلامية والاستشراق بكلية الدعوة الليبية (فرع دمشق) ١٩٨٦-١٩٨٨

- محاضر في كلية الشريعة بجامعة دمشق ١٩٨٨-١٩٩٧

- الأمين العام لجامعة العلوم الإسلامية والعربية - دمشق ١٩٩٢-١٩٩٧

- مدير النشر في دار الفكر - دمشق ١٩٩١ - حتَّى الآن

- رئيس شعبة التاريخ والحضارة في معهد جمعية الفتح الإسلامي، وأستاذ التاريخ فيه ٢٠٠٠- حتَّى الآن

- عضو اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٠

وراقية مؤلفات الدكتور شوقي أبو خليل

مرتبة على حروف المعجم

مُشاراً فيها إلى تاريخ الطبعة الأولى

الدكتور نزار أباظة

- آراء يهدمها الإسلام، ١٢٨ص، ٢٥سم، د.ت

- أحب أن أعرف تاريخ أمتي (القسم الأول)، (سلسلة كلٌّ منها: ١٦ص، ٢٥سم، ١٩٩٣):

١- مهد أجدادي

٢- حضارة أجدادي

٣- العرب قبيل الإسلام

٤- محمد بن عبد الله ﷺ قبل البعثة

٥- محمد رسول الله ﷺ من البعثة إلى الهجرة

٦- محمد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة

- أحب أن أعرف تاريخ أمتي (القسم الثاني)، (سلسلة كلٌّ منها: ١٦ص، ٢٥سم، ١٩٩٨):

١- أبو بكر الصديق: وأمرهم شورى بينهم

٢- أبو بكر الصديق: الطمأنينة والمساواة

٣- عمر بن الخطاب: الحكم = العدل

٤- عمر بن الخطاب: لا إكراه في الدين

٥- عثمان بن عفان

٦- علي بن أبي طالب

- أحب أن أكون، (سلسلة كلٌّ منها: ٣٢ص، ٢٤سم، ١٩٨٩):

١- أعرف الحقيقة

٢- أعرف واجباتي

٣- أنا لا أسخر من أحد

٤- حُرمت اللبن

٥- دموع شجرة

٦- رحلة اطلاعية

٧- زائرون في بيتنا

٨- صيدلية منزلي

٩- الفضول المؤذي

١٠- في الغابة

١١- أمزح صادقاً

١٢- راحة أمي

١٣- العافية تاج

١٤- قبيل النوم

١٥- الكلمة الطيبة

١٦- لكل أوانه

١٧- للعب آدابه

١٨- مهنة والدي

١٩- نسي الزمن

٢٠- هوايتي المفيدة

- الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، ٢٤٠ص، ٢٥سم، ١٩٩٥

- الإسلام في قفص الاتهام، ٣٦٥ص، ٢٠سم، ١٩٧٠

- الإسلام نهر يبحث عن مجرى (من سلسلة هذا هو الإسلام)، ١٤٤ص، ١٧سم، ١٩٩٦

- الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب (بالمشاركة مع أ. هاني المبارك)، (من سلسلة هذا هو الإسلام)، ١٠٩ص، ١٧سم، ١٩٩٧

- الإسلام وحركات التحرر العربية، ٢٠٨ص، ٢٤سم، ١٩٧٥

- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، ٢٦٤ص، ٢٤سم، ١٩٩١

- أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ١١٢ص، ٢٨سم، ١٩٨٤

- أطلس الحديث النبوي: أماكن أقوام، ٤٤٠ص، ٢٤سم، ٢٠٠٣

- أطلس دول العالم الإسلامي: جغرافي، تاريخي، اقتصادي، ٢٥٦ص، ٢٥سم، ١٩٩٩

- أطلس السيرة النبوية، ٣٣٦ص، ٢٥سم، ٢٠٠٢

- أطلس القرآن: أماكن، أقوام، أعلام، ٣٣٦ص، ٢٥سم، ٢٠٠٠

- الإنسان بين العلم والدين، ٢٧١ص، ٢٠سم، د.ت

- بنلدلي الجوزي: عصره، حياته، آثاره (من سلسلة في الميزان)، ٣٠٤ص، ٢٥سم، ١٩٩٣

- تحرير لا استعمار، ١٠٦ص، ٢٠سم، ١٩٩١

- تحرير المرأة ممن؟ وفيم حريتها؟ (من سلسلة هذا هو الإسلام)، ٨٠ص، ١٧سم، ١٩٩٨

- التسامح في الإسلام، المبدأ والتطبيق (من سلسلة هذا هو الإسلام)، ١٤١ص، ٢٠سم، ١٩٩٠

- جرجي زيدان في الميزان (من سلسلة في الميزان)، ٣١٩ص، ٢٤سم، ١٩٨٠

- الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، ٦٨٨ص، ٢٥سم، ١٩٩٤

- حكايات من تراث الطفولة [للأطفال] (بالمشاركة مع د. نزار أباظة)

(سلسلة لكل منها: ١٢ص، ١٦سم، ٢٠٠١-٢٠٠٣)

١- خذ بيدي (جزاء بخيل)

٢- الأمير والرمان (غير نيته)

٣- النملة والصياد (جزاء المعروف)

٤- الأرنب والسلحفاة (نهاية الغرور)

٥- النملة والصرصار (المجد والكسول)

٦- الولدان والتفاحة (غنيمة ضائعة)

٧- بداية النهاية (تركوا التضامن فخسروا)

٨- أجير الحلاق (ظن المهنة سهلة)

٩- جحا وولده وحماره (تعب لكلام الناس)

١٠- التيسان العنيدان (تصارعا لسبب تافه)

١١- الثعلب والطبل (غرّه الحجم الكبير)

١٢- ثمرة التعاون (أخفق في مؤامراته)

١٣- الطحان والفيلسوف (أجابه فأسكته)

١٤- الحلاق الثرثار (رسم خريطة غريبة)

١٥- العصفورة الذكية (أعملت ذهنها)

١٦- الهرة والحصان (غررت به)

١٧- الدب والثعلب (سخر فنال جزاءه)

١٨- الكلب والذئب (ما خفتك طليقاً)

١٩- الإوزة والبيض الذهبي (استعجل الخير فأضاعه)

٢٠- البلبل والغراب (بكى من حكم جائر)

٢١- الحمار والملح والإسفنج (أخطأ بالتفكير فهلك)

٢٢- الحمامة والثعلب واللقلق (علّم غيره ونسي نفسه)

٢٣- الخصمان وبائع السمن (تصرف بحماقة أكبر)

٢٤- الطفل والمرأتان (أشفقت على ابنها)

٢٥- الفتيان والرماح (استفادوا من وصية أبيهم)

٢٦- ما أقوى حمارنا (تنبّه قبل فوات الأوان)

٢٧- من علمك هذا (تصرف بما يناسب الموقف)

٢٨- الناسك وابن عرس (استعجل في الحكم فندم)

٢٩- الناسك وجرة العسل (أسرف في الأحلام)

٣٠- النملة المجدة والقائد (استفاد من إصرار النملة)

٣١- الأرنب واللبوة (نجت من الشر)

٣٢- الثعلب والصياد (نجح بحيلته)

٣٣- الثعلب والعنب (غيّر الحقيقة)

٣٤- الثور والحمار (أساء لنفسه)

٣٥- الحمار والجزرة (نجحت الحيلة)

٣٦- الدب والبستان (نال جزاءه)

٣٧- الديك والثعلب (أجابه بفطنته)

٣٨- الذئب والحمل (نجا بفطنته)

٣٩- الغراب والثعلب (غرّه المديح)

٥٩- حنكة تاجر (اشترى سمعته)

٦٠- خَبِّئوا هذا الدرهم (راقب ربه)

٦١- الرمان الحامض (أثمرت أمانته)

٦٢- زرعوا فأكلنا (أثمر لتوه)

٦٣- العصفور والغراب (خسر أصالته)

٦٤- المغفل ووصفة الدواء (أخطأ الفهم)

٦٥- الهميان الضائع (ربحت أمانته)

٦٦- الثعلب واللقلق (واحدة بواحدة)

٦٧- الراعي الكذاب (عاقبة الكذب)

٦٨- الصبي وجرة الجوز (فقدان الحيلة)

٦٩- الصياد الماهر (التفكير المغلوط)

٧٠- القرد الحارس (الانتباه المفيد)

٧١- القرد والنجار (التقليد الأعمى)

٧٢- الولد والكلب والكرة (فكرة ناجحة)

٧٣- الشمس والريح (بلطفها انتصرت عليها)

٧٤- النمر والجرذ (قد يحتاج الكبير إلى الصغير)

٧٥- الذئب الغدار (نال جزاء غدره)

٧٦- البلبل (أطلقه فغرد)

٧٧- الضرس المنخور (خلع سنه بالحيلة)

٧٨- الفرصة النادرة (تمكنوا منه بالحيلة)

٧٩- الأنانية (آثر نفسه فخسر)

٨٠- القط والفئران (نجحوا بالتعاون والحيلة)

٨١- جزاء المعروف (نجّاه نباهته)

٨٢- الذهب والخشب (ظن حياة الرفاهية أحلى)

٨٣- الحطاب والعنيد (حذّره فلم يبتعد)

٨٤- الكنز (أدركوا فيما بعد)

(تحت الطبع)

٨٥- الرؤيا

٨٦- الحياة الهنيئة

٨٧- عاقبة الحسد

٨٨- الفلاح والعصافير

٨٩- السمكات الثلاث

٩٠- الخروفان

٩١- الوزير المخلص

٩٢- القرون

٩٣- قلب القرد

٩٤- الحيلة

٩٥- القاضي الذكي

٩٦- التعاون

٩٧- درة في القلنسوة

٩٨- الكسالى

٩٩- المكاري

١٠٠- الدميم

١٠١- اللَّقلق

١٠٢- بين الصدق والكذب

١٠٣- الإخبار الذكي

١٠٤- الحصان

١٠٥- الطفلة الذكية

١٠٦- الجرة

١٠٧- الخصمان

١٠٨- تاج الملك

١٠٩- الحكيم والحصان

١١٠- الأخوان

١١١- حديقة العدل

١١٢- البطتان والسلحفاة

١١٣- النمر المريض

١١٤- الملك والحارس

١١٥- أشعب والعرس

١١٦- جحا والمال

١١٧- سارق الدجاج

١١٨- الدب والبستاني

١١٩- الولادة والموت

١٢٠- اللصوص والتاجر

- الحوار دائماً وحوار مع مستشرق، ١٩٠ص، ٢٤سم، ١٩٩٤

- دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية، (بالمشاركة مع أ. هاني المبارك)، ١٢٨ص، ١٧سم، ١٩٩٦

- الزاهدون في المناصب (من سلسلة هذا هو الإسلام)، ١٧٦ص، ١٧سم، ٢٠٠٢

- عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، ١٦٠ص، ٢٤سم، ١٩٨٦

- غريزة أم تقدير إلهي، ١٤٤ص، ٢٥سم، ١٩٧٥

- غزوات الرسول الأعظم، (سلسلة):

١- بدر الكبرى، ٢١٦ص، ٢٠سم، ١٩٨٢

٢- غزوة أحد: عاقبة المخالفة، ١٤٤ص، ٢٠سم، ١٩٨٢

٣- الخندق: غزوة الأحزاب، ١٦٠ص، ٢٠سم، ١٩٨٢

٤- صلح الحديبية: الفتح المبين، ١٥٢ص، ٢٠سم، ١٩٨٣

٥- غزوة خيبر: الفتح القريب، ١٣٢ص، ٢٠سم، ١٩٨٤

٦- فتح مكة: الفتح الأعظم، ١٦٨ص، ٢٠سم، ١٩٨٣

٧- غزوة مؤتة: غزوة جيش الأمراء، ١٥٢ص، ٢٠سم، ١٩٨٣

٨- حنين والطائف، ١٥٢ص، ٢٠سم، ١٩٨٣

٩- تبوك: غزوة العسرة، ١٤٣ص، ٢٠سم، ١٩٨٢

١٠- حروب الردة: من قيادة النبي ﷺ إلى إمرة أبي بكر، ٢٠٧ص، ٢٠سم، ١٩٨٤

- غوستاف لوبون (من سلسلة بالميزان)، ١٩٢ص، ٢٥سم، ١٩٩٠

- في التاريخ الإسلامي، ٣٥٢ص، ٢٥سم، ١٩٩١

- فيليب حتي وموضوعيته في كتابه تاريخ العرب المطول (من سلسلة في الميزان)، ٢٢٤ص، ٢٥سم، ١٩٨٥

- قراءة علمية للقراءات المعاصرة، ٦٣ص، ١٧سم، ١٩٩٠

- كارل بروكلمان في الميزان (من سلسلة في الميزان)، ١٧٦ص، ٢٥سم، ١٩٨٧

- محطات حضارية من كتاب فتوح البلدان للبلاذري (من سلسلة المختار من التراث العربي رقم ٧٠)، ٢٩٦ص، ٢٠سم، ١٩٩٣

- مشكلات في طريق النهوض (مقالات بمشاركة عدد من الباحثين)، ٢٢٤ص، ٢٤سم، ٢٠٠١

- المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (القسم الأول)

١- الأرك بقيادة يعقوب المنصور الموحدي، ٨٠ص، ٢٠سم، ١٩٧٩

٢- بلاط الشهداء «بواتييه» بقيادة عبد الرحمن الغافقي، ٧٨ص، ٢٠سم، ١٩٧٩ (المؤلف)

٣- حصن بابليون وذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ٨٠ص، ٢٠سم، ١٩٧٩

٤- الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، ٩٢ص، ٢٠سم، ١٩٧٩

٥- العقاب بقيادة أبي عبد الله محمد الناصر، ٨٠ص، ٢٠سم، ١٩٧٩

٦- عمورية، بقيادة المعتصم بالله، ٨٨ص، ٢٠سم، ١٩٧٩

٧- فتح الأندلس: معركة وادي لكة بقيادة طارق بن زياد، ٩٢ص، ٢٠سم، ١٩٧٩

٨- فتح الديبل بقيادة محمد بن القاسم الثقفي، ١١٢ص، ٢٠سم ١٩٩٢

٩- فتح سمرقند بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي، ١١٢ص، ٢٠سم، ١٩٩٢

١٠- فتح صقلية، بقيادة أسد بن الفرات، ٩٤ص، ٢٠سم، ١٩٨٢

١١- القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص، ١٠٨ص، ٢٠سم، ١٩٦٩

١٢- مصرع غرناطة: أبو عبد الله الصغير، آخر ملوك بني الأحمر، ١٢٦ص، ٢٠سم، ١٩٨٢

١٣- نهاوند: فتح الفتوح، بقيادة النعمان بن مقرن المزني، ٧٨ص، ٢٠سم، ١٩٧٥

١٤- وادي المخازن، معركة الملوك الثلاثة، ١٢٠ص، ٢٠سم، ١٩٨٨

١٥- اليرموك بقيادة خالد بن الوليد، ٩٤ص، ١٩سم، ١٩٧٠

- من ضيع القرآن؟، ٢٩٤ص، ٢٤سم، ١٩٧٥

- من كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي (من سلسلة المختار من التراث العربي رقم ٣٦)، ٢٧٤ص، ١٩سم، ١٩٨٥

- موسوعة الأوائل والمبدعين في الحضارة العربية الإسلامية (بالمشاركة مع د. نزار أباظة، و. أ. هاني المبارك)، ٩ج، ١٣٩١ص، ٢٥سم، ٢٠٠٣

- هارون الرشيد، أمير الخلفاء وأجلّ ملوك الدنيا، ١٨٤ص، ٢٥سم، ١٩٧٧

- الهجرة حدث غير مجرى التاريخ، ١٤٤ص، ٢٤سم، ١٩٨٠

كتب تحت الإنجاز

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (القسم الثاني)

١- تشالديران

٢- حطين

٣- عين جالوت

٤- فتح القسطنطينية

٥- معركة أنقرة

القسم الأول

شوقي أبو خليل في عيون الأصدقاء والطلاب

الدكتور شوقي أبو خليل كما عرفته

الأستاذ: هاني المبارك

عرفت الدكتور شوقي أبو خليل منذ أكثر من ربع قرن، وقد مرت معرفتي به بثلاث مراحل هي مرحلة الزمالة، ومرحلة الصداقة، ومرحلة الأخوة.

في المرحلة الأولى كنا زميلَين نُدرِّس مادة التاريخ في ثانويات دمشق، وكنتُ ألتقي به في نهاية كل عام درسي لقاءً يزيدني به معرفة، وذلك في أثناء تصحيح أوراق امتحان الشهادة الثانوية، وكان من عادة المسؤولين عن عملية التصحيح أنهم يعتمدون على عدد محدود من المدرسين المعروفين بتمكُّنهم من المادة العلمية، ومن الحريصين على التقيد بمواعيد الدوام وحسن الأداء، وعدم إضاعة الوقت. وكان الأستاذ شوقي أبو خليل في مقدمة هؤلاء الذين يُعتمد عليهم، فقد كان خلال السنوات التي عمل بها مدرساً ومديراً مثالاً للأمانة المهنية، ونموذجاً رائعاً في احترامه للوقت والتزامه بمواعيد الدوام. وكان الأستاذ شوقي في هذه الفترة مرجعاً في الخلافات التي تحدث بين الزملاء فيما يتعلق بالمادة التاريخية، فقد كان خير من يعود إلى المصادر والمراجع للتأكد من صحَّة رواية بين المختلفين.

وتطوَّرت العلاقة بيني وبينه خلال سنوات العمل واللقاءات الكثيرة، فكانت المرحلة الثانية وهي مرحلة الصداقة، فقد وجدتُ فيه صديقاً يُعتمَد عليه

في الملمّات، فهو مؤمن إيماناً يعتمد على الحقائق لا على المظاهر، فقد جعل من رسول الله ﷺ قدوة له، يظهر ذلك فيما تخلق به من أخلاق؛ من تواضع وصبر وحب لخدمة أصحابه وتمسكه بالحق وجهره به. أما حواره مع الآخرين فهو حوار يعتمد على قول الله عز وجل: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩٦] ويثبت وجهةَ نظره بأدلة عقلية وشواهد من التاريخ. يندر أن يغضب إلا إذا امتهن الحق ومُسَّت العقيدة، أو إذا قاطعه أحد قبل أن ينتهي من توضيح فكرته، يزين حواره وحديثه بطرف من واقع الحياة أو تراثنا الأدبي والتاريخي.

ثم ازدادت الصلات بيني وبينه بعد أن أصبح موجهاً لمادة التاريخ فكان في عمله الجديد، مثالاً للموجه الاختصاصي في رقته وأدبه وتهذيبه وذلك خلال تعامله مع زملائه حين يحضر دروسهم ويقدم لهم نصائحه وتوجيهاته، فهو يؤدي مهمته بأمانة ويحفظ كرامة زملائه المدرسين، فكسب بذلك حبهم وتقديرهم، كما كسب احترام المسؤولين في حقل التربية والتعليم.

ثم أصبح الأستاذ شوقي أبو خليل مديراً للامتحانات في دمشق، وهي وظيفة في غاية الأهمية لما تطلب من القائم بها من أخلاق وطباع في مقدمتها الأمانة والاستقامة والصبر على العمل المستمر، لا تعرف فيها ساعات محددة للدوام، وكثيراً ما يحتاج صاحبها للنوم في الدائرة والسهر الطويل، كما تتطلب منه الصدر الرحب لمراجعات وطلبات ما أنزل الله بها من سلطان، فكان الأستاذ شوقي كما يقال: «أعطِ القوس باريها». فقد نجح في كسب حب الكبير والصغير وعاش مع موظفي دائرته كأسرة واحدة. يأتي قبل الجميع وينصرف آخرهم، وتراه بينهم يأكل ويشرب معهم ما دام العمل يتطلب البقاء والسهر لتأدية تلك المهمة الخطيرة على أحسن وجه وأكمل صورة.

ثم تطورت العلاقة بيني وبين صديق العمر الدكتور شوقي إلى أخوة، وصارت لقاءاتنا دائمة وأحياناً يكون اللقاء مع إخوة آخرين من الزملاء

المدرسين تجمعنا سهرات ونزهات، محورها الدكتور شوقي الذي يعرف كيف يشد المستمع إليه بأحاديثه الجميلة وأسلوبه العذب، وطرفه اللطيفة، وقصصه المستمدة من الماضي والحاضر، فهو خبير في نفوس الآخرين يعرف كيف ومتى يبدأ حديثه ومتى وكيف ينتهي.

الدكتور شوقي رجل علم وعمل، إنه من الأشخاص النادرين في حبه للعمل، لا يعرف الملل من المطالعة والكتابة، رأيته حين عاد من مؤتمر عقد في طهران، فذكر لي أنه عرض عليه من أحد كبار علماء أذربيجان أن يذهب إلى مدينة (باكو) لينال درجة الدكتوراه على أعماله العلمية ومؤلفاته الكثيرة والتي تكفي لتكون السند والمعتمد لمنحه درجة الدكتوراه، فأبى إلا أن يقدم عملاً علمياً جديداً، واختار موضوعاً يتعلق بشخصية عربية من مدينة القدس ولصاحبها دور في تأسيس جامعة (باكو)، فكانت لَفْتة جميلة وعملاً جديداً إضافة إلى أعماله الكثيرة التي سبقته. وكانت أطروحة الدكتوراه كما علمت بعنوان: (تاريخ الإسلام والمقاطعات الشرقية للخلافة الإسلامية في مؤلفات بندلي الجوزي). وبتواضع جمٍّ عاد شوقي أبو خليل حاملاً درجة الدكتوراه وهي الدرجة العلمية التي فتحت أمامه أبواب التدريس في الجامعات، فأصبح محاضراً في كلية الشريعة في جامعة دمشق، وإذا أردت أن تعرف شيئاً عن دروس الدكتور شوقي ومنزلته عند طلابه، فاسأل القاعات التي كان يدرس فيها، فقد كانت تغصّ بالطلاب والطالبات جلوساً ووقوفاً، ولا أقول ذلك الآن لأمدح أخي الدكتور شوقي وإنما أقول ذلك لأدلِّل على أن صاحب الضمير والمخلص في عمله لوجه الله لابدَّ أن يجد أثر ذلك في من يعمل معهم، وسيجد منهم آذاناً مستمعة وقلوباً واعية ونفوساً مقدِّرة.

إن هذه السمعة الطيبة والشهرة الواسعة والتقدير من الجميع مازادت الدكتور شوقي إلا تواضعاً وإخلاصاً في عمله وصبراً على عمل شاق ومنهك.

أما صبره فقد لمست صورة منه خلال مرض مفاجئ أصابه فأقعده فترة في المشفى وأكثر منها في الدار، فقد كنت لا أرى في وجهه إلا بسمة الرضا بقضاء الله وقدره دون تبرم ولا شكوى صابراً محتسباً، إنه مثال المؤمن المتوكل على ربه والمسلِّم أمره لله تعالى، وقد لمس ذلك كل من زاره في أثناء مرضه، وما أكثر من زاره من أصدقائه وإخوانه وطلابه، ونحمد الله على شفائه وعافيته، وأطال الله في عمره ليبقى محاضراً ناجحاً مدافعاً عن التاريخ العربي الإسلامي وحضارته، فهو يذكرني بمواقف رجال أفذاذ من أمثال الأستاذ محمد كرد علي في دفاعه المجيد عن الحضارة العربية الإسلامية، وعن العرب والإسلام في كتابه (الإسلام والحضارة العربية) والتصدي بقوة وبالأدلة القاطعة والبراهين العقلية والعلمية، والرد على الخصوم من الشعوبيين من أبناء الأمة العربية - مع الأسف الشديد - ومن أبناء الغرب من المتعصِّبين والحاقدين. وحول مثل هذه الموضوعات أصدر الدكتور شوقي - حفظه الله - عدداً من الكتب ضمن سلسلة جعلها بعنوان (في الميزان) بدأها عام ١٩٨٠ بكتاب (جرجي زيدان في الميزان) وأتبعه بكتب عن (فيليب حتي) و(كارل بروكلمان) و(غوستاف لوبون) و(بندلي جوزي) وكان في كتبه يذكر لكل من هؤلاء ماله وما عليه.

وأذكر هنا فضلاً للدكتور شوقي عليَّ فقد شجعني على الكتابة والنشر والمشاركة في النشاطات الثقافية فقد طلب إلي - جزاه الله خيراً - أن أشارك في كتابة قصص للأطفال والفتيان، واتفقنا أن يكتب هو سلسلة منها بعنوان (أحب أن أعرف تاريخ أمتي) وأن أكتب أنا سلسلة أخرى بعنوان (أحب أن أعرف أعلام أمتي) وقد صدرت هذه المجموعات القصصية التاريخية عن دار الفكر وما تزال تصدر تِباعاً.

ثم اقترح الدكتور شوقي إلقاء محاضرات مشتركة في بعض المراكز الثقافية، فكنا نسافر معاً إلى تلك المراكز في المحافظات السورية ونلقي المحاضرة مناصفة،

حيث يختص كل منا بجزء منها، وكان وقع ذلك على المستمعين أكثر راحة وفائدة.

ثم اقترح أيضاً أن تُطبع بعض تلك المحاضرات لتعم الفائدة فعمل - جزاه الله خيراً - على طبع بعضها في كتيبات صغيرة فكان منها: (دور الحضارة العربية الإسلامية في نهضة أوروبة) وكتاب: (الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب).

وأخيراً وليس آخراً اشتركنا وبرفقة الدكتور نزار أباظة بعمل كبير استمر عدة سنوات انتهى بإصدار (موسوعة الأوائل والمبدعين في الحضارة العربية الإسلامية).

كل هذه الأعمال المشتركة وغيرها كشفت لي عن مزايا نادرة تتميز بها شخصية الدكتور شوقي، منها: أنه حين يقتضي الأمر تقسيماً للعمل المشترك، يحمل هو الجزء الأكبر منه دون أي تبرُّم أو منَّة ويصبر على تقصير الآخرين ويتسامح أمام هفواتهم. كل ذلك يجري بهدوء ودون جدل أو نقاش، مادام الأمر يتم بين أخوة متعاونين في سبيل أهداف سامية نبيلة.

أنهي كلمتي هذه بشكر مؤسسة دار الفكر وعلى رأسها الأخ الكريم الأستاذ محمد عدنان سالم على حسن اختيارها للشخصيات العلمية التي كرمتها، وأهنئها على اختيارها الموفق للشخصية المكرمة لهذا العام حين اختارت الدكتور شوقي أبو خليل للعام ٢٠٠٤م، فهو جدير بالتكريم والتقدير لمواهبه وقدراته وطباعه التي غرسها الله تعالى فيه، ولإنتاجه الكبير الذي كان منه بعض الكتب التي لم يُسْبق إلى موضوعاتها، ولم يتطرق أحد قبله إلى التأليف بما يشبهها، كان منها: (أطلس دول العالم الإسلامي)، و(أطلس القرآن الكريم)، و(أطلس السيرة النبوية)، و(أطلس الحديث النبوي).

فجزاه الله خير الجزاء على ما قدم ويقدم من كتب تفيد الدارسين والباحثين في تاريخ العرب والإسلام، والدفاع عن هذا التاريخ ورجاله وحضارته بأسلوب علمي وحواري أصبح يميّز صاحبه ويدلُّ عليه.

وفي ختام كلمتي أهنئ الدكتور شوقي تهنئة قلبية بهذا التكريم الذي ناله بجدارة واستحقاق.

وأكرر الشكر للقائمين على هذا التكريم من رجال مؤسسة دار الفكر ولكل من أسهم فيه.

كنت ومازلت ظلّه
منذ خمس وأربعين سنة
بعض الملامح من فضائل الدكتور شوقي أبو خليل
وجهوده في خدمة التراث العربي والتاريخي

الأستاذ خير الدين السراقبي

أكتب هذه السطور إلى الأخ الدكتور شوقي أبو خليل بمناسبة تكريمه من قبل أسرة (دار الفكر) لعام ٢٠٠٤م، الدار التي آلت على نفسها في كل عام تكريم واحدٍ من أهلِ الفكر والعلم والأدب. كما أنني أتقدم بهذه المناسبة الكريمة بخالص الشكر والامتنان إلى أسرة دار الفكر والمتمثلة بمديرها العام الأستاذ محمد عدنان سالم الذي أراد أن يبوئ علماء الأمة منزلتهم التي يستحقونها ويصون العلم لحفظه من الضياع ونقله إلى الأجيال مما وصّى به ديننا الحنيف فجزاه الله عنا كل خير، وبعد

فلم أكن في يوم من الأيام كاتباً أو مدرساً، رغم أنني أحمل الإجازة في الآداب قسم التاريخ، وقد شاءت الظروف ألاّ أمارس اختصاصي، وعملت في الحقل الإداري.

أعود إلى صاحب المناسبة، إلى من عرفتُه من خلال صداقتي له، إلى الأخ الغالي الدكتور شوقي الذي بدأت علاقتي به منذ أواخر الخمسينيات. أردت أن

أسطر ما يكنُّه قلبي من محبة ووفاء. لقد كنت له ولا أبالغ كالظل بالذهاب والإياب والحلِّ والترحال، وهنا أريد أن أتحدث عنه قبل الفترة التي بدأ بها في تأليف الكتب التاريخية.

عرفت عنه أنه كان شاباً خلوقاً صادقاً وفياً، ولم يكن أسيراً لأية عادة غير نافعة. يخشى الوقوع في الحرام أو أن يصادق أي إنسان غير ملتزم بالإيمان والتقوى. كان محباً لوالديه ويبرُّهما على الوجه الأكمل، وكم كنت أسمع من والديه كلمات الرضا والدعاء له بالنجاح والتوفيق، كان همه إسعاد والديه -رحمهما الله-.

عندما حصل على الشهادة الدراسية الثانوية - الفرع العلمي - والتي تخوله دخول الفروع العلمية في الجامعة اختار دراسة مادة التاريخ لرغبته الخاصة وتوجيه العلماء له.

حصل على إجازة الآداب - قسم التاريخ - وعُيِّن مدرساً لهذه المادة وقد كان وما يزال مدرساً ناجحاً تكتظُّ قاعة درسه بالحضور؛ لأنه يعمل بإخلاص، فكسب بذلك محبة طلابه. وبعدما عين مدرساً كان يقتطع من راتبه جزءاً لشراء الكتب، وبعد مرور الأيام أصبح بحوزَتِهِ مكتبة زاخرة من مختلف الكتب القيمة من تراثية وتاريخية، وكانت هوايته الأولى قراءة الكتب وتسجيل ملاحظاته على هوامشها، وتدوين ما يختاره على كراسات يحتفظ بها. ومنذ تلك الفترة عرفت عنه أنه لا يطرح أي موضوع إلا أن يكون مُوثَّقاً.

أما هوايته الثانية فكانت كتابة الخط العربي بأنواعه، وكانت له هواية أخرى وهي رسم الخرائط والمصورات الجغرافية على نحو رفيع المستوى، هذا الأمر - ممارسته هواياته - أدى إلى تفوقه ونجاحه في التدريس لجميع مراحله وباعتراف جميع من قام بتدريسهم.

بعدها بدأت مرحلة الكتابة والتأليف، فكانت كتبه مميزة بهدوئه وثقته بنفسه، وبراعته في الشرح والتفسير، وكان يعتمد في كل كتاباته التوثيق وأن يكون مفهوماً من مختلف القراء.

وهنا لا أريد أن أذكر جميع مؤلفاته حصراً، وإنما أردت أن أُعرجَ على ما بذاكرتي، فلقد كتب في مجالات عدة من أبرزها (الإسلاميات): الإسلام في قفص الاتهام، وقد كتب حوالي تسعة مؤلفات: (الإسلام وحركات التحرر العربية)، (هارون الرشيد) إلخ.. وقد كتب أيضاً عن غزوات الرسول الأعظم ﷺ وأيضاً سلسلة في الميزان، ولا أريد هنا أن أذكر جميع مؤلفاته حيث إنها مدونة بنشرة دار الفكر الموزعة على الحضور، لكن الذي يجدر بالذكر العمل الأخير الذي خصه الله تعالى به، العمل الذي لم يسبقه إليه أحد بفضل الله، وهو مجموعة الأطالس، وقد لاقت هذه الأطالس القبول من مختلف البلاد العربية لما تحتويه من معلومات قيمة يحتاج إليها كل دارس.

أسأل الله له التوفيق وأن يثيبه على ما قدم، وهنا أعود وأقول بأن سر نجاحه يعود إلى إيمانه بالله وإخلاصه بعمله وبره لوالديه وما يقدمه من جهد وإخلاص في تدريسه لطلابه من مختلف الجنسيات، والتي يقارب عددها حوالي سبعين جنسية، وكذلك لا ننسى فضل الله علينا بتقديمه أسبوعياً محاضرات في مختلف مجالات الحياة لأصدقائه وأحبائه.

لما تقدم لم أتمكن من أن أفي أخي وصديقي الدكتور شوقي أبو خليل حقه على الشكل الذي ينبغي لعدم مقدرتي على الكتابة كما أسلفت، ولكن أحببت أن أقدم جزءاً يسيراً عن معرفتي ببعض فضائله عليَّ ولعلِّي قد قدمت ما يملي علي الواجب، واستجابة لقول الرسول الأعظم ﷺ حيث يقول: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدو فادعوا له».

وفي الختام أتوجه إلى المولى- عز وجل - داعياً متضرعاً أن يثيب كل من ساهم في هذا الحفل الكريم وأن يحبب إلينا العلم والعلماء وينفعنا بما علَّمنا. كما أنني أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى أسرة دار الفكر لما تقدمه في جميع مجالاتها الخيرة وتكريمها للعلم والعلماء. والحمد لله رب العالمين.

الدكتور شوقي أبو خليل كما عرفته

الأستاذ فرحان عبد الله أحمد الفرحان

شوقي أبو خليل عرفته من كتاباته عندما كنت اقرأ له ما كتبه عن جرجي زيدان وغيره، حيث تصدَّى لهؤلاء بالكتابة الحرَّة الأصيلة.

جرجي زيدان الذي ملأ السَّاحة العربيَّة بكتاباته في الأدب والتَّاريخ والقصص الخيالي التي ألصقها برجالات الأمة الأقدمين، كانت غالبيتها ملغَّمة، وجاء الدكتور أبو خليل ليعرِّي هذه الكتابات التي انطلى بعضها على البعض في العالم العربي.

من هذه اللَّحظة بدأ الدكتور شوقي أبو خليل يشدُّ انتباهي إليه، وأخذت أقرأ ما تعقب به جرجي زيدان، الذي لم يتابعه أحد قبله من العالم العربي، بقصصه المزيفة، وكتاباته المغلوطة، وأخذ أبو خليل يحصي عليه أنفاسه فيما كتب.

كنا في حاجة إلى أمثال الدكتور شوقي أبو خليل منذ زمن بعيد، لكن ربما جعل الله على يديه أن يتابع أمثال جرجي زيدان، وهم كثيرون في العالم العربي وغيره.

لقد أغنى الدكتور أبو خليل المكتبة العربيَّة بسد ثغرة كما قلت، نحن في حاجة ماسَّة لها، خصوصاً أنَّه ظهر في العالم العربي بعض من مجَّد جرجي

زيدان وأمثاله، وجعلوه علماً من أعلام العرب في مصر وغيرها من العالم العربي. لقد تتبع الدكتور أبو خليل جرجي زيدان وقصصه الثلاث والعشرين، الواحدة تلو الأُخرى في كتابه (جرجي زيدان في الميزان)، الذي أخرجه في سنة ١٩٨٠م، هذه القصص الملغمة وقد عرَّاها من أوَّلها إلى أدناها. لقد تابع الدكتور أبو خليل الموضوع نفسه، فكتب عن بندلي الجوزي، وكارل بروكلمان، وفيليب حتّي، وحتى غوستاف لوبون العالم الفرنسي، وإن كان أقلَّهم تجنّياً في الكتابة عن العالم العربي.

كان الدكتور أبو خليل كتب في الإسلاميات وفي التاريخ الإسلامي، وسلسلة أُحبُّ أن أعرف، وغزوات الرسول والمعارك الكبرى في الإسلام، وسلسلة أُحب أن أكون.

لكن ما شدَّني حيث أُتابع ما يكتب لكي أقرأ بتأمُّل مجموعة الأطالس الإسلامية. إنَّ المتتبع في الغرب وأميركا هذا الأسلوب من الأطالس يلاحظ أنه لم يدخل إلى العالم العربي إلاَّ مؤخراً، وكان على يد الدكتور شوقي أبو خليل الإبداع في الموضوع، هذه الأطالس التي سدَّت ثلمة كنَّا في أمسِّ الحاجة إليها، وهي:

١- أطلس التاريخ العربي الإسلامي.

٢- أطلس الحديث النَّبوي (أماكن وأقوام).

٣- أطلس دول العالم الإسلامي.

٤- أطلس السِّيرة النَّبوية.

٥- أطلس القرآن (أماكن، أقوام، أعلام)

هذه الأطالس أقول: إنَّها مادَّة دسمة، كان القارئ والباحث العربي في حاجة لها منذ أمد بعيد، لكن استطاعت أن تملأ عليه بعض جوانبه العلميَّة.

هذا هو الدكتور شوقي أبو خليل الذي عرفته منذ أمدٍ بعيد، عندما كنت أزور بلاد الشَّام ودمشق في أشهر الصيف للتصييف، وكنت أغشى دار الفكر ومكتبتها في منطقة البرامكة، وأجده قابعاً أمام الكتب والمراجع في المبنى القديم لدار الفكر المقابل لمبناها الحالي الذي انتقل إلى مقرِّه الجديد في مبناه الحالي.

كنت عند زيارتي لدمشق لقضاء بعض الحاجيات قادماً من الزبداني المَصِيف، أنزل في مقرِّ المواصلات ومفترق الطُّرق، البرامكة، أوَّل عمل أقوم به زيارة دار الفكر والدكتور شوقي أبو خليل، ذلك العالم الذي وُلِد في ديار الشام وعاش فيها، الذي أكمل دراسته في كلية الآداب جامعة دمشق قسم التاريخ، تخصَّص في التاريخ الإسلامي، ثم تابع الأبحاث والدراسات العُليا حيث حصل على الدكتوراه من جامعة باكو عاصمة أذربيجان من الاتحاد السُّوفييتي، واليوم جهمورية مستقلة. وبعد عودته إلى الوطن، أصبح أستاذاً محاضراً في كلية الشريعة، جامعة دمشق، ثم أستاذ الحضارة الإسلامية في معهد الفتح بدمشق، فرع الأزهر.

وكان الدكتور أبو خليل قد أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه في سورية وغيرها من أبناء وبنات العالم العربي.

زار الدكتور أبو خليل عدداً من دول العالم منها: المملكة المتحدة (بريطانية)، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، مالطا، الجماهيرية الليبية، جمهورية مصر العربية، المملكة الأردنية، المملكة العربية السعودية، الجمهورية اللبنانية، إسبانية.. وغيرها من دول العالم.

هذه الزِّيارات لهذه الدُّول لحضور مؤتمرات أو إلقاء محاضرات في هذه المؤتمرات والنَّدوات، والمشاركة في المناقشة.

يقوم الدكتور أبو خليل اليوم بمشروع ضخم، بالإضافة إلى ما قام به من جهود، ذلك هو مشروع المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام، والتي صدر منها خمسة عشر جزءاً حتَّى الآن، والباقي خمسة أجزاء، يتم هذه الموسوعة المهمة العلمية التاريخية.

هذا هو الدكتور شوقي أبو خليل الذي عرفته، حيث قد سبقني إلى معرفته شقيقي الأُستاذ راشد عبد الله أحمد الفرحان، عندما كانوا يلتقون سويَّة في المؤتمرات العلميَّة، وتوطدت العلاقة بينهم.

وأخيراً.. فإنِّي إذ أُحيي هذه المعمعة العلميَّة التي سدَّت الفراغ بعد رحيل الكبار، أمثال محبِّ الدين الخطيب، ومحمود شاكر، وحمد الجاسر وغيرهم، الذين رحلوا عنّا في نهاية القرن العشرين، بعد أن أدُّوا واجبهم تجاه دينهم ولغتهم، بعد أن سجلوا بأحرف من نور جهوداً جبَّارة لا تُمحى، ويعجز عنها الكثيرون.

إذن أُحيي الدكتور شوقي أبو خليل وأنا أُنهي هذه الكلمات المتواضعة بحقِّه، والتي لا تفيه حقَّه حيث كفانا المؤونة والمشقَّة في تتبُّع الكثير الكثير من الأراجيف التي تنال العالم العربي من الكتابات المسمومة والمغشوشة، وأقول جزاه الله عنا خير الجزاء، وألهم أهله الصبر والسلوان على تحمُّلهم بعده عنهم، وانشغاله بالعلم، وعلى ابتعاده عنهم واقترابه منّا ومن العلم، والله يحفظه ويرعاه لخدمة هذه الأمة.

أكتب هذه الكلمات عاصياً لمبتغاه، مرضياً لرغبتي.

الدكتور شوقي مديراً فصديقاً.. ثمَّ عَلَماً

الأستاذ حسن مروة

إنَّ من أشق المهمات على الإنسان المتأدّب أن يكتب عمّن يحب؛ لأنّ في ذلك منزلقاتٍ ومهاويَ لا يخشاها ويتهيّب منها إلاَّ مَن كان الصدق دَيْدَنَه، والوفاء دَأْبَه، وهو إلى ذلك يستشعر شرفَ الكلمة، ومبلغ خطرها.

لعلّ تحرّي العدل في الحكم، والإنصاف في النّظر يأتي على رأس تلك المنزلقات.. حيث اعتاد الكَتَبة النّظر بعينٍ واحدة من العينين، إمّا عينُ الرِّضا فتكِلُّ عن كلّ عيبٍ، وتكفرُ كلّ نقيصةٍ، وتغفرُ كلّ كبيرة، وإمّا عينُ السّخط فتبدي كلّ مخزاة، وتكفُر كلّ فضيلة وتهوّل كلّ صغيرة، وهذا من شأنه أن يُجِنَّ الحقيقة في رحِم الغيب، ويستر الواقع وراء غلالات تشفّ عمّا وراءها شائهاً مشوشاً.. ومنذا الذي يمسك بميزان العدالة، وينظر بعينيّ الحقّ، ويقيم الوزن بالقسط، ولا يطغى في الميزان، كما أمر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٥٥/٧-٩].

فهل سأتمكّن فيما أبوح به من تحرّي العدالة، وملازمة الإنصاف، أم أن حبّي سيعمي ويصمّ..

من هنا كانت البداية

في سنة عجفاء، عضّني نابها، وجرّحني مخلبها، وجدتُني تحت وطأة الحاجة، وسياط الفراغ، وفَوْرة الشبّاب، أرتادُ كلّ مكان يلوح فيه أمل، وأطرق كلّ بابٍ يبشر بفرصة عمل...

فأسرتي التي حملتني صغيراً، ورفعتني كبيراً، آن لها أن تقطف ثمار ما زرعت من غراس المحبة، وشجيرات الصّبر..

وكذا العمر يطاردني.. أن لا وقت تضيّعه، فهلمّ هلمّ.

وفي يوم، غامت عيناي بضبابة من دمع الكبرياء، واسودّت دنياي بسحائب من الكآبة، حملتني قدماي، للمرة كم..؟ لا أدري، إلى مديرية التربية، وقفت أمام بابٍ كبير أنتظر الإذن بالدخول وأنا أتمتم: «يُسلّم عليك أستاذي أبو فوّاز»..

لا لا ليس هكذا.. بل:

«أنا فلان أرسلني الأستاذ أبو فوّاز ويقرئك السّلام..».

فجأة وجدت نفسي أمام الموجّهة الأولى لمادّة اللغة العربية، الأستاذة ندوى النوري - متّعها الله بالصحة - وما إن قدّمت نفسي، حتّى ابتسمت ابتسامة عريضة، يزينها الحياء، وتجمّلها اللباقة، وهو ما كانت تمتاز به. لم تترك لي فرصةً للتحدّث، ووفرّت عليّ البحث عن الأسلوب المناسب والكلمات المعبرة.

أهلاً أستاذ حسن، كلّمني الأستاذ أبو فوّاز، وشهادة أبي فوّاز بكَ رائعة، وأنا أقدرها.

يا إلهي.. هكذا فليكن المربّون المحبّون وإلاّ فلا، وهكذا يتبنّى العلماء الصادقون أبناءهم...

أفقت من ذهولي على نبرة صوتها التي تنمّ عن نعومة وصدق وأدب جمّ.. أستاذ حسن: هذا تكليف بستّ وعشرين ساعةً في ثانوية الضُّمَيْر، وهذه رسالة للسيد المدير هناك..

غادرت المكان وأنا أردّد كلمات الشكر، وبدوافع كثيرة، ومشاغل عديدة، ارتطمت بالباب لدى الخروج...

وسقطت ورقة التكليف من يدي وكذلك الرسالة...

التقطتهما على عجل، وبينما أعيد ترتيب أوراقي ونفسي، وأفكاري، استوقفني زميل دراسة يدعى (علي) سألني أين يا حسن؟!

قلت: في بلدة الضمير..

صرخ في وجهي بلهجته المحليّة (وَلَكْ).. إياك، فستصادفك مشكلات لا قِبَل لك بها... أنا كنت هناك، وغادرت البلد تحت جنح الليل... يا إلهي..

الضُّمَيْر..! أين تقع.. ما طبيعتها.. ما طبيعة أهلها..؟!

وأنا الذي لم أغادر دائرتي التي قطرها لا يتجاوز محور معربا قريتي ودمشق..

صحيح أنّ المتنبي ذكرها في شعره.. وقرأته، وعلمت من دراستي أنّها تقع جغرافياً على أطراف الغوطة القصيّة، وأنّها بوابة بادية الشام.. وأنّها وأنّها..

ولكن لم أستطع من (كلّ) ذلك أن أكوّن صورة واضحة..

المهمّ (٢٦×٥=١٣٠ل.س) في الأسبوع مضروبة بـ (٤) في الشهر فالمجموع (٥٢٠ل.س) هذا المبلغ، عام ١٩٧٠م، مبلغ كبير، ولعلّه يفوق ما كنت أحلم به، بل وأتمناه مصلّياً لأجله.

ركبت الحافلة المتجهة إلى الضُّمَيْر من مدينة دوما، وراحت تتهادى تارةً وتتمايل أخرى، تسعل تارةً وتعطس أخرى، وأنا في داخلها أتثاءب تارةً

وأنظر إلى الساعة من خلال ضبابة دمع يترقرق تارة أخرى، فقد قطعت ليلة الأمس ساهراً أترقب الصبح، وكم كان بعيداً، ولعلّه أبعد من بلدة الضمير، في وجدان الذّاهب إليها للمرّة الأولى.

في الإدارة

قطعت المسافة ما بين موقف الحافلة وباب الإدارة بلحظات معدودة، حيث لم يستوقفني مستخدم، ولم يُحلْ بيني وبين الدخول باب خارجي فالمدرسة غير مسوّرة.

بثوانٍ كانت طويلة انتحيت جانباً، عدّلت من هندامي، مسّدت شعري، وتلمست ربطة عنقي.. ثم اجتزت الباب باتّجاه مدير الثانوية، كان مظهره الخارجي وموقعه وراء الطاولة، لا يتركان مجالاً للزّائر أن يحتار أو يتساءل، قدّمت له ورقة التكليف والرسالة المغلقة، مع تحياتي وتقديم اسمي..

نظر إليَّ متفحصاً... ثم قال: خرّيج هذا العام؟ ومكلّف؟!

قلت: نعم..

قلّب التكليف بين يديه، وكأنّي به يريد منه إيضاحاً أكثر.. قلّب الرسالة أيضاً، ثمّ هزّ برأسه هزّةً لا تحتاج عناءً كبيراً للتفسير والفهم.

نهض من وراء المنضدة، تبارك الله، كم هو أطول مني! وقف إلى جانبي.. الله أكبر، ما أشدّ أناقته! حتّى ياقة قميصه مختلفة، وربطة عنقه ربطت بمهارة..

أستاذ حسن... نعم نعم..

تفضّل من فضلك، وإلى جوار باب الإدارة باب موصد علّق عليه لوحة (٣/ ثاع) فتحه عن آخره، ساعدَهُ على ذلك طولُ ذراعه، ثمّ أردف قائلاً: تفضّل إلى هنا أستاذ حسن، وقفت عن يمينه، وبينما كان يقدّمني رحت

أتفحّص وجوه الطلاب، هذا شاربه أكبر من شاربي، وهذا خطَّ لحيته، وذاك أطلقها، وذاك لوّحته شمس الصحراء وعيش البداوة.

صحوت من شرودي ذلك على صوت السيد المدير، وهو يقول مخاطباً الطلاب مشيراً إليَّ بذراعه المرفوعة التي امتدّت فوق رأسي بحكم فارق الطول بيننا:

الأستاذ حسن، ثم مال عليّ قليلاً وهمس في أذني..

ثم عاد من جديد

الأستاذ حسن مروة، مدرّسكم الجديد لمادة اللغة العربية لهذا العام، وهو ممّن تشهد له المنابر والمحابر..

وخلال ثوانٍ خرج وردّ الباب خلفه.

لا أستطيع أن أصف جملة مشاعري في تلك اللحظات، كل ما أدركه أنني عجزت ساعتئذٍ عن إيجاد مبرّرٍ لما حدث.

خوفٌ، رعبٌ، كابوس؟ نعم.. إنّه كلّ ذلك، ولم يكن ذلك لكوني غِرّاً في المهنة، طارئاً عليها، لا أبداً.. فقد درّست من قبلُ في كفر سوسة وفي بلدتي التلّ ومنين، وأحمدُ الله لي من طلابي أولئك أصدقاء أوفياء يتعهدونني بالزيارة للاطمئنان دائماً، ولكن هول الموقف ناجم عن طبيعة المرحلة التدريسية وطبيعة البيئة الجديدة.. وقفت أمام الطلبة أستقرئ كلّ شيءٍ أراه، أسمعه.. وما قطع عليّ ذلك سوى صوتٍ أجشّ يهمس بصوتٍ عالٍ: «هذا أستاذ هذا، يعلم الله هو من عمر ابني».

أدرت ظهري للطلاب من غير تعليق.. وكتبت على السّبورة بخطٍ جميل:

إذا غـــامـــرت في شرفٍ مـــروم   فلا تـقـنـع بـمـا دون الـنـجـوم

ورحت بالاستقراء تارةً، والتقرير تارةً أخرى أشرح البيت، وأحدّد ملامح الحكمة فيه.. ثمّ انتقلت إلى إعرابه.. وصُلت وجُلت ولا أدري كيف اخترته، ولم اخترته؟ هل هو تشجيع لي.. وتخفيف من حدّة الموقف وشدّته؟ أو هو عشقي للمتنبي دفعني للاحتماء به وبصلابته في هذا الموقف العسر؟! ربّما يكون كل ذلك.

وبعد عامٍ، بل دهرٍ.. قرع الجرس، نهض الطلاب واختلطت أصواتهم ولعلّي سمعتُ فقط ما كنت أحبُّ، بل أتمنى أن أسمعه.. قال أحدهم: شباب! أتمنى عليكم جميعاً أن تعطوا الأستاذ فرصة، يبدو عليه أنّه يمتلك شيئاً يقوله. طربتُ في أعماقي، وصممت أذني عن أي تعليق آخر، خرجت من الباب وإذْ ببعض الطلبة يحيطون بي كلٌّ له سؤال وكلٌّ يرمي بتعليق، لم أكن ساعتئذٍ بوضعٍ يسمح لي إلاَّ أن أحافظ على العبارة التي سمعتها في الصف، وأن أنتشي بها..

غير أن عبارة السيد المدير كانت تتجاوب أصداؤها في جنبات نفسي التي بدأت تهدأ، وصار بمقدورها تقليب الأمور على وجوهها.

في الربوة (أبو دراع)

خمسة عشر يوماً مرّت على وجودي بين زملاء شفّافين دافئين وعلى رأسهم الأستاذ شوقي أبو خليل مدير ثانوية الضمير المختلطة، فقد كان علامةً مميّزة بلطف حديثه، وعمق تجربته، وصدق مودّته، إلى ابتسامةٍ عريضة لا تفارق وجهه، إلى أناقة ظاهرةٍ، وعطر فوّاح.

ويتبدّى حسن معشره لجليسه، فكثيراً ما يبادرك بالحديث إن لم تكن ممَّن يحبُّ التحدث، فيحملك - على رأي العرب القدامى - بحديثه الجذّاب العذب، ويقطع بعض وقتك بما هو نافع ومفيد.. وغالباً ما يكون حديثه عن

موقفٍ تاريخي نبيل يصلح للاقتداء والتأسّي، أو عن موقف حياتي يومي بغية نقده وتشريحه ومن ثمّ تحليله والخروج منه بفائدةٍ ما.

أما إخوتي، وأخواتي من الطلبة والطالبات، أقول إخوتي وأخواتي لأنَّ بعضهم يومها كان بمثل سنّي آنذاك، فقد كانوا مثال الأخوة الصادقة ومثال الطلبة النابهين، كيف لا، ومنهم اليوم الأطباء والمهندسون، وكبار الضباط، ومديرو مدارس ومديرات، أما المدرّسون منهم ومربّو الأجيال فحدِّث ولا حرج، ولولا أنّ ذكر هؤلاء مخالفٌ لِمَا أنا فيه من حديثٍ دافئ، لذكرتهم وأسهبت لِمَا لكلّ واحدٍ منهم من فضل ومكانة. دخل الأستاذ شوقي صباح الأربعاء إلى غرفة المدرسين، تناول معنا الشاي، ثم وقف بقامته الممشوقة وابتسامته العريضة ليقول: إخواني بلغوا أهلكم اليوم أنكم في يوم غدٍ الخميس لن تتناولوا الغداء معهم؛ لأنَّنا سننطلق من هنا إلى الربوة، ونتناول طعام الغداء عند (أبو دراع).

انطلقت بنا الحافلة نحو دمشق، تتمايل بغنجٍ هذه المرّة، مع ضحكاتنا التي تنطلق عاليةً بعد كلّ طرفةٍ، أو موقفٍ ساخر، وما هي إلاّ لحظات حتى كنّا نقطع الدرج صاعدين إلى المطعم، وخفّ كلّ من في المطعم من العاملين، وعلى رأسهم صاحب المطعم ليرحبوا بنا وبالأستاذ شوقي خاصةً، ثم أشار صاحب المطعم إلى مكانٍ بارز في المطعم متميّز من غيره بدوام الظّل وجمال الإطلالة معاً.. ورُصَّت المناضد، وفُرشت الستائر البيضاء الناصعة، وأخذ كلٌّ منا مكانه، وأبى يومها الأستاذ شوقي أن أجلس إلاّ قبالته على رأس الطاولة من الجانب الآخر.

تناولنا يومها مالذَّ وطاب، وإلى ذلك اليوم كانت المرَّات التي جلست فيها مثل هذه الجلسة تعدُّ على أصبع واحد أو أصبعين من اليد الواحدة ليس إلاّ، انتصب الأستاذ شوقي في مكانه على رأس الطاولة، وقال: إنَّ هذا الاجتماع

الأخوي المبارك على شرف أخينا الأستاذ حسن مروة، الذي أثبت بكلّ المقاييس أنه أخٌ صادق، ورجل مواقف، ومدرّس ناجح.

تعثّرت على لساني عبارات الشكر، فأجبت بدمعتَيْ عرفانٍ صادقتين وذهب كل منّا إلى بيته، يعيد شريط الذكريات بفكاهاته وصوره، بشفافية الموجودين ودفئهم.. ومع ذلك فهو يستعدُّ بشوقٍ للقاءٍ جديد يوم السبت.

ماذا تعلّمت؟!

علمت فيما بعد أنّ الأستاذ شوقي يعاني من المكلّفين وانشغالهم بدراستهم، وانقطاعهم أيّام الامتحانات، فضلاً عن عدم مبالاة الكثيرين منهم.

وقد اكتوى بنار بعضهم، خاصةً أنّ المدرسة مختلطة، والمرحلة الشاغرة هي المرحلة الثانوية كاملةً مع شعبَتَي ثالث إعدادي (الشهادة)، وهذه الصفوف بحاجةٍ إلى خبرةٍ عالية، وإحساس كبير بالمسؤوليّة، ومتابعةٍ غير منقطعة وإلاّ كانت الكارثة، لترتيب الثانوية، وسمعة الجهاز الإداري والتعليمي في المدرسة، ومستقبل الطلبة أنفسهم، فمعظمهم طموح يتوّثب. وإلاّ فبِمَ نفسّر بروز مجموعة من الأطباء، وثلّة من المهندسين، وكوكبة من المدرّسين في المدارس الثانوية وفي الجامعات، وقد نجم من بينهم أيضاً عددٌ من مديري المدارس وضبّاط الجيش..

فهؤلاء بتوثّبهم وطموحهم يشكّلون ورقةً ضاغطةً على الإدارة تدفعها إلى التروّي وحسن الاختيار في الجهاز كلّه.

فما الذي خرجت به بعد هذا وذاك؟

أولاً: الحرص الشديد لدى الأستاذ شوقي على الأمانة التي حُمّلها والمهمة التي أسندت إليه، فهو يرعاها حقّ الرعاية، فلا يرضى لها إلاّ كلّ ما هو نافع ومفيد وقادر.

ثانياً: قدح زناد التحدّي لدى العاملين معه، فهو يعرّضهم لمواقف يقدح بها زناد التحدي عندهم، كي يستخرج ماكَمَن من طاقاتهم، ويستلّ ما أُغمد من رجولتهم.

ثالثاً: صدق الأخوة بينه وبين كلّ من يعمل معه، ولم أره يوماً بعد ذلك مديراً، بل كان إلى جانبي أخاً وصديقاً، وواحداً من فريق العمل.

رابعاً: الوفاء والعرفان، فما مضى على لقائنا الأول سوى أشهر معدودة حتى دعاني إلى منزله العامر - وكان ما زال يقطن في المهاجرين - وقام بالعناية بي ترحيباً وضيافةً بنفسه الطيبة الشفافة.

خامساً: تعلّمت حبَّ أمّتي والاعتزاز بتاريخها، فقد زادني في ذلك حبّاً على حب، وفخاراً على فخار، إذْ كنت أدور في هذا الفلك وأحرث في هذه الأرض، فلمّا التقينا، وقعت على توأم روحي في هذا الباب، وقد أهداني يومها مجموعةً من كتبه التي صدرت حديثاً؛ اليرموك، القادسية، نهاوند، .. وتتابع بعدها العطاء غزيراً مباركاً..

الدكتور شوقي أبو خليل.. علماً

كرّت الأيام، ودارت السّنون، واستدار الزمان لأرى نفسي مرّة أخرى وجهاً لوجه مع الدكتور شوقي أبو خليل أبي المعتز.

عندما صرتُ مشرفاً على قسم التّدقيق اللغوي في دار الفكر العامرة بدمشق، والدكتور هو مدير النّشر فيها كما هو معروف منذ ما يزيد عن ربع قرن.

لم أصدق ما رأت عيناي بداية، أبو المعتزّ أمامي، بابتسامته العريضة، ووجهه المنفرج الأسارير، وأناقته المعهودة، وحسن لقائه.. ثمان وعشرون سنةً

مرّت، وكأنّنا لم نفترق لحظةً واحدة؛ يا إلهي ما أضيق الدنيا، وما أشد اتّساعها..!

تجاذبنا أطراف الحديث بكل ما بيننا من محبّةٍ ومودّة، وبكلّ ما يقتضيه الوفاء لأيامٍ عشناها معاً..

سألني عن كلّ شيءٍ، وسألته.. وعلمت أنّ النّجم الصّاعد ما زال في صعود، وأنّ حبّه لأمته وتاريخها تجسَّد في كتب كثيرةٍ، ومادة غزيرة، وأن تدريسه لمادة التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق فتح أمامه آفاقاً جديدة.

وعلمت أنّ غيرته على الإسلام ورجالاته تجسَّدت في مجموعةٍ من الكتب، تصدى فيها للدفاع عنهم كهارون الرشيد، وغيره من الشخصيات الكبيرة، وعلمت أنَّ الغيرة نفسها وضعته على طريق أولئك الذين كادوا للإسلام ويكيدون بما ينفثون من أفكارهم من سموم، ففنَّد مزاعمهم، وسفّه آراءهم بما سدّده من سهام الحقيقة، قاطعاً عليهم الطريق بسيف الحجة، وكان على رأس هؤلاء جورجي زيدان.

وعلمت أيضاً أن عشقه للحضارة العربية الإسلامية دفعه إلى تسجيل محطّات على طريق تلك الحضارة الطويل، بل جعلته يتفاعل مع لوبّون، وهونكه، وغيرهم ممَّن أنصفوا حضارتنا من علماء الغرب المنصفين.

وعلمت إلى ما تقدّم أنّه ابن العصر، وهو يدرك استحقاقاته، ويؤمن بأنَّ سدّ الأبواب، وإغلاق النوافذ، أمرٌ مرفوض في عالمٍ متغيِّر متبِّدل، ينبلج فجره كلّ يومٍ بجديد فكراً وعلماً وتقانات.

التّقوقع إذن عفونة ومرض ثم موت واندثار، فكان لابدَّ من الأخذ والعطاء والحوار مع الآخر، وهذا طريقٌ اختطّه لنفسه وارتضاه جدولاً يومياً يحاور من خلاله الآخر، يأخذ منه ويعطيه، وبذلك تغتني الحضارة الإنسانية.

وعلمت أيضاً أنّ الدكتور شوقي بما ضمَّ بين جنبيه من قلبٍ كبير، وحبّ للطفولة وأبوة صادقة - لمحتُها يوم كانت (ربا) ما تزال طفلةً مدللة، تحوم كفراشةٍ وعينا أبي المعتز ترنوان إليها بكلّ المحبة والحنان والشفقة والاهتمام - أقول: منذ ذلك اليوم أدركت طبيعة العلاقة بينه وبين الأطفال، وكم هو عاشق لعالمهم، إنَّ هذا العشق انبثق عنه فيما بعد كَمٌّ هائل من قصص الطفولة، ومعارف أخرى عن الأمة أرضاً وتاريخاً ورجالات، أملاً منه في صنع عالمٍ سعيد لطفولة سعيدة، تأسيساً لمستقبلٍ واعد، وهل طفل اليوم إلاّ رجل المستقبل..

علمت ما علمت، فتواضعت أكثر، وأحببت الرجل أكثر، وأدركت ساعتئذٍ أنني أمام شجرة علم باسقة، ودوحة أخلاقٍ فاضلة. إلاّ أنّ ما شَدَهني بدايةً، وجعلني أقف متسائلاً بعجبٍ ودهشة تلك الأطالس المتنوعة التي غطّت كلّ ما يتعلق بتراث هذه الأمة، شعوباً وقبائل، غزوات ووقائع، جذوراً وتاريخاً، ما جعل هذا التراث كتاباً مفتوحاً لشداة المعرفة، وطالبي العلم، ومُحبّي الاطلاع والمعتزين بتراث هذه الأمة الخالدة.

إنّ فكرة الأطالس ليست بجديدة، فقد سبقتنا إليها أممٌ وثقافات من قبل، وفي مكتبتنا العربية أطالس كثيرة، فالفكرة ليست بدعاً في هذا الباب. إلاّ أنّ ما جعل هذه الأطالس سائرةً في الآفاق، ذائعة الصِّيت في الأمم لا تكاد تصدر الطبعة حتى تنفدَ، مضارعة بذلك ما يصدر عن مكتبات الغرب من كتب، فهي تنشر الكتاب الواحد بأعداد وفيرة تفُوق ما يتصوّره قارئ عربي..

وما أدراك ما يتصوره؟!

إنَّ قصارى ما يطبع من كتاب عربي ألفا نسخةٍ تجدُ طريقها إلى المستودعات تخرج بعدها على استحياء وبصورةٍ مخجلة، تخرج بالنسخة والنسختين، لأنَّ إنساننا العربيّ في هذه الأيام لا يقرأ، فالقراءة ليست من أولوياته بل ليست في

دائرة اهتماماته، فبارت تجارة الكتاب، وكسدت صناعته، غير أنَّ هذه الأطالس شبّت عن الطوق، وخرقت العادة، فما إن نزلت الطبعة الأولى من (أطلس التاريخ العربي الإسلامي) حتى تلقّفته الأيدي وتداوله الباحثون والمهتمون، بل تجاوز الأمر إلى عامة الناس، لما رأوْا فيه من:

١- معلومة نافعة موثقة.

٢- صورة توضيحيّة أنيقة.

٣- مصور (خريطة) يُوضح الفكرة.

٤- فهرس تفصيلي للأعلام والمواضع والكتب وغيرها من المفردات ما يجعل الأطلس منثوراً بين يدي الباحث بسهولة ويُسر، ولشدّ ما سررت بهذه الأطالس، وغبطت صاحبها، لذكاء الفكرة وطرافتها، وروعة الإخراج وجماله، وتوفيق الله، وهو الأهمّ، إذ طرح لها القبول في الأرض، وممّا أسعدني ثقة الدكتور شوقي بي، وإسناد أمر اللّغة إليّ في هذه الأطالس، فأُتيح لي معايشة كلّ واحدٍ منها لحظةً بلحظة، وساعةً بساعة.

من أجل هذا، وتعبيراً عن إيماني بنفعها وحرصي على شيوعها أكثر فأكثر بين يدي الناس عامّتهم قبل الخاصة وحبي وإعجابي بمنشئها.. ذكاءً وصبراً وإتقاناً وطول مثابرة، وثقة بما عند الله من توفيق.

أقول من أجل ذلك كلّه رأيت أن أعرض هذه الأطالس لا عرض المروِّج المعلن، فهي غنية عن ذلك، بل للتعبير عن إعجابٍ فحسب، وإحقاق الحقّ...

١- أطلس التاريخ العربي الإسلامي:

هو أوّل أطلس، وإليه يعود الفضل بتتابع الأطالس المنوّعة بعده، لما كان له من أثرٍ طيّب في نفوس القرّاء، وسوق الكتاب.

فلا غرابة في صدور الطبعة الخامسة منه عام ٢٠٠٢م بـ(٣٠٠٠) نسخة، وكانت الطبعة الأولى منه قد صدرت عام ١٩٨٤م بـ(٥٠٠٠) نسخة، وما بين الأولى والخامسة ثلاث طبعات حول هذا المعدّل.

يقع الأطلس في (٣٣٦) صفحة.

- **موضوعه:**

بحثٌ يتناول التاريخ العربي الإسلامي بدءاً من وجود العرب، وحتى اللحظة الحاضرة، مغطّياً بذلك هذا التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه. مراعياً تسلسل الأحداث وقيام الدول.

وقد زوّد هذا الأطلس بصور حقيقية وبعضها مُتخيَّل، وخرائط، وجداول ومشجرات لتكون وسائل تعليميّة وتربويّة مساعدة على فهم المعلومة وتحقيق الهدف.

بكلّ ما تقدَّم ولكلّ ما تقدَّم كان هذا الأطلس بحقّ جزءاً من مشروعٍ ثقافيّ حضاريّ لا غنى عنه للعالم والباحث والمثقَّف.

٢- أطلس دول العالم الإسلاميّ:

أطلس تاريخي، جغرافي، اقتصادي يقع في (٢٥٦) صفحة.

صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٩٩م، طُبع منه (٣٠٠٠) نسخة، ويجري الآن الإعداد للطبعة الثانية.

- **موضوعه:**

عرض جغرافي تاريخي اقتصادي للدول الإسلامية المشاركة في منظمة المؤتمر الإسلامي وتكمن أهمية هذا البحث أنّه يعرّف المسلم بعالمه الإسلامي، يُغني ثقافة شداة المعرفة ومحبّي هذا النوع من الأبحاث، ويقرب ما بين أبناء العالم الإسلامي من خلال تعريف كلّ طرفٍ بالآخر.

وقد قدّم الدكتور مادّته في هذا الأطلس بنظامٍ بديعٍ، غنيّ وموجز في الوقت نفسه، فهو يقدّم:

١- اسم البلد الذي يعرف به، وعلمه، وعاصمته، ثمَّ المساحة وعدد السكان، ونسبة المسلمين، إن كان في البلد أقليات من دياناتٍ أخرى.

٢- نبذة تاريخيّة، وصول الإسلام إلى هذا البلد، والطريقة التي وصل إليه بها. ومن ثمّ عرض لأبرز الأحداث التاريخية، وفيها تاريخ استقلال هذا البلد، إن كان ممّن ابتلي بمصيبة الاستعمار، وقلّما سَلِم قطرٌ مسلم من أطماع الغرب، ومخطّطاته اللئيمة.

٣- وأخيراً لمحة اقتصادية توضح الصادرات والواردات والميزان التجاري وما يمتلكه من ثروات مختلفة، مع بيان العملة التي يعتمدها للتعامل. كلّ ذلك بثوبٍ قشيبٍ وبديعٍ من الصور والخرائط والجداول التي تغني البحث.

٤- وألحق بالكتاب ثبتاً بمصادره التي اعتمد عليها، وفي ذلك عونٌ للباحث الذي يريد البحث والتقصّي، وكذلك جعل في آخره فهارس فنية منوعة ترشد الباحث إلى مبتغاه بسهولةٍ ويُسر.

٣- أطلس القرآن:

أطلس تاريخي، جغرافي، بشري (ديموغرافي)، يقع في (٣٣٦) صفحة، صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠م، طبع منه (٢٠٠٠) نسخة، ويجري الآن الإعداد للطبعة السادسة، وقد ترجم إلى الإنكليزية والأُوردية والتركية.

- موضوعه:

حرص هذا الأطلس على الربط الجغرافي (المكاني) والتاريخي (الزماني) بين ما ورد في القرآن الكريم من أسماء أعلام، وأقوام وأماكن ومواقعها

على الأرض. وبذلك تكتمل الصورة لدى القارئ، وتترسّخ المعلومة، بل في أحيان كثيرة يتعاطف مع المكان، وينشدُّ إلى الزمان ليصبح جزءاً من الحدث، أو يصبح الحدث جزءاً منه، كذكر (العقبة الكبرى) مثلاً، أو ذكر الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، والدائرة التي كانت حركتهم في إطارها.

فهو يقدّم مثلاً الاسم، وليكن نوحاً عليه السلام، فيذكر عدد المواضع التي ورد ذكره فيها في القرآن الكريم أولاً، ثم يقدّم نبذةً تاريخية عن حياة هذا النبي بما يخدم الهدف الإيماني والأخلاقي والاجتماعي من ذكره.

وأخيراً يضع خريطةً تفصيلية تحدّد موقع قوم هذا النبيّ، ثم توضح حركته في سبيل دعوته إلى التوحيد.

كذلك.. أصحاب الكهف مثلاً، يذكر الآيات التي جاء فيها ذكرهم، ثم ينقل مختلف الأقوال فيهم، وأخيراً يضع خريطةً تفصيليّة ترصد حركة هؤلاء النّفر، ممّا يقرب الحدث إلى أذهاننا، وربّما يجعلنا نتماهى مع أبطاله، ثم كان مسرد المصادر والمراجع التي استقى منها مادته، ليكون عوناً للباحث المستزيد، والدارس المتبحر.

وفهرس الأعلام والأماكن والأقوام التي من شأنها أن ترشد الباحث إلى مبتغاه بسهولة ويُسر.

٤- أطلس السّيرة النبويّة:

أطلس تاريخي جغرافي بشريّ، يقع في (٣٣٦) صفحة.

صدرت الطبعة الأولى عام (٢٠٠٢م) طبع منه (٣٠٠٠) نسخة، ويجري الآن الإعداد للطبعة الثانية.

- موضوعه:

السيرة النبويّة المطهّرة، على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، ولكن في ثوبٍ جديد، غلبت عليه الصور والخرائط التي تحدّد المواقع والجهات التي شرّفها ﷺ بذكرٍ أو حضور.

وبذلك هيّأ المؤلف - حفظه الله - للقارئ فرصةً ثمينة، إذْ بمقدور القارئ أن يقف أمام الصورة وإلى جواره الخريطة ليرتحل بعد ذلك متماهياً مع الحدث، وصاحب الحدث.

فأول ما يطالعنا مصوّر لشبه الجزيرة العربيّة التي كانت مسرحاً لهذه السّيرة المطهرة، ثمّ يعود بنا بعدها إلى الجذور، إلى سيّدنا إبراهيم عليه السلام جدّ النبي محمد ﷺ، راصداً حركته منذ ولادته حتى دفنه في الخليل - ردّها الله علينا وعلى المسلمين عزيزة الجانب، مصانة الكرامة، آمين-.

وهكذا تتوالى أحداث السيرة، ولادته، تجارته، تعبّده، بعثته، غزواته، وفاته عليه الصلاة والسلام، كلّ ذلك في إطارٍ من الصور والخرائط.

ثم جعل للكتاب:

١- ملحقاً تكلّم فيه على توسعات المسجد الحرام، وعلى بناء الكعبة هندسياً ثم على المسعى، وبئر زمزم.

٢- ثبتاً للمصادر والمراجع، يكون عوناً للباحث والدّارس.

٣- فهرساً عاماً يرشد القارئ إلى مبتغاه بسهولةٍ ويُسر.

٥- أطلس الحديث النبوي:

أطلس متمّم لرسالة الأطالس التي سبقته، يقع في (٤٤٠) صفحة. صدرت الطبعة الأولى عام (٢٠٠٣م) طُبع منه (٥٠٠٠) نسخة، ومع ذلك يجري الآن الإعداد للطبعة الثانية، بعد أن طرح الله له القبول.

- **موضوعه:**

تناول الأقوام والأماكن التي ورد ذكرها في الأحاديث الشريفة في كتب الصّحاح الستّة فتكلّم عليها، ثمّ شفع حديثه ذاك بمصورٍ أو صورة توضّح المراد.

فأوّل ما يطلع علينا به المؤلف:

- تعريف مختصر بأصحاب الكتب الستّة، مع مصوّر يوضّح مكان ولادتهم ورحلاتهم في طلب العلم، ومكان وفاة كلّ واحدٍ منهم.

ثم ينتقل إلى مادة الكتاب الأصلية، فيبدأ بسرد المواضع وفق الترتيب الألفبائي.

ف(الأبطح)، (البطحاء) مثلاً، يحدّد موقعه على الأرض.

يأتي على مواضع ذكره في الكتب الستّة، ثم يشفع ذلك بصورٍ ومصورٍ يضفي على المادة وضوحاً وجلاء، وهكذا حتى يستوفي مادة الكتاب.

ثم ينهي الكتاب بثبت المصادر، يليه فهرس للأعلام.

وقد كان من شرطه ألاّ يتعرّض لذكر الأعلام الواردة أسماؤهم في أحاديث الكتب الستّة؛ لأنَّ الأعلام - كما يقول المؤلّف - لهم كتب كثيرة، تلك التي اهتمت بالرجال، فلم يرَ ضرورةً للتكرار.

وبعد

فلقد كتبت ما كتبت عن صديقي وأخي في الله الدكتور شوقي، وأنا أعلم أنني لن أبلغ المراد، ولن أحقق ما أتمناه من استيعابٍ للمادة، واستغراق لكلّ الجوانب، ولكنه جهد المقلّ، وقلم المقصر.

وأعجبني من الدكتور شوقي أمورٌ أتيت على ذكر بعضها، أوجزها من جديد فهي جديرةٌ بالذكر لا للإطراء أو المديح، بل للاهتداء والاقتداء، فجديرٌ بنا أن ننشر أطيب ما لدى علمائنا من فضائل، وأروع ما يشتملون عليه من صفات:

١- تأسّياً بقوله ﷺ: «إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»، واهتداءً بهديه، فإنه ما عمل عملاً، ولا أسند إليه مهمّة إلاَّ بذل جهد الطاقة في إمضاء ذلك وإنجازه حتى إنّك لترى كثيراً من أعماله تحمل بصماته، ويمكنك أن تنسبها إليه، وإن لم يذكر دوره فيها أو تحمل اسمه.

٢- «إنَّ الله نظيفٌ يحبّ النظافة»، و«إنّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال». من هنا تراه دائم الاهتمام بمظهره وأناقته، لأنّه يؤمن بصدق أنّ الشكل الخارجي عنوان ومؤشّر على داخل المرء، فحريٌّ بالمسلم أن ينمّ جمال مظهره عن جودة مخبره.

٣- قال تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ والأمّة الإسلامية من خلفه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فاتخذ منها هو شعاراً لا يفارقه، بل برنامج عملٍ يوميّ، فلا تكاد تقع عينك عليه إلاّ قارئاً أو كاتباً، أو متحدّثاً..

٤- قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣]

من هذا المفهوم تراه محبّاً للحوار واحترام رأي الآخر، ومن أجل هذا فهو دائم التّرحال والتجوال، فمن ندوةٍ إلى مؤتمر، من أجل رفعة الأمّة ونصره قضاياها العادلة.

٥- قال عليه الصلاة والسَّلام: «لا تزولُ قدما عبد يومَ القيامة حتى يُسألَ عن أربعٍ...» ذكر منها ﷺ: «وعن عمره فيما أبلاه»، ولم يكن المحتفى به المكرَّم بعيداً عن هذا المفهوم، بل كان في المركز منه، فإنَّ من يضمّ أعماله بعضها إلى

بعض مع الأخذ بالحسبان التدريس وأعباءه، والمشاركة الاجتماعية النشطة ومتطلباتها، يدرك أنَّ هذه الكتب الكثيرة لا يكفيها عمرٌ واحدٌ بل تحتاج إلى أعمار، ممّا يجعلنا نوقن بأنّه لم يكن يضيّع لحظةً واحدة، بل نذهب أبعد من ذلك، فنؤكّد أن الله سبحانه قد بارك له في وقته، وألهمه حسن استغلاله بشكلٍ منظّم.. وهذا فضلٌ من الله، رأيناه مسبغاً من قبل على أعلامٍ من هذه الأمة كابن عساكر، والنّوويّ والذّهبي، وغيرهم من علماء السَّلف.

وفي الختام أسأل الله أن يجنّب أخي الدكتور شوقي الزّلل، وأن يحميه من شرّ نفسه، وأن يجعل منه قدوةً حسنةً لمعاصريه وللأجيال القادمة.

والحمد لله أولاً وآخراً...

الدكتور شوقي المرَّي

(براعته في التدريس وغيرته الصادقة على الأمة وتاريخها)

الدكتور جنيد الديرشوي

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

منذ حوالي عشرين سنة كنت في بداية المرحلة الإعدادية، وكنت حينها أجمع ما أستطيع توفيره من الملاليم وأدفعها لأخي الأكبر ليتخيَّر لي من الكتب، فكان يحرص على اختيار الكاتب قبل الكتاب ومن أوائل الكتب التي أتحفني بها كتاب أستاذنا فضيلة الدكتور شوقي أبو خليل - حفظه الله تعالى - (هارون الرشيد، أمير الخلفاء، وأجَلُّ ملوك الدنيا) فصادف في قلبي موقعاً، إذ كان تلبيةً لحاجة مُلحّةٍ لدي، وذلك أني كنت قد رأيت مشاهد من بعض المسلسلات التلفزيونية تصور هارون الرشيد - رحمه الله - على أنه ملك غارق في الملذات، يعجّ بلاطه بالجواري والقيان، وأكبر همّه من الدنيا معاقرة الشراب وأن يطرب بسماع المعازف والغناء، وأن يمضي جُلّ وقته مع الغانيات.

وكنت - بحكم نشأتي في أسرة متدينة، وما سمعت فيها من كلام مخالف لما

رأيته - أعلم أن ما يعرض عن الرشيد هو محض افتراء عليه وعلى التاريخ، وأن له سيرة زاهية مشرقة. ولكنني كنت عاجزاً - آنذاك - عن النظر في المصادر التاريخية الأصيلة التي تتحدث عن سيرته بأمانة وصدق، فلما وقع هذا الكتاب في يدي ونظرت فيه، وجدت الصورة المشرقة والإنصاف الجم لهذا الرجل العظيم، فقد أنزله في المنزلة الباسقة التي يستحقها وفي المحل السامي الذي يتبوؤه عند الحقيقة، فاطمأنت نفسي وسكنت، إذ تأيدت قناعتي القلبية المنبعثة من غيرتي على أعلام أمتي وعظمائها بما لَقِيْتُه من الدعم العلمي واليقين العقلي الذي نسجه صفحات هذا الكتاب، فأحببت الكتاب ومؤلفه وصرت أترقب مؤلفاته بلهفة، وأقرؤها وأدعو منْ حولي إلى قراءتها.

ولما انتسبت إلى كلية الشريعة بجامعة دمشق وسعدت بملازمة دروس أستاذنا الأجل العلامة محمد سعيد رمضان البوطي - حفظه الله تعالى- رأيته سئل في أحد دروسه عن أستاذنا الدكتور شوقي أبو خليل - حفظه الله تعالى- فأثنى عليه خيراً وشكر جهوده المبذولة لخدمة دينه وتاريخ أمته، فازددت ثقةً به وحبّاً له.

ثم لما انتهيت إلى السنة الثالثة من دراستي الجامعية كان من سعادة الجد وحسن الطالع أن زُفّت إلينا البشارة بأن أستاذنا الفاضل قد تكرّم بتلبية الدعوة الملحة المتجهة إليه من كلية الشريعة لتدريس التاريخ الإسلامي فيها، وتناقل الطلبة الخبر وتبادلوا التهنئة - إذ كانوا يعرفونه من خلال كتبه -، وأصبحنا نترقب بلهفة بالغة قدومه، وننتظر بفارغ الصبر الساعة التي سيقبل علينا فيها ليشرع في إلقاء محاضراته.

ولما حلّ الموعد كان أول ما طالعنا من أستاذنا - حفظه الله - أناقة مظهره وحسن شارته وابتسامته اللطيفة المحبّبة، مع السكينة والوقار اللذين يجلّلانه.

ثم إن محاضراته توالت، وإن تعلُّق الطلبة به ازداد يوماً بعد يوم، فكان لسان حالهم يردّد قول الشاعر:

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن سعيد أحسن الخبرِ

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأفضل مما قد رأى بصري

وتسامع الناس خبر تدريس أستاذنا في كلية الشريعة فتهافت على درسه طلبة الجامعة من كليات أخرى، وأناس من خارج الجامعة أيضاً، وهذا التعلق ازداد يوماً بعد يوم إلى حد أن الطلاب كانوا يتسابقون في القدوم إلى الكلية ويبكرون من أجل الحصول على مكان في قاعة الدرس فقد كانت تعجّ بالجالسين، وبصفوف القائمين أيضاً.

ويعود السبب في هذا الإقبال على محاضرات أستاذنا إلى براعته في إلقائها، وتفنُّنه في شدِّ انتباه الطلاب إليه. وسأتحدث الآن عن بعض ما تحتفظ به ذاكرتي من جوانب هذه البراعة:

١- انضباطه الدقيق بمواعيد الدروس، فما عهدنا أنه تخلف عن محاضرة واحدة، ولا أنه تأخر عنها ولو لدقيقة واحدة. بل كان في أغلب الأحيان يدخل إلى القاعة قبل معظم الطلاب، ولا شك أن هذا دليل على وجود التقوى في عمله، وعلى حرصه الشديد على الاستفادة من كل دقيقة لإفادة الطلاب ونفعهم، وقد كان هذا منه دعوةً عملية صامتة أبلغَ من الدعوى بالكلام، إذ الحال أبلغ تأثيراً من القال.

٢- قدرته الفائقة على إيصال الفكرة أو المعلومة التي يريد إيصالها إلى التلاميذ بمنتهى السهولة، وهذا عادةً يكون نتيجة لأمرين اثنين:

أولهما: الموهبة الجِبِلّيّة التي يكرم الله تعالى بها من يشاء من عباده، وقد أوتي أستاذنا - حفظه الله - من ذلك قسطاً وافراً، وحظاً عظيماً.

والثاني: هو المقدرة العلمية التي هي ثمرة الإحاطة بالمادة العلمية التي يتعامل معها، والتعمق في فهمها وتحليل ظواهرها وسبر خلفياتها. وقد كان يلاحظ عليه التحضير الجيد، فإنه كان يدرِّسنا لا من كتاب مطبوع، بل كان يجمع المادة العلمية للدرس من المصادر الأصيلة، وكثيراً ما كان يعزو الفكرة إلى المصدر الذي استقاها منه بذكر الجزء والصفحة.

٣- الإلقاء الحيوي، فلم يكن إلقاؤه إلقاءً علمياً جافاً، ولا سرداً قصصياً للأحداث بل كان يبدع في عرض الفكرة بما أوتي من القدرة والبراعة على تصوير الحدث التاريخي وكأنه مشهد يفيض بالحركة، مما يجعل المستمع يمخر بفكره عباب القرون المتطاولة التي تفصله عن الواقعة التاريخية ليعيش جوّ هذه الواقعة ويتفاعل مع أحداثها، وكانت وسيلته لتحقيق هذا الأمر شيئين اثنين:

الأول: استعانته بالوسائل البصرية بوضع الرسوم الهيكلية للموضوع، وبرسم الخرائط الملونة، وقد كان ما يرسمه من المصورات والخرائط في غاية من الدقة والإتقان والأناقة، تعطي الطالب التصور الصحيح والدقيق لمكان الحدث. وكثيراً ما كانت تدور أيام الأسبوع فيعود الأستاذ إلينا في الدرس التالي ليرى ما خطّه ورسمه في محلّه لم يُمْحَ، إذ لم تكن نفوس الطلاب تطاوعهم على مسحها لروعتها وأناقتها.

والثاني: تفاعله مع ما يقوله والحرارة التي يصطبغ بها حديثه، ويشعرك بمدى تفاعله مع الحدث أنه كان في كثير من الأحيان تجيش عواطفه وتغلبه دمعته فتستعبر عيناه.وأنه كان- بغير تكلف منه - تتغير نبرات صوته ارتفاعاً وانخفاضاً، وشدة ورخاوة، فقد كان يتنقل بين اللهجة الهادئة التي يقرر بها الحقيقة العلمية ويسدي بها النصيحة، وبين طبقة الصوت العالية التي كانت تصل في بعض الأحيان إلى درجة اللهجة الحازمة المجلجلة والمدوية عندما يستدعي الحدث الذي يقوم بشرحه وتحليله إثارة الحماس وإذكاء العواطف.

وفي كلتا الحالتين صوتُه مِلء قاعة الدرس لا يحتاج إلى مكبر صوت، وإن تنقّله العفوي هذا بين طبقات الصوت المتفاوتة له دور كبير في طرد الشرود عن أذهان الطلاب.

٤- حُسن استغلال المشهد والموقف التاريخي لتحريك النفوس، فإذا كان موقفٌ بطولة وعز وكرامة وفضيلة أعطاه حقه من الإعجاب والتقدير، وبثَّ في رُوع الطالب الإحساس بواجبه تجاه مجد آبائه وتراث أجداده وتاريخهم العظيم، وأشعره بأن له نسباً شريفاً ينبغي أن يفخر به ويعمل على إحيائه، وأن ذلك أمانة في عنقه وأن تقصيره في ذلك تقصير متعدٍّ، إذ هو ليس تقصيراً منه في حق نفسه فقط، بل هو تقصير في حق أمته والإنسانية بأسرها، مما يجعل الطالب يحسّ بعظم الأمانة وثقلها من جهة، ويبعث فيه الشموخ والأنفة والعزّة من جهة أخرى.

وقد كان يتفنن في إذكاء هذه الروح بين الجوانح، واستثارة الغيرة في النفوس بما يأتي به من الصور المعاكسة، التي تبيّن مدى إكبار غيرنا لتاريخهم وافتخارهم بمن يعدّونهم عظماءَ لهم، مع أنهم لا يذكرون في ميزان الحقيقة والإنصاف إذا ذكر عظماؤنا، وإني لأذكر أمثلة مؤثرة سمعتها منه في بعض الدروس، منها أنه تكلّم يوماً عن الهجرة فقال: وهو يبدي ألمه لإهمال آثار سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، وكيف أن بعض المسلمين لا يألون جهداً في العمل على إزالة كل معالمها، وكأن بينهم وبينها عداوةً، ثم أتى بصورة مناقضة لذلك تماماً - فقال: إن أحد أصدقائه من حملة الدكتوراة كان في مهمة علمية في فرنسة، وأن الجهة الإدارية المشرفة نظمت للمشاركين رحلة لمسافة تزيد ربما على ألفي كيلومتر إلى جبال الألب، وعندما قطعوا هذه المسافة ووصلوا إلى المكان المقصود، سمع صديقُه قائلاً فرنسيّاً يقول بجزم: «اخشع، وقف بإجلال، فإن هذا المكان الذي أنت فيه الآن، قد مرّ منه نابليون حينما نفي».

ألفا كم، تقطع من أجل زيارة مواطئ أقدام نابليون، الذي احتفظت ذاكرة التاريخ بكثير من مخازيه من قبيل إعطائه الأمان لمن يستسلم له ثم الغدر بهم، ومن علاقاته غير الأخلاقية مع الخليلات والعشيقات، ومن الظلم والفتك بالمستضعفين. هذا الرجل تحتفظ أمته بكل أثر من آثاره إلى الآن، ويعرف الفرنسي اليوم بدقة مكان نومه في منفاه، وموضع تناوله طعام الفطور، وفي أي زاوية كان يحتسي فنجان القهوة، وأين كان يجلس وقت العصر. فأين نحن من اهتمامنا بآثار عظمائنا الذين علّموا الدنيا معاني الرحمة، ولقّنوهم الدروس العلمية للشرف والفضيلة ونقلوا بأمانة تامة رسالة الطهر والعفاف والنبل من السماء إلى أهل الأرض.

وقد كان أستاذنا - حفظه الله تعالى - يؤكد في مثل هذه المناسبة على ضرورة الاهتمام بالتاريخ والاستفادة من دروسه وعبره، وأن الأمة التي تجهل تاريخها لن يكون لها وجود مشرِّف بين أمم الأرض، ولقد رأيناه يسترسل في الحديث عن أهمية التاريخ ويعمد إلى عقد المقارنة بين جهلنا بتاريخنا وعظمائنا، وبين حرص غيرنا على معرفة دقائق تاريخهم والشؤون الخاصة لعظمائهم، وإني لأذكر أنه ذات مرة ذكر لنا قصة، يتملَّكني الخجل كلما ذكرتها؛ لأنها تشعرني بمدى تقصيري تجاه تاريخنا، والقصة هي: أن نابليون عندما قام بحملته لاحتلال مصر والشام مَرَّ بجزيرة مالطا فنزل فيها، ودخل مدرسة ابتدائية، وكانت مناسبة عيد الفصح فدخل إلى أحد صفوف الطلاب، وقال لهم: مَنْ منكم يستطيع أن يتكلم عن هذه المناسبة؟ فرفع الكل أيديهم إلا تلميذاً واحداً، فسأله نابليون متعجباً ومستغرباً: لماذا رفع الكل أيديهم وأبدوا استعدادهم للحديث عن المناسبة باستثنائك أنت؟!

فأجاب التلميذ: أي فصح تريد؟ إن كنت تريد فصح النصارى فإنه ليس نصرانياً، أما إن أردت فصحه، فإنه هو يهودي، وقال له: إن شئت حدثتك

عن فصحنا. فقال له: فحدِّثني. فشرع الولد يتحدث عن تيه بني إسرائيل وماجرى لهم فيه، وكيف ومتى خرجوا منه، فلما فرغ من حديثه أخذ نابليون الدهشة والعجب، فقال عن هذا الولد: إنه يتكلم عن التيه وما جرى لقومه فيه وكأنه قاسى معهم سنين الضياع والمحنة، وكأنه قد خرج من التيه الآن!.

ثم أعقب أستاذنا هذا الكلام بقوله: ترى هل يعرف طلابنا في الإعدادية والثانوية أو الجامعة عن نبيهم عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم - وعظماء أمتهم عُشْرَ ما يعرفه أطفال اليهود عن تاريخ أكابر مجرميهم؟. بل هل يعرف أولادنا وشبابنا من سيرة عظمائنا ما يعرفونه من سيرة لاعب أو مطرب أو ممثل؟!.

إن التقاطه لمشاهد العبرة من التاريخ وحسن استشهاده بها في أثناء الدرس، وربطها بواقع اليوم، وعقد المقارنات وتوظيف كل ذلك لتحقيق هدفه، يجعل الطالب يتجاوب معه بعقله وقلبه وبما انطوى عليه ضميره من المشاعر النبيلة.

وكم رأيناه يعرب عن استغرابه وتعجبه البليغ مما يراه من بعض أبناء جلدتنا، من محاولة نبش تاريخنا لعلّ أبصارهم تقع على بعض النقاط المظلمة فيه، بينما يتعامَون عن بريق الذهب الخالص ولمعانه النقي، في حين أن غيرنا يختلق الأكاذيب ليزين تاريخه وليصنع أمجاداً لعظمائه ويقيم لهم عروشاً من العظمة الزائفة على أعمدة من الكذب، ويتفنّنون في إخفاء مخازيهم التاريخية، ووأدها في الزوايا القصية من مقبرة التاريخ، ويحاولون طمس معالمها وشاهداتها حتى لا يقف أحد على أيٍّ من آثار تلك المخازي.

ثم إنه يحاكم هؤلاء المرضى النفوس والعقول الذين استولت عليهم عقدة النقص والمشاعر الهابطة فغاضت في قلوبهم معاني الشرف والعزة، يحاكمهم إلى الإنصاف والمروءة قائلاً: يا عجباً لهؤلاء الناس كيف يتعامَون عن معالم

النبل والفضل في طول تاريخنا وعَرضه؟!، وكيف يعشون عن رؤية الذهب الخالص في حين يبحثون بلهفة في جنبات تاريخنا الأغر عن نقطة مظلمة؟! - حتى ولو كانت مُزوّرة عليه - ليسلّطوا عليها المكبرات من أجل توسيع رقعتها لتجلّل تاريخنا كله بالسواد والعار.

هَبْكَ أن في تاريخنا بعض النقاط المظلمة، أليس تاريخ بشر يصيبون ويخطئون، وهم عرضة للوقوع في الهَنات والزلات، إن شأن من يأبى إلا أن يقف عند هذه الهنات هو كحال من دخل حديقة غناء مترامية الأطراف، يضوع فيها أرواح المسك والرياحين، قد افتنَّت يد القدرة الإلهية في تجميلها بما أنبتت فيها من ألوان الزهر وأصناف الورود، ثم كان في جانب قصي من هذه الحديقة، وفي زاوية مهملة منها موضع صغير للقمامة، لا يتبينه أحد إلا بشق النفس وبعد طول البحث، فاجتهد هذا الذي يعاني من اعتلال في الذوق لمعرفة هذا الموضع، ولمّا وقع بصره عليه طرب وصفّق بحرارة، وشعر بنشوة بالغة تطوف برأسه لهذا الاكتشاف العظيم، وربّما مَنّته نفسه فجعلته يطمح إلى أن يأخذ على اكتشافه هذا براءة اختراع.

وحسبك من هذا المأفون ذي العقل الملتاث والبصيرة المطموسة أنه آثر أن يعيش في حياته على مذاهب الذباب، وحسبك منه جهله بالبدهيات التي كان يعلمها ذوو المروءة في الجاهلية حتى قال قائلهم:

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه على شعث، أيُّ الرجال المهذّب

فإذا كان الفرد الواحد لا يخلو من بعض مواضع الانتقاد، فما بالك بأمة فيها الآلاف المؤلفة من الرجال.

وقد كان أستاذنا - حفظه الله تعالى - ينمّي في قلوب تلامذته روح الاعتزاز بتاريخ أسلافهم، وأن يحافظوا على هويتهم المستقلة، فكان يصحح

المفاهيم الخاطئة التي تشيع فيما بين الناس، ومما أذكره من أمثلة ذلك: أنه كان يقول: إن ما يقال من أن العصور الوسطى كانت عصور جهل وظلام إنما هو صحيح بالنسبة إلى الغرب، أما بالنسبة إلينا فقد كانت عصوراً ذهبية تزخر برواج سوق المعارف والعلوم والفنون، مما ينبغي أن ترد في كلامنا تعبير: (ظلمات القرون الوسطى).

ثم إنه كان شديد الحرص على ضبط أسماء الأماكن والبلدان والمواضع التي كانت مسرحاً للأحداث التاريخية بالشكل الصحيح، وأنا أذكر الآن على سبيل المثال بعض الأسماء التي تعلمت منه ضبطها، فمن ذلك: أن جُدّة هي بضم الجيم وليس بفتحها ولا كسرها، والرَّبع الخالي بفتح الراء وليس بضمها، وجنَديسابور بالتثنية لا الإفراد، ودُوَمة الجندل لا دَوْمة الجندل، وطَرَسوس لا طَرْسوس، وذكر لنا بهذا الصدد أنه أقرب الكتب إليه عندما يجلس وراء مكتبه للقراءة أو الكتابة ثلاثة كتب هي: (لسان العرب، والأعلام، ومعجم البلدان).

٥- ما عهدنا من أستاذنا - حفظه الله تعالى - أن جلس ذات مرة على الكرسي جِلسة المسترخي الذي يركن إلى الراحة، بل كان يظل دائماً في أوج النشاط من أول الدرس إلى آخره.

٦- كان يشجّع الطلاب على شراء الكتب واقتنائها وكان يدعوهم إلى تحمل شيء من الشدة وضنك العيش في سبيل الكتاب، ولاسيما ما كان يرشدنا إليه من الكتب النفيسة التي لا يعرفها إلا القليل من الباحثين، وكان يطمعنا بكرم الله سبحانه وتعالى وبأنه سيعوِّضنا ما أنفقناه من المال في سبيل الكتاب من حيث لا نشعر، إذا صفا القصد وصحّت النية.

٧- كان يذكر لنا وقائع مشهورة وأحداثاً خطيرة لاتعرف مصادرها، فيحيل على الكتب والمصادر التي ذَكَرتْها مع العزو الدقيق.

٨- ولقد كان من دأبه أن يحفِّز الطلاب على مضاعفة جهودهم في مجال البحث والعمل على توسيع دائرة مطالعاتهم، وذلك بإلقاء الأسئلة عليهم، وكان بهذا يتيح لهم فرصة كبيرة للمشاركة في الدرس، بل كان هو يدفعهم إلى هذه المشاركة، وذلك بطريقة فريدة قد لا نجدها عند أحدٍ غيره، فلقد كان يكافئ من يجيب عن الأسئلة التي يلقيها فيعطيه كتاباً من مؤلَّفاته.

٩- ثم إنه يمزج التاريخ ودروسه وعبره بالحاضر وما يجري فيه، فهو يتابع كل جديد في الثقافة والعلوم والكتابات والبرامج، مما له مساس بالدين وتاريخ الأمة، ويعمد إلى نسخ وتصوير المقالات والبرامج والحوارات ويضعها بين يدي الطلاب لهدفين اثنين:

أولهما: أن يكونوا على اطلاع وصلة بمستجدات العصر من الأفكار والآراء والمكائد التي يكاد بها الدين والأمة.

والثاني: أن يسلك التلاميذ هذا المسلك في حياتهم حتى يواكبوا العصر في ثقافته ويتقنوا لغته، وليكونوا قادرين على التلاؤم معه.

١٠- قد لاحظت على أستاذنا - حفظه الله تعالى - الأدب الجم، فلا أذكر أنه ذكر أحداً بسوء في مجال نقده للأفكار الخاطئة والآراء المخالفة، بل كان يحسِّن الظن بأصحابها، ويحاول جهده أن يبدي الأعذار لهم، وإني لأذكر الآن كيف أنه كان يبدي الأعذار لأناس كنا نعدّهم قد بالغوا في الإساءة، فكنا نتبرّم في أنفسنا بهذا الدفاع آنذاك، ولكن تبيّن لنا فيما بعد أنه كان بهذه الطريقة يتعهدنا بالتربية العلمية لنتحلّى بأدب العلم وأهله حتى ينشأ الطالب باحثاً سوياً، يفرِّق بين نقد الفكرة الخاطئة ومقارعة الباطل وإيضاح حجة الحق وبيان برهانه، وبين إساءة الظن بالمخالف والتشنيع عليه، وبذلك تصبح نفس الطالب متسامية همها البحث الجاد عن الحقيقة بعيداً عن الخوض في الناس والنيل من أشخاصهم والطعن فيهم.

وهذه الطريقة في النقد فيها خير كثير، ولاسيما عندما تكون في مجلس التعليم، لأن الطالب إذ سمع من أساتذته الإكثار من الطعن حتى فيمن يستحقونه، فإنه لا يلبث أن يتأثر بهم ويصبح ذلك طبعاً له وسجيةً، وإذا فتح على الطالب هذا الباب فإنه ربما بالغ وأساء؛ لأن هذا باب عريض لحظوظ النفس وأهوائها، وإن من شأن الهوى أن يجمح صاحبه، وإن الغيرة الصادقة على الحقيقة لا تستلزم الطعن فيمن يعارضها ولا رميهم بكلمة السوء، بل إنها تكون بكشف الزيف وتعرية الباطل، وتجلية الحق وبيانه.

١١- ومما يتصل بالمسألة التربوية في التعليم بأوثق سبب أمر آخر لاحظه جميع الطلاب في سلوك أستاذنا وجعلهم ذلك يكبرونه جداً، وهو أنه يحترم اختصاص الآخرين، فلا يتجاسر على الخوض في اختصاص غيره، فقد كان يُسأل أحياناً عن مسألة فقهية وكان سرعان ما يبادر إلى الاعتذار عن الإجابة، ويحيل السائل إلى أهل الاختصاص، وإن هذا دليل النضوج العلمي والفكري، وذلك - وياللأسف - قليل في عصرنا، وبخاصة عندما يتعلق بمسائل الدين؛ إذ قلّ مَنْ يتورّع عن الإفتاء في المسائل الشرعية، ولو كانت مسائل مصيرية في غاية الخطورة.

١٢- وقد كان أستاذنا حفظه الله تعالى - إلى جانب جدّه وحزمه في محاضراته - في غاية التواضع مع التلاميذ لا تفارقه الابتسامة، يتودّد إلى الطلاب ويشعرهم بأنه قريب منهم، فيزيل بذلك الحواجز في علاقته بهم، مما كان يجرّئ الطلاب على دعوته إلى زيارتهم في بيوتهم، فيبادر إلى تطييب خواطرهم وتلبية دعوتهم.

وصفوة القول: إن التدريس ليس مهنة ولا احترافاً في نظر أستاذنا - حفظه الله تعالى-، بل هو رسالة تنوير وتبصير للأجيال، ولهذا فإنه يبذل فيه غاية وسعه وقصارى جهده، ويمزج فيه العلم بالغيرة الصادقة وحرارة القلب،

وهذا هو سرّ تعلّق الطلبة به وبدروسه، وإن الذي يتابع مسيرته التأليفية يلمس بوضوح أنه يعدّ الحياة كلها ساحة جهاد، ومطلوب منه أن يؤدي رسالة الحق فيها على خير وجه، فهو يظل أبداً كالجندي الساهر على حدود تاريخ أمته، الذائد عن حماها ضد كل عدو متربص، وإن حاجة الأمة لمن يصدّ عنها الغزو الفكري لهي أبلغ من حاجتها إلى من يدفع عنها العدوان المسلح؛ لأن الأمة إذا غزيت في أفكارها وتشوّه تاريخها فإنها تمسخ وتفقد هويتها وإذا ضاعت هوية الأمة أصبحت في مهب الريح، تعصف بها النسمات فضلاً عن العواصف العاتية التي تتعرض لها أمتنا اليوم.

لقد نذر أستاذنا الجليل نفسه لأمته ولدينها، فهو يرابط منذ بداية نشأته العلمية على ثغر من أخطر ثغور الأمة ويحرص ألاّ تؤتى من قِبَله، وما سلسلة الموازين التي قام بتأليفها ووزن بها مؤلفات الذين كادوا لأمتنا ولدينها من خلال تأليفهم في تاريخها إلا دليلٌ على إخلاصه في الانتصار لأمته، إذ تتبع الكائدين لها وبيّن زيفهم ودحض باطلهم بردوده العلمية القائمة على التحقيق والموضوعية بعيداً عن تهاويل العواطف والانطلاق من الأسبقيات الفكرية.

وأخيراً، فهذه بعض مزايا أستاذنا الجليل مما احتفظت به الذاكرة، ولعل ما سقط منها بفعل النسيان الذي سببه توالي السنين أكثر، وإني لأرجو أن أكون قد وُفِّقْت لأداء شيء من واجبي تجاه أستاذنا الفاضل الدكتور شوقي أبو خليل الذي منحنا الكثير من علمه وفضله فجزاه الله تعالى عنا وعن أمتنا خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

الدكتور شوقي أبو خليل

فارس الفكر ورحّالة التاريخ

الدكتور عبد المعطي الدالاتي

"إن الطريق معبدة بين الإسلام وبين شعوب العالم"

د. شوقي ابو خليل

علمٌ من أعلام الفكر، وفارس من فرسان القلم، وجوّابٌ في آفاق المعرفة، ورحّالة في دروب التاريخ..

إلى مدرسة الأرقم ينتمي، فهولايدين بالأستاذية لغير معلم الأرقم..

ولا يغريه من التاريخ مثلُ سيرتِه..

ولا يعجبه من الجغرافية مثل مدينتِه..

ولايبهره من الأخلاق غير شمائلِه..

في كتاباته المؤمنة تكاد تبصره قامة تقف على عتبات الأرقم، كنخلة شامخة لاتشكو من تعب، وإنما من ظمأ إلى شربةٍ من حوض النبي الأكرم، ﷺ..

نخلة عاشقة يتدلى منها رطب حجازيُّ الهوى والهُويّة..

نخلة عزمت ألا تكتب إلا عن تاريخ الأرقم.. وألاّ تقرأ إلا باسمِ ربها الأكرم..

وكأني به يمسك بيمينه القلم، ويرنو إليه مسائلاً:

خبّرني أيها القلم:

كيف ضمّت هذه المدرسة في حجراتها كل ألوان الحضارة؟!

وكيف اتسعت هذه المدرسة الصغيرة لتضم كل أرجاء الدنيا؟!

وكيف كان طلابها -وهم القلة الضعفاء- يتحدّثون بتغيير خارطة العالم!

ويعتزمون بناء حضارة إنسانية مؤمنة لا مثيل لها في تاريخ الإنسان!

وحدثني أيها القلم:

كيف بلغ هؤلاء التلاميذ الضعفاء آمالهم كما أرادوا، فكانوا أساتذة العالم؟!

وكيف استحال جدب الصحراء إلى خصب يغمر الدنيا؟

وجاء جواب القلم - ولماينته بعد- في عشرسلاسل من الكتب، شكلت عقداً فريداً

زيّن جيد الفكر والثقافة بأكثر من مئة جوهرة!..

☆ ☆ ☆

لقد استطاع قلم الأستاذ الدكتورشوقي أبوخليل أن يصل بتوفيق الله إلى المعادل الموضوعي لطرح أقوى الأفكار، وأعمق المعاني، بمنطق مقنع، وأسلوب ممتع..

فأسلوبه عذب رقراق ينحدر كالغدير المتسلسل متسلّلاً إلى مسارب الروح، وإلى أعماق الفكر، ليزرع فيهما القناعة والرضا..

لقد استطاع هذا القلم أن يجمع حرارة الإيمان، وروعة الفكر، وجمال الأدب، في كأسٍ واحدة لذّة للشاربين..

وبكلمة واحدة، لقد جمع د.شوقي أبوخليل الإنتاج الجليل والإخراج الجميل..

كان رائده في الحياة محبة الله والرسول، هذه المحبة التي تزداد مع الزمن نقاوة ونضارة وعمقاً..

وكانت قبلته التي يتجه إليها في البحث العلمي هي الحقيقة، والموضوعية والعدل..

ومن هنا حالفه التوفيق في إقناع الطلاب والقراء على السواء..

انظر إليه وهو على منصة الأستاذية يلقي محاضراته في "السيرة النبوية"، يحفّ به طلابه وحواريوه، وقد تلاقت عنده نظراتهم، وحامت حواليه أرواحهم الصغيرة، لتجد في روحه الكبيرة أجوبة لتساؤلات الحياة.

لم تكن محاضراتٍ أكاديميةً فحسب، وإنما كانت قطعاً من البيان المؤمن، ومن البحوث الخلابة، التي تخاطب القلوب بالمحبةواللطف، والعقول بالمعرفة والوعي، وتخاطب الأرواح بالإيمان.

لم يكن الطلاب يستمعون إلى محاضرة، وإنما كانوا يحلقون بوجدانهم وعقولهم في فضاءات السيرة المطهرة.

ومعرفة السبب سهلة، وهو أن المحاضر _ولا أزكي على الله أحداً- كان يعيش هوفي ظلال سيرة الحبيب الأعظم، صلى الله عليه وسلم.

تريد الدليل؟!

لهجة الصدق، وانفعال الحب، ودموع العين التي لم يفلح في حبسها الحياء!..

وكنت كلما سألت أحبابي من خريجي كلية الشريعة عن الأستاذ المحبّب الذي ترك صورته معلقة على جدران قلوبهم، كان كثير من الأجوبة تحوم على اسم د.شوقي أبوخليل.

☆ ☆ ☆

كان لقائي الأول بالدكتور شوقي أبوخليل عام ١٩٩٩غ، في مكتبه بدار الفكر للنشر.

ولما دخلت أهديه نسخته من كتابي "ربحت محمداً ولم أخسر المسيح"، رحّب بابتسامة عذبة، ووجه كريم.

ولا أزال أذكر كيف برق وجهه سروراً لما قرأ عنوان الكتاب، ثم راح يقلب صفحاته بعيني الباحث الخبير، باحثاً عن التأصيل والعزو للمراجع، وهذا طبيعي من ناقد وباحث في التاريخ، راسخ القدم في ساحة الفكر.

ثم أبدى إعجابه الجمّ بالكتاب، وهذه زهرة جديدة أضمها إلى باقة "شوقي أبو خليل" خلق التشجيع.

وهنا أسجل شكري للأساتذة الكرام الذين كانوا أول من أضاء الطريق أمام قلمي، وهم:

د. شوقي أبوخليل ود. فرحان السليم ود. محمد علي سلطاني رحمه الله.

لقد آثرني د.شوقي على نفسه بتسليط الضوء على كتاب "ربحتُ محمداً" باختيارنصوص منه للقراء، وكان ذلك الإيثار خلقاً إسلامياً ذكرني بإيثار الأنصار.



مكتبة د.شوقي أبو خليل

أرأيت النخلة الباسقة، وقد ساخت جذورها في أعماق الأرض، وتسامت فروعها في فضاءات السماء، يتدلى منها رطب جني، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؟!

أرأيت قوس السماء يزين بألوانه الوفيرة الفضاء، ذلك مثله، ومثل مكتبته العامرة التي رفد بها المكتبة العربية الإسلامية..

فمن التاريخ ورجاله وأحداثه وأطالسه؛ إلى الأديان وخصائصها وحواراتها، إلى الحضارة الإسلامية وعالميتها، إلى الفكر الإسلامي وآفاقه وتجلياته، إلى المرأة المسلمة ودورها، إلى الأطفال وعالمهم الرحيب.

وأذكر أن أول لقاء لي بمؤلفاته كان من أكثر من ربع قرن، حين قرأت كتابه " غريزة أم تقدير إلهي" فأعجبني وأفدت منه كثيراً، فقد كان في تلك الأيام لهجة جديدة متأنية في الدعوة إلى الإيمان. كما أفدت من كتابه "في التاريخ الإسلامي "المقرَّر على طلاب كلية الشريعة بجامعة دمشق.

وفي كتابه الجامع " الحضارة العربية الإسلامية " تجلت ثقافة الدكتور شوقي الواسعة، وإضاءاته الكاشفة للمعمار الكبير الجميل لحضارتنا العربية الإسلامية العريقة.

إنه كتاب فريد في بابه، أضعه باطمئنان إلى جانب كتاب "شمس الله تسطع على الغرب " للباحثة الألمانية زيغريد هونكه.

" الحوار دائماً وحوار مع مستشرق" :

إن سئلت عن الكتاب الذي ترك صداه مقيماً في وديان قلبي، فلن أتردد بالجواب إنه كتاب "الحوار دائماً، وحوار مع مستشرق"، ففي هذا الكتاب

يتربع أسلوب د.شوقي على عرشه، وفيه يتجلى دماثة الخلق، وإشراق الفكر، وعمق الوعي.. فيه ترى المؤلف الواثق بما يمتلك من أفكار، فهو لا يخاف من الحق إذا كان مع الآخر، لأن الحق مطلبه. وهنا أستغل هذه الفكرة لأسأل أستاذنا مزيداً من التثبت في تخريج الأحاديث النبوية وفي الحكم عليها، فإذا ما جاز للباحث التخفف في أسانيد التاريخ، فلا يجوزله ذلك في تعامله مع الحديث النبوي الشريف ..

وأنا فأحسب أن أفضل دراسة لهذا الكتاب، هو الكتاب نفسه!

ولمن تشوف لمعرفة "إسعافية" أقول:

لقد كان هذا الكتاب مِفصلاً، أوإن شئت فقل مفترق طرق لكلماته التي صمم أن يقولها للأجيال. وقد تألق في تفعيل النقد الذاتي الداخلي، ليكشف عوار الأفكار المهترئة التي طالما رفعنا عليها لافتة القداسة. كما تألق في حواره مع الآخر الغربي، تاركاً في جعبة وجدانه أسئلة كبيرة تنتظر الجواب، ومهما تأخر الجواب فالدكتور شوقي ليس على عجلة من أمره ويمكنه الانتظار!

الإسلام نهر يبحث عن مجرى

عنوان معبرجميل، لكتاب صغير كبير.. يستهله د.شوقي أبوخليل بقلم المؤرخ والمفكر والأديب، فيرسم هذا المنظور العلوي لتاريخ الحضارة الإسلامية:

"رأيت الإسلام نهراً منبعه (حراء)، ومعينه (اقرأ)، ومنهله رحمة للإنسانية، وقطراته ومياهه لأولي الألباب الذين يتفكرون ويعقلون، ومجراه شعب اختاره الله لحمل الإسلام للناس كافة..

نبع منطلقه (حراء)، انسابت فروعه وسواقيه إلى الصين وإفريقية وأوربة أيام الفتوح في العصر الأموي، فأينعت غراس ضفتيه الخصيبتين الخيرتين ثمار نهضة علمية، وحضارة إنسانية..

علمني التاريخ أن المعين غزير متدفق، فالإسلام نهر خالد لن يجف مجراه..

ونظرت إلى واقع مدنية الغرب اليوم، فرأيتها مجرى جف ماؤه، يبحث عن مياه نهر صاف يرفده، ورأيت في الوقت ذاته الإسلام نهراً يبحث عن مجرى..".

(الإسلام نهر يبحث عن مجرى ص٦-٨)

ملامح قلمه والإثراءات التي أضافها إلى الفكر الإسلامي:

١- ابتكار فكرة الأطلس القرآني، وأطلس السيرة النبوية والحديث الشريف، وإثراء أطلس التاريخ العربي الإسلامي.

٢- الدفاع عن الحضارة العربية الإسلامية مع الكشف عن خصائصها ومنطلقاتها، وآثارها في الحياة والتاريخ الإنساني.

٣- التجديد الفكري، ومحاربة التعصب الأعمى للأشخاص، والاهتمام بموضوع المرأة كتاب "تحرير المرأة ممن؟وفيم حريتها؟"..

٤- اعتماد منهج الحوار الفكري الموضوعي سبيلاً للوصول إلى الحقيقة.. وتجلى هذا في كتابه الرائق "الحوار دائماً.. وحوار مع مستشرق"

٥- التركيز على خلق التسامح الإسلامي."انظر كتاب " التسامح في الإسلام".

٦- الوضوح والسهولة في أسلوب الطرح، دون التخلي عن جمال في البيان..

٧- تصحيح المفاهيم المغلوطة، ومحاربة الخرافات والأفكار المنحرفة الدخيلة على الدين، كالاتحاد والحلول ووحدة الوجود، وتجلى ذلك في كتابه "من ضيع القرآن؟!".

٨- الوزن بميزان الاعتدال للشخصيات المثيرة في التاريخ، سواء الهدّامة كجرجي زيدان، "سلسلة في الميزان"، أو إنصاف الشخصيات التي حيف عليها في تاريخنا العريق مثل الخليفة العباسي هارون الرشيد.

٩- الانتقال في معترك الأفكار من مرحلة الدفاع والتبرير إلى الهجوم الواثق المطمئن، وإلى كشف عوار الآخر.

وهاهو يتساءل: "أما آن لنا -نحن المسلمين- أن نترك موقف الدفاع الذي نقفه لرد شبهات الاستشراق وافتراءاته، ونقف موقف الطارح في ساح البحث عن عيوبهم ومخازيهم؟!".

"التسامح في الإسلام - ص٨".

١٠- ويبقى الميدان الأثير لرحالة التاريخ هوالتاريخ الإسلامي، حيث هاجر في آفاقه وفي دروبه، وعاش في ظلاله فقدم لناقراءة جديدة للتاريخ الإسلامي عامة، وللسيرة النبوية خاصة باعتبارها الفترة المعصومة من تاريخنا، وأعظم هجرة له كانت مع الهجرة..

☆ ☆ ☆

على أعتاب الأرقم نخلة باسقة آلت على نفسها ألاتفارق منهاج الأرقم..

على أعتاب الأرقم نخلة عاشقة أمسكت بيمينها القلم..

وكأني بها ترنو إليه وتقول:

قلمي، رأيتكَ في إسارِ المِعصمِ حُرَّ المَسارِ، تجوبُ بين الأنجمِ!

قلمي، تُحدّثني حروفُك أنّها كانت تحومُ على جدار «الأرقمِ»

حتى أتيتَ بكلِّ ألوانِ السنا من وحي ربّكَ ذي الجلالِ الأكرمِ

قلمي، فحدِّثْ عن جمالِ المصطفى وجمالِ حُبِّكَ للنبي الأعظمِ

القسم الثاني

تعريف ببعض أعمال الدكتور شوقي أبو خليل

رؤية وحقائق وعبر

في مؤلفات المربي المؤمن والمؤرخ الأمين والباحث المدقق

الذي ساهم في تكوين أجيال من الشباب الصالح

في عالمنا العربي الإسلامي

الدكتور شوقي أبو خليل

الأميرة بديعة الحسني الجزائري

لن أقتصر في بحثي هذا على كتاب معين من مؤلفات الدكتور الأكثر من أن تحصى، ويحتاج كلٌّ منها لمختص للبحث في كنوزها، ولكن سأكتفي برؤية قارئة تحسن القراءة، ولي وقفات عند سلسلة الفتوحات الإسلامية منها كتابه (فتح سمرقند، وفتح صقلية، ونهاوند، وفتح الأندلس، وهارون الرشيد)، وغيرها من المؤلفات القيّمة.

ومما يلفت النظر في كل هذه المؤلفات أسلوبُ الحقائق والعبر والكلمات الرشيقة التي تنقل القارئ على بساط خرافي إلى تلك البقاع، ليعيش تلك الفتوحات مع أبطالها الذين لم يدخلوا تلك البلاد شاهرين سيوفهم ليُرهِبوا سكانها، وإنما رافعين بسواعدهم مشاعل من النور، نور الحضارة الإنسانية والتفاعل الأخوي والتعايش بين الطوائف بسلام وحرية، ونشر العدل الاجتماعي والرحمة بين شعوب تعيش في دياجير الظلام.

آلاف في أوروبة المسيحية كانوا يُحرَقون أحياءً عقاباً على آرائهم المخالفة للكنيسة. وعشرات الآلاف من العلماء أُعدموا حرقاً في أوروبة وألقيت مؤلفاتهم في النار أو ماتوا رمياً إلى الوحوش الكاسرة، فجعل الدكتور المؤرخ شوقي أبو خليل القارئ يدرك أن الحجاج بن يوسف الثقفي لم يكن ذلك الطاغية المستبد، كما علق بالأذهان. وذكر بعض المؤرخين عن الآلاف الذين قتلهم والذين سجنهم من الشعب متناسين ظروف الفتن ومسؤولية القائد عن قمعها.

وتثبيتُ أركان الدولة لا يكون بترك المتآمرين يصلون إلى أهدافهم بحرية، والأمر الطبيعي حجز حرياتهم، وإن تمردوا ورفعوا السلاح لتهديم أركانها، ماذا يفعل أي مسؤول شجاع يعرف واجباته؟ ألا يقابل النار بالنار، والقوة بالقوة؟ وهذا ما فعله الحجاج، لقد ساهم بتثبيت الخلافة الأموية، ولم يكن يعمل في سبيل خدمة أغراضه الشخصية، وإنما كان يعمل في سبيل الله والجهاد ونشر الإسلام في بقاع الأرض، وتخليص شعوبها من الشرك وعبادة الأوثان. وفي عهده تمت فتوحات سجلها التاريخ بأحرف من نور، ولم يترك بعد وفاته سوى قرآن وسلاح.

ثم يتابع الدكتور شوقي فيجعل القارئ يسير مع الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي متوغلاً معه بين الأحراش في فتح سمرقند، يجتاز معه المنحدرات الوعرة والمسالك الخطرة بخطوات ثابتة نحو المجد العظيم والحق المبين، ويعبر معه نهر جيحون بخراسان مقتحماً معه مياهه الهائلة على ظهور الجياد، فيجعل القارئ يسير معه ليصل إلى ما وراء النهر، إلى حدود الصين بأمر من الحجاج.

ويشعر القارئ وكأنه مع أولئك الأبطال في عام ٩٣ هجرية - وليس خلف السنين - يخطط وكأنه مع الفاتحين لدخول سمرقند من أحد أبوابها الأربعة، تلك المدينة المشيَّدة على ضفاف وادٍ عميق، كما وصفها المؤلف الدكتور

شوقي، كأنها قصور شُيِّدت بين النجوم في سماء متلألئة. ويشاهد بعد دخول تلك المدينة وإتمام الصلح إعلاء كلمة (لا إله إلا الله) ويشهد تحطيم تلك الأصنام الحجرية، وتخليص السكان من تلك الخرافات التي يعيشونها، فلا يشعر القارئ إلا وقلبه يرقص فرحاً وخشوعاً روحياً، هاتفاً من الأعماق «الله أكبر».

وأشار المؤلف الباحث الدكتور شوقي في الصفحات الأخيرة من كتابه (فتح سمرقند) إلى أحداث خالدة في التاريخ، تدل على سماحة الإسلام وعدله والقيم الإسلامية في مجال قوانين الحرب بشريعتنا الإسلامية.

من هذه الأحداث المظلمة التي تقدم بها بعض الوجهاء من أهل سمرقند إلى الوالي سليمان بن أبي السري يخبرونه بأن الفاتح قتيبة - رحمه الله - لم ينذرهم قبل فتح مدينتهم، كما تأمر الشريعة الإسلامية في قوانينها، وكانت الخلافة قد آلت إلى عمر بن عبد العزيز، ولما قرأ الخليفة رسالة الوالي كتب إليه: «إن أهل سمرقند قد شكوا إليّ ظلماً أصابهم، فإذا أتاك كتابي هذا، فأجلِسْ لهم قاضياً ينظر بالأمر، فإن قضى لهم، أصدر أمراً إلى الجيش الإسلامي بالخروج، وكذلك كل من سكنها بعد الفتح من العرب».

وعندما أخذ الجيش بالتأهب للخروج، وكذلك من أقام فيها بعد الفتح يودعون أهل سمرقند، ويحزمون الأمتعة، ويعلنون عن بيع أملاكهم، أدهش هذا الحدث الهام سكان سمرقند، وكأن زلزالاً أفزعهم وأصابهم بصحوة ذكّرتهم بعدل الإسلام ومشاعر شتّى، منها الإعجاب والحرج الشديد وهم يشاهدون الجيش الإسلامي يتأهب للرحيل تحت ذوائب الغسق، وقد أخذت الشمس تنحدر نحو ماوراء الهضاب الخضراء، وتسكب آخر أنفاسها فوق الأفق باللون الأحمر كدماء هؤلاء الفرسان الذين أخرجوهم من دياجير الظلام إلى نور الإسلام وعدله وقيمه، وتمتعوا بتعاليم هذا الدين والإيمان بإله

واحد ليس كمثله شيء، واحد أحد، خالق السماوات والأرض، والذي أنقذهم من الخرافات وتعدد الآلهة، فدبَّ الندم في أفئدتهم، وسارعوا إلى الوالي يعلنون أسفهم وتنازلهم عن حقهم، ويرجون بقاء الجيش وعائلات المسلمين الذين ألفوهم، وباتت بينهم مودة ومحبة، فأمر الوالي قائد الجيش بوقف الانسحاب. وفي صباح اليوم التالي تسابق مَن لم يكن قد أسلم من سكان سمرقند إلى المساجد يعلنون إسلامهم زرافات ووِحْدانا، وعمّ الفرح، وتم النصر بإذن الله تعالى.

سار بنا المؤلف الباحث الدكتور شوقي ناقلاً هذه الأحداث، وجعلنا نعيش مع هؤلاء الأبطال الفاتحين، ونشعر أحياناً به كقائد لهم، وأحياناً كأب حنون يخاف عليهم من أنفسهم، ومن أي أخطاء. لا يصوب أي هفوة لهم، ولا يخفض قدْراً لعمل منهم. وكل ذلك بأمانة وحِياد ودراسة وتدقيق.

ولا يستطيع القارئ إلا أن يمسح عن وجنتَيْه آثار الدموع عندما يحدثنا المؤلف عن زيارته لمدينة حلب في الصفحة السادسة من كتاب (فتح سمرقند)، ووقوفه أمام الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك واختياره هدية من العتب الرقيق قدمها إلى روح هذا الخليفة قائلاً: «سامحك الله وغفر لك، لِمَ فعلت ما فعلت؟ لِمَ قضيت على خيرة قادة أمتنا لأسباب شخصية؟ لِمَ تلك النقمة على عمال الوليد بن عبد الملك؟ لِمَ أهنتَ محمد بن القاسم الثقفي حين مات مكبّلاً بسجن مدينة واسط؟ لِمَ تلك الخاتمة المحزنة للقائد البطل موسى بن نصير، وطارق بن زياد، وقتيبة بن مسلم الباهلي، هؤلاء القادة العظماء الذين نشروا نور الهداية في ظلمات الجهل وبذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل إعلاء راية (الله أكبر)، لا طمعاً بجاه أو مال أو مُلْك، وإنما كانوا مجاهدين في سبيل الله؟».

وعندما يصل القارئ الذي يعرف ما معنى الجهاد إلى القيمة الحقيقية لتلك الفتوحات، لا يشعر بالحزن فقط لما آلت إليه أمتنا الآن في هذا العصر، وإنما

بقوة قاهرة تجذبه نحو شريط من الذكريات لعظمة قصر الحمراء في الأندلس، وحدائق الفن الراقي والأبنية الأسطورية من الموزاييك الحجرية التي تنساب نقوشه كشلال من الروائع الفنية، تمجّد اسم الخالق العظيم الذي علّم فهدى فنوناً بلغت قمة التجريدية في مدن إشبيلية وغرناطة وطليطلة.

ذكر العالم الفرنسي كلود فاريير عضو الأكاديمية الفرنسية في إحدى محاضراته فقال: «في عام ٧٣٢م ألمت بالإنسانية كارثة، قد تكون الأكثر شؤماً في العصر الوسيط كله. هذه الكارثة التي أكره حتى ذكرها لغرقها في البربرية، وهي الانتصار المقيت الذي أحرزه الهاركاس من محاربي الفرانك بقيادة الكاردينال شارل مارتل على الكتائب العربية. لقد تقهقرت المدنية والحضارة في ذلك اليوم المشؤوم. ألا يكفي الإنسان النظر إلى ما آلت إليه الأندلس بعد الفتح الإسلامي ومشاهدة عظمة ما شيّده العرب المسلمون من روائع ونشرهم دين الرحمة والعدل؟».

وأما كتاب الدكتور شوقي أبو خليل (الحضارة العربية الإسلامية)، ولا أكلّف نفسي شططاً إن قلت: إن في هذا المؤلَّف الضخم كنوزاً من المعارف حول حضارة شبه الجزيرة العربية منذ أقدم العصور. لقد أماط المؤلف اللثام وأزال الغبار عن حضارة يزخر بها تاريخنا العربي والإسلامي، مما يجعل القارئ في ظمأ مستمر لينهل من ينابيع هذه المعلومات الحقيقية التي قدّمها المؤلف الدكتور شوقي بأسلوب شائق موثّق بعيد عن العاطفة والتحيّز.

من المؤسف أن كثيراً من مثقفي بلادنا ومؤرّخينا اعتادوا على نقل المعلومات عن حضارتهم من مصادر أجنبية مغرضة شوهت تاريخ بلادنا، وأرجعت كل علم وفن ومدنية راقية إلى اليونان أو الرومان. ففي هذا الكتاب الردُّ الشافي على تلك المزاعم الخاطئة، ودحض معلومات نقلها بعض مؤرخينا كفيليب حتي وغيره ممن يعتقدون أن كل معلومة جاءت عن أجنبي هي

مقدسة، ناسين أو جاهلين بأن الحضارة العربية سبقت الحضارة اليونانية والرومانية بآلاف السنين، مثل الحضارة الكنعانية والبابلية والفينيقية والآرامية والنبطية وكل الشعوب التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية، هي عربية.

يقول المؤلف الدكتور شوقي في الصفحة ١٨٥ : «الحقيقة العلمية الأجنبية تقول: إن ازدياد المعلومات عن حضارات الشرق الأدنى» (وهكذا يطلقون على مشرقنا العربي إمعاناً بإذلالنا، وهذه رؤية من جانبي شخصياً)، والبحث في جذور الحضارة العربية كالسومرية والبابلية والنبطية والمصرية، يضطر المؤرخين مرغمين إلى تعديل جذري في إعادة النظر إلى الحضارة اليونانية ليكتشفوا أنه ليس هناك معجزة يونانية مطلقاً.

أما خلاصة ما ذكره الدكتور في هذه الصفحة: «إن الحضارة اليونانية هي امتداد واقتباس من الحضارات العربية، ولا يوجد هناك معجزة يونانية مطلقاً، فالعالم اليوناني طاليس مثلاً ٥٣٦ قبل الميلاد، أثبت المؤرخون أنه زار مصر أكثر من مرة، ونقل الكثير من العلوم الهندسية من مدارسها، ذكر ذلك في كتاب (قصة الحضارة) ليول ديورانت وغيره، وفيثاغورث ٤٩٧ قبل الميلاد أيضاً أقام في مصر ردهاً من الزمن، ودرس فيها العلوم الرياضية، ثم زار بابل وأقام فيها مدة طويلة، وتعلم الكثير من العلوم. وديموقراطيس ٤٧٠ قبل الميلاد، وأفلاطون ٤٧٠-٤٢٧ قبل الميلاد أقاما في مصر ودرسا فيها علوماً واسعة كالطب والهندسة وعلم الفلك والرياضيات وفن النحت. ونقل اليونان - أي: الإغريق - الأبجدية الفينيقية - أي: العربية - بين ٨٥٠-٧٥٠ قبل الميلاد، وعنها انبثقت أولاً السريانية ثم اللاتينية. ومن أعظم ما قدمه العرب من ابتكارات إلى الإنسانية هو الأبجدية.

ويذكر الدكتور في الصفحة ١٨٩ عن ديورانت في (قصة الحضارة): «إن بابل علَّمت اليونان مبادئ الحساب وعلم الطبيعة والفلسفة، ومن بابل لا من

مصر جاء اليونان الجوالون إلى مدنهم، حاملين معهم قواعد العلوم من رياضيات إلى علوم الفلك والطب والتاريخ والفلسفة، هذا في الماضي البعيد، وأما بعد الإسلام لم يتردد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في السماح لموسى بن نصير وطارق بن زياد بعبور المحيط وبفتح شبه الجزيرة الإيبيرية، وواصلا تقدمهما حتى بلغا جبال البيرينيه استعداداً لدخول فرنسة عندما بلغهما أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك يدعوهما إلى دمشق، وكان ما كان من أمرهما»، كما ذكر الدكتور في كتابه (فتح سمرقند).

ومع دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس أخذت النهضة الحضارية الإسلامية تتعاظم، والدستور الإلهي القرآن يُطَبق؛ لأن الله سبحانه وتعالى - كما يذكر الدكتور في الصفحة ٣٩٢ من هذا الكتاب (الحضارة العربية الإسلامية) - جعل الله الإسلام غاية وجود الإنسان هو عمران الأرض، وعدّ هذا العمران عبادة؛ لأن نظرة الله إلى الإنسان نظرة تكريم.

فالإنسان في المجتمع الإسلامي مخلوق مكرّم، أودع الله سبحانه وتعالى فيه مواهب رائعة وطاقات مدهشة، وقال الله تعالى في سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠]، وجعل الله له حرية الاختيار، وقال تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣].

عندما فتح المسلمون الأندلس نشروا الحضارة الإسلامية في أرجائها، وقضوا على المظالم التي كان مرابون يهود عمادها. المرابون الذين كانوا يجعلون أعزة أهلها أذلة. طبق هؤلاء الأبطال عدل الإسلام، وحولوا عبادة الإنسان للإنسان إلى عبادة الله الواحد الأحد، الذي لا شريك له. لقد عمّر العرب المسلمون الأندلس، ومازالت هذه المدن الرائعة إشبيلية، وغرناطة وطليطلة وقرطبة وغيرها شاهداً على تلك الحضارة العظيمة.

وأما طليطلة التي غلب فيها الإسلام والعروبة على كل شيء فيها، كما يؤكد الدكتور أن مسيحيي طليطلة وأكثر سكان شبه الجزيرة الإيبيرية اتخذوا اللغة العربية والثقافة الإسلامية منهجاً لحياتهم، وكانوا يقيمون صلاتهم باللغتين العربية واللاتينية. وأُطلق على هذا الطقس الكنيسي بـ(الطقوس المستعربة).

وكما أجمع المؤرخون أنه بعد سقوط هذه المدينة بيد الإسبان ظل سكانها متمسكين بعروبتهم وتقاليدهم الإسلامية في البيع والشراء، وجميع معاملاتهم تكتب باللغة العربية حتى أواخر القرن السادس عشر. وأهمية هذه المدينة أنها كانت جسراً نُقلت بواسطته جميع العلوم العربية والإسلامية مترجمة إلى أوروبة. ولقد ذكر آرنست رينان في منتصف القرن التاسع عشر عن توما الإكويني أن هذا الفيلسوف مدينٌ بأفكاره لابن رشد. وكثير من المفكرين الأجانب اعترفوا بأنه لولا دخول العرب إلى الأندلس لما انتقلت تلك العلوم الحضارية إلى أوربة، وأن جميع العلماء في أوروبة الذين نبغوا كان نبوغهم بتأثير الثقافة العربية الإسلامية، منهم بيكن ودانتي وألبروتس ماغنوس وغيرهم.

إذن لولا الأندلس وهذه الفتوحات الإسلامية لظلت الثقافة الإسلامية محصورة ضمن العالم العربي، ولما أتيح لها التأثير في الحضارة والثقافة العالمية بسرعة قياسية. وكم كنت أتمنى منذ سنين، عندما رصَّعتُ مكتبتي بكتاب (الحضارة العربية الإسلامية) للدكتور شوقي، أن تتاح لي فرصة لتقديم دراسة عن هذا الكتاب القيّم الثري بالمعلومات التاريخية الميدانية الموثقة، والإبحار بين طيات صفحاته، واستخراج بعض كنوزه والتعليق عليها، حتى جاءني التكليف من دار الفكر، الذي أعتبره تكريماً لي، وأرجو من الله أن يكون عملاً يقف دون إتمامه الجهد.

كثيراً ما سمعت من مثقفين وأكاديميين أن آثار الأنباط في البتراء، هي آثار

رومانية، ومنهم من يناقش بغير علم أو دراية، فجاء كتاب الدكتور شوقي ليدحض تلك الشائعات في الصفحة ١٩٧ فيذكر باختصار أن الأنباط هاجروا من شبه الجزيرة العربية في عام ٥٠٠ قبل الميلاد إلى منطقة وادي عربة.

كانت هجرة الأنباط آخر الهجرات العربية، شيدوا مدينة البتراء وغيرها، وأقاموا مملكة واسعة الأرجاء، نقبوا الصخور وأقاموا فيها بيوتاً ومساكن لهم، وحفروا الآبار، وصنعوا الأقنية وجعلوا لها علامة سرية، وأقاموا علاقات تجارية واسعة، واهتموا بالزراعة والصناعة وبصورة خاصة صناعة الخزف وفن البناء الذي ما زالت آثاره باقية حتى اليوم، وأهمها مدينة البتراء والخزنة المحفورة في الصخر، ورشاقة أعمدتها المرمرية التي تقف تسبّح خالق هذا الكون الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، لا تزال حتى اليوم حاملة تيجانها وكأنها قطع من الدانتيل الصخري بألوانها الزاهية، باقية حتى عصرنا هذا ببهائها وعظمتها الشاهدة على علم الهندسة والنحت عند العرب الأنباط.

أما الفن الهلنستي الذي يشاع أن الأنباط اقتبسوا منه، فيذكر الدكتور في الصفحة ٨٢ من كتابه (الحضارة الإسلامية): أن الهلنستية ظهرت عام ٣٢٢-١٤٦ قبل الميلاد، أما مملكة الأنباط فقد شُيِّدت عام ٥٠٠ قبل الميلاد، وبهذا نجد أن الفن الهندسي النبطي سبق الهلنستي بأكثر من قرنين من الزمان.

وأما الرومان فيذكر الدكتور أنهم قضوا على مملكة الأنباط عام ١٠٦ قبل الميلاد ودمروها، وهكذا نرى أن الغزو الروماني هدم ولم يبنِ، وإذا بنى فهو اقتباس من الفن العربي القديم.

ويشهد على الفن الهندسي العربي المكتشفات الأثرية الحديثة في شمال سورية والعراق ولبنان، أي في بلادنا العربية مهد الحضارات. فوقف أمام تلك المكتشفات الأثرية علماء الآثار القريبون بدهشة وانبهار عجيب، وصف ذلك

موثَّقاً الدكتور عفيف بهنسي في كتابه (وثائق إيبلا) عام ١٩٨٤. وبحاسة العالم المدقق، وأسلوب المؤرخ الأمين، وسمو الثراء الفكري عند الدكتور شوقي الذي ذكر في كتابه (تاريخ الحضارة العربية الإسلامية) بعض أسماء المؤرخين من الأجانب الذين قادتهم أبحاثهم الدقيقة إلى هذه الحقائق، على سبيل المثال الدكتورة الألمانية زيغريد هونكه التي ذكرت في كتابها (شمس العرب) أن كل صيدلية ومستودع أدوية في أيامنا، وكل مخبر ومشفى هي نصب تذكارية للعبقرية العربية الإسلامية، وكل حبة دواء تذكرنا باثنين من أعظم الأطباء، وهما ابن سينا والرازي، وكم كان الدكتور شوقي كريماً مع قرائه فنقل إلينا كل هذه المعلومات الثمينة في متون هذا الكتاب.

ولو أردت الإشارة إلى كل صفحة لاحتجت إلى مجلدات، وعلى الرغم من ذلك فلابد لي من وقفة عند الصفحة ٥١٥ وذكر ما نقله الدكتور عن المؤرخ يول ديورانت صاحب كتاب (قصة الحضارة)، وأذكر شخصياً كلود فارير عضو الأكاديمية الفرنسية سابقاً، وبيير روسي الباحث الفرنسي، وغوستاف لوبون، وغوته ١٧٤٩-١٨٣٢، وجوهان، ولفانج غوته كبير الشعراء الألمان والمفكرين، والداعية للإسلام في قلب أوروبة المسيحية في أواخر حياته، الذي درس القرآن في مدينة فرانكفورت عام ١٧٧٢م بترجمة ألمانية فشهد بشجاعة بعظمة القرآن في أدبياته وأبحاثه. وحتى الملحدين من مفكري الغرب الأوروبي أشادوا بعظمة القرآن هذا الدستور العظيم، فقال فولتير الأديب والمفكر الذي تعتز أوروبة بعبقريته حينما نذكر أمامه اسم مارتن لوثر (Martin Luther) الراهب الألماني الذي تزعم حركة الاصلاح البروتستانتي في ألمانية إلى عام ١٥٤٦م، وجون كالفين (John Calvin) اللاهوتي الفرنسي الذي أسس المذهب الكالفيني في فرنسة ثم سويسرا عام ١٥٠٩-١٥٦٤م، قال فولتير عن هؤلاء: إن كل واحد منهم لا يصلح أن يكون ماسح حذاء لمحمد، على الرغم

من أنه لا يعتبره نبياً مرسلاً. ذكر هذه المعلومات الباحث الأمريكي لوثروب ستودارد في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) ترجمة عجاج نويهض، تحقيق الأمير شكيب أرسلان عام ١٣٥٥هجرية.

وعلى هذا النحو وجهود هؤلاء الرواد الباحثين تكشف الحقائق التاريخية لديننا وحضارتنا العربية الإسلامية، ولكن الجهل علة أعيت من يداويها، جهل الذين ظنوا أنهم الآن سادة العالم وأصحاب القرار فيه بالقوة النووية، والأسلحة الفتاكة والوحشية اللامتناهية، فأتوا إلى مهد الحضارة إلى بلادنا العربية الإسلامية ليهدموا كل شيء جميل وعريق فيها، ويدمروا ويحرقوا ويسرقوا ويقتلوا، ويتركوا الإنسان صاحب تلك الحضارات التي عمّرها الآلاف من السنين ليزرعوا في عقول من نجا من القتل وكان في عمره بقية من أبنائها، لينشروا ثقافتهم الفاسقة وحضاراتهم الهجينة التي لا يتجاوز عمرها المئة عام، ويفلسفون تاريخهم المفعم بالوحشية والهمجية وبأيادي ملطخة بدماء الهنود الحمر في ماضي أجدادهم وفي الحاضر بدماء سكان فلسطين وأفغانستان والآن العراق. بهذه الأيدي يريدون أن يعيدوا بناء بلادنا ويعلموا وينشروا الديمقراطية. وقبلاً كانت بدماء سكان فيتنام وسكان هيروشيما ونغازاكي اللتين أبيدتا كلياً وغرقتا بدماء سكانهما الأبرياء.

هؤلاء المجرمون الآن يريدون نشر الحضارة والديمقراطية في بلادنا، يا للمهازل وسخرية القدر!! نرجو من الله عز وجل أن يحمي أمتنا من شرهم ويجعل كيدهم في نحرهم، ويحمي بلادنا من أعوانهم، إذ لولا أساليب المتعاونين من أبناء أمتنا لما استطاع المتوحشون - على الرغم من حملهم هذه الأسلحة المدمرة - من احتلال بلادنا، وهذا يرجع إلى قصور الوعي الديني والسياسي والوطني، وهذا يكشف بوضوح عن نسيان أو جهل أفراد من شباب أمتنا من هم ومن أي أمة ينحدرون وأي دين يعتنقون.

وهذا الواقع لم يأتِ بمحض المصادفة وإنما بسبب التربية والمربين في البيت والمدرسة. ولا شك أن هذا الخلل في التربية هو الذي كوّن عند بعض أبناء أمتنا تقديس كل ما هو أجنبي بسبب الجهل والانبهار بالدعايات المغرضة الخيالية الكاذبة والغزو الفكري المدروس. هذه الأدوات هي أفتك من السلاح وأشد خطراً، وهل يتم البناء تمامه إذا كنت تبني وغيرك يهدم؟! وهنا يأتي دور المربين والمعلمين والآباء والأمهات وأساتذة الجامعات في وطننا الكبير العربي الإسلامي. فهم كالجندي الذي يدافع عن أرض الوطن ويقف في الصفوف الأمامية من خط الدفاع الأول. فإما أن يدافع بشجاعة وإخلاص، ويمنع العدو من التقدم، أو يتخاذل ويجبن وبذلك يفتح ثغرات للعدو الأجنبي ليدخل منها ويحتل ويدمر ويهدر الكرامة ويعيث في البلاد فساداً، يسرق ويحرق ويُذل، مع العلم أن المحتلين لا يكافئون عملاءهم إلا بالنزر اليسير من العطاء، وأما عقابهم فعند الله عسير يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

وعود على بدء فالدكتور شوقي أبو خليل ليس فقط محاضراً ومؤلفاً قديراً واسع الاطلاع والثراء الفكري، إنما هو مربٍّ مؤمن أيضاً، وتحضرني الآن واقعة حدثت معي في أثناء إشراف الدكتور بشار نعامي أحد الأطباء الجراحين بمستشفى الشامي إثر جراحة أجريت لي، ولمست من هذا الطبيب إنسانية رائعة فأهديته أحد مؤلفاتي، أمسك الكتاب بيديه بعد أن شكرني وأخذ يتصفّحه ثم رفع رأسه قائلاً: «قرأت في هذه الصفحة اسماً أعتز به جداً عندما أذكره (الدكتور شوقي أبو خليل) صاحب هذه المقدمة لكتابك، كان أستاذي الذي أحترمه وأجلّه، وله تأثير كبير على تكوين شخصيتي، علمنا كيف نشكر الله على الإسلام، وقيمة الوقت في شريعتنا الإسلامية، وكيف نعتز بكوننا من الأمة العربية على الرغم مما آلت إليه في هذا العصر من هوان. علمنا معنى جملة (الله أعزّنا بالإسلام)، ومعنى الفضيلة.

كان يوظف ساعة الدرس بتكوين قناعات على أساس سليمة لدينا، وكنا نتمنى أن يكون كل أساتذتنا بهذا المستوى الفكري الراقي. كان يعلمنا ويدلنا على ينابيع الأمل، والأمثلة والعبر في تاريخنا العربي الإسلامي، ويزرع في نفوسنا ثقة عميقة بالمستقبل، ومن أعظم هذه الينابيع الفياضة هو الأمل عند المؤمن بأن الله لا يضيّع أجر المحسنين، وينبوع آخر هو الصبر الذي يحفظ للمؤمن ثباته، ويذكّرنا بتاريخ صحابة رسول الله وكم كابدوا من متاعب وعانوا من أهوال، كل ذلك في سبيل نشر هذا الدين العظيم والدستور الإلهي العادل.

ومن أروع الأمثلة على الصبر ثبات رسول الله ﷺ وصحابته في حصار الشِّعْب ثلاث سنوات من تحمل الجوع والعطش والهجير في النهار والبرد القارص في ليالي الشتاء، وكان لهذا الصبر ثمرات رائعة ونصر سابق نصر، ويذكّرنا بقول الله تعالى في سورة الروم: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/٦٠]، كان يحدثنا عن هذه الأمور، وعبرات تترقرق في مآقيه كان لها تأثيراً مدهشاً على نفوسنا نحن الطلاب تبث في أعماقنا قوة على الأمل والصبر والعمل الجدي والاستعداد للامتحان لأن النصر لا يأتي إلا بعد امتحان».

وكلما كان الإيمان بالله قوياً تفجرت ينابيع الأمل في أعماق الإنسان المؤمن ينابيع فياضة تدفعه إلى ميادين العمل في سبيل الله وخدمة الإنسانية، وهو لا يرجو سوى رضا الخالق رب العالمين سبحانه وتعالى، فالإيمان يمنح الإنسان التوازن النفسي وثبات الخطا وسكينة لا يخالجها شك، وقلق، ويأس، قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/٥٦].

وأختم هذه الرؤية لمؤلفات الدكتور شوقي أبو خليل، المربي الكبير،

والمؤرخ، والباحث والفارس في ميادين العطاء، ولأمثاله كقارئة بتحية إكبار واحترام وشكر باسمي واسم كل أم ووالد في عالمنا العربي والإسلامي يرغب أن ينشأ أبناؤه بتوازن نفسي وعزة وإيمان ومشاعر خالية من الدونية واليأس، خالية من القابلية للمسخ والسلخ عن قيمنا وديننا، وتراثنا، كما قال مالك بن نبي (القابلية للاستعمار) لا التجرد من الكرامة والحياء. قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٩/١٣] صدق الله العظيم، فتحية وطوبى للدكتور شوقي، كما قال تعالى، وحسن مآب، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

مع أطلس دول العالم الإسلامي

الأستاذة نادية الغزي

قبل سنوات قريبة... حملت مخطوطي «حضارة الطعام في بلاد الرافدين والشام» ويممّت شطر مؤسسة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، للمعرفة القديمة التي تربطني بمؤسّسيها، وللثقة الكبيرة التي أحتفظ بها لهذه الدار، وللأخلاقية المطلقة التي يتعامل بها مَنْ هو من أهلها تجاه الآخرين، وتجاه من يتقدّم للتعاون معها.

وهكذا كان... وكان الشخص الأوّل الذي كان مسؤولاً عن مخطوطي هو الأخ الكريم، الأستاذ والباحث الدكتور شوقي أبو خليل... ولستُ اليوم في ذكر سيرته الذاتية ومناقبه... فهذا توثيق قام به زملاؤه الأكارم.. لكنني سوف أذكر تعاملي معه ومع الفريق المرافق، والمراقب الذي قام خلال سنوات تمت على أثرها طباعة الموسوعة.

والسنوات - بطبيعة الأمر - تعلّم الإنسان وتجعله يختار أصدقاءه والموثوق بهم.

في مكتبه المضيء بنور الصباح المشمس، كان الدكتور أبو خليل يستقبلني ببشاشته وهدوئه، فنتباحث في أمر ما قدمت من عمل، ولقد كان له الفضل في تصحيح بعض المصطلحات اللغوية الدارجة في الأدب المعاصر، مشيراً بلباقته

المعهودة بما يجب عليّ من تقديم أو تأخير لبعض الكلمات التي يتوازن جرسها في الجملة.

ولربما لم ينتبه الدكتور أبو خليل، بأنه رسَّخ فيَّ جملة كنت أستعملها في كتاباتي الماضية، بشكل تعارف عليه الكلّ.. لكنّ الكلّ الثقافي لا يكون محقاً في أحايين كثيرة.. ولقد كنت أستعمل على سبيل المثال جملة: «نفس المكان»، أو «نفس الشيء» أو «نفس المنطقة» وكان الدكتور أبو خليل مصراً في كلّ مرة على لفت انتباهي، مصححاً فيقول: «المنطقة نفسها» أو «الشيء نفسه» أو «المكان نفسه» فاتخذت نصيحته مثالاً، وهو المُلِمّ باللغة، وبالتاريخ.. وبالجغرافية..

ولقد كان يسودني الاطمئنان وأنا أدخل الدار متجهة نحو مكتب الدكتور أبو خليل محيية الزملاء الأكارم.. إخوتي في الحق والدين..

وعند وصولي إلى مكتب الدكتور أبو خليل كان يسارع مقدماً لي كأساً من الشاي.. قبل أن نتناقش فيما يخص «حضارة الطعام» من أمور.

إضافة إلى التبحر اللغوي الذي يتمتع به الدكتور شوقي أبو خليل.. وإضافة إلى إيمانه بالقضية.. فإن للدكتور أبحاث وكتب شتّى، شرّفني بإهداء كتابين، منها: (هارون الرشيد) و(أطلس دول العالم الإسلامي).

ولقد بهرني كلا الكتابين.. ولعلّي سوف أختار (الأطلس) لأتحدث عنه قليلاً بما يُلقي ضوء قنديل صغير على ما يتمتّع به الدكتور أبو خليل من واسع العلم والدقة والمعرفة.

☆ ☆ ☆

الأطلس

كتاب جميل... تتوالى الخرائط في كلّ صفحاته اليمنى، مشيرة إلى خمس وخمسين دولة إسلامية، وثّقها المؤلف استناداً إلى مقررات مؤتمر (منظمة المؤتمر

الإسلامي) الذي عُقد في طهران من ٨-١٠ شعبان ١٤١٨هـ والموافق من ٩-١١ من كانون الأول لعام ١٩٩٧م.

قليل من الناس من يكون عارفاً بإحصائية الدول الإسلامية من حيث العدد.. والكثيرون منّا يعرفون - بلا شك - أسماء بعض تلك الدول، لكننا نكاد نجهل أسماء الباقيات. بل لعلّ تلك الدول لم تكن تخطر أو تمرّ على الذاكرة.. بل لم يسجل الكثيرون منّا المعلومات الكافية عن الدول الإسلامية في (أجندة) معلوماته.

ولقد بدأت بقراءة الكتاب ذي الغلاف الداكن الذي تتصدّره خارطة عامّة تضم دول العالم الإسلامي.. وقد لوحظ في تصنيف الألوان مقدار التوضّع البشري الإسلامي في كلّ بلد.. فاختلف اللون من الواضح إلى المتغيّر بعدة اتجاهات لونية ممّا يمكّن المضطلع قبل فتح دَفَّتي الكتاب من تبيّنِ كثافة الوجود الإسلامي بين بلد وآخر. والكتاب كما هو معنون: جغرافي.. تاريخي.. اقتصادي..

وبذلك.. حرص المؤلف على منهجية علمية دقيقة، في سرد المعلومات عن كل دولة، بتنظيم شديد، تتسلسل فيه الأسماء بمعلوماتها في انسياب بعيد عن التعقيد حسب الألفبائية، بحيث يجد القارئ ودون أيّ عناء اسم الدولة متصدّراً رأس الصفحة اليسارية من الخارطة، وبقرب الاسم عَلَمُ تلك الدولة... مع مجسم مستقل للرمز المتمركز في كلّ راية.

ولم ينس الباحث بالطبع... إدراج الاسم باللغة الأجنبية تسهيلاً لمن يقرأ من الأجانب المستشرقين الذين يفيدون من العلم في العالم الإسلامي... وتسهيلاً لمن أراد التوسع باستعمال القواميس.

ينتقل الدكتور شوقي أبو خليل، إلى ما يمكن أن ندعوه (بالمعلومة الأساسية)

عن كلّ دولة، فيبدأ بذكر أسماء العواصم.. وبهذا يحدد (الاسم التاريخي لكلّ بلد).

ثم ينتقل إلى المساحة وبذلك يعرج على الجغرافيا الحسابية.

ثم يعد السكان حسب إحصائيات عام (محدّد) وهنا تتمازج (السياسة بالديموغرافيا بالتاريخ) في هذا التركيز الإحصائي.. بل يكون الدارس متوقعاً - حسب الإحصائيات - مستقبل عدد السكّان في البلد المذكور.

ثم يصل الدكتور أبو خليل إلى لُبّ موضوعه ودراسته الأساسية، وهي ذكر عدد المسلمين في الدول المعنية المذكورة وذلك بعملية (النسبة والتناسب) الحسابية الاجتماعية.

والكتاب بجدّ ذاته سهل غير ممتنع.. فها هو الباحث يدلنا على اللغة التي يتكلّم بها سكان كل بلد.. مع ذكر أسماء اللغات الأصلية.. وبهذا يكون قد اتجه بنا إلى عالم (اللسانيات واللغات).

فإذا شئنا أن نكون أكثر فضولاً، فلسوف نتساءل عن (العملة النقدية) التي يتعامل بها أهل كلّ بلد فإذا اسم العملة موجود.. ونكون قد دخلنا، مع الباحث في العوالم الاقتصادية لكل بلد.

يستفيد الدكتور أبو خليل من معرفته الواسعة بالتاريخ الإسلامي.. فيختصر لنا المعلومات التي ترشدنا إلى دخول الإسلام للمرة الأولى إلى كل بلد من هذه البلدان الخمسة والخمسين.. وعلى يد من كان هذا الدخول.. بل هو يحدد عام دخول الإسلام... واسم المعركة إن كانت هناك معركة.

وتتتالى المعلومات عن الأسر الحاكمة التي سيطرت منذ وقت التأسيس.. ومَنْ هم الحكّام اليوم.

ويُذيِّل الباحث.. في صفحته اليسارية المرافقة لكل خارطة، عوداً إلى الحياة الاقتصادية لكل بلد من البلدان الإسلامية أو التي يتواجد فيها الإسلام، ذاكراً أهم المنتجات الزراعية لكّل بلد على حِدَه.. وذاكراً الثروات الحيوانية بالأرقام.. وذاكراً بالتالي المنتجات الصناعية.. أو وجود النفط أو الغاز بادئاً من سنة اكتشاف النفط والغاز ووصولاً إلى كميّة الاحتياطي الموجودة حالياً.

تتتالى الأسماء والخرائط والمعلومات.. وحين يطوي القارئ آخر صفحة في الكتاب الموسوعي (المبرمج) المنظّم، والدقيق والموسّع في آن معاً، يستنتج أنّه قد ألمَّ بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بالمعلومات الأساسية عن أطلس العالم الإسلامي.

وإني أدفع للدكتور شوقي أبو خليل تحية إكبار وتقدير لهذا العمل الدؤوب الدقيق الجامع المانع، والذي هو - بالوقت نفسه - المبيِّن والمفسّر الذي يلعب دوره في التقريب بين مسلمي الأرض جميعاً.

وإني... عرفاناً.. وشكراً أقدم كلمة إهداء صادقة لكتابي الموسوعي (حضارة الطعام في بلاد الرافدين والشام) إلى الدكتور شوقي أبو خليل.. هذا الإهداء الذي لم يذكر في الكتاب الذي تصدرته مقدمة بقلم الدكتور أبو خليل.. لكنني أقدمه الآن.. وبمناسبة تكريم الدكتور شوقي أبو خليل، راجية أن يكون عملي جديراً بهذا التقديم.

مرفقة وافر الاحترام والتحية والإكبار.

وقفة مع بعض مؤلفات الدكتور شوقي أبو خليل

الدكتور إبراهيم يحيى الشهابي

الدكتور شوقي أبو خليل أشهر من أن أُعرِّفَ به، فباعه طويل في الدراسات الإسلامية التاريخية، له في ميدان الإسلاميات (ثمانية) كتب، وفي التاريخ الإسلامي (تسعة) كتب، في معرفة تاريخ الأمة وشخصياتها (عشرة) كتب، وفي غزوات الرسول الأعظم ﷺ (عشرة) كتب، وفي الدراسات النقدية (خمسة) كتب، وفي المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (خمسة عشر) كتاباً، بالإضافة إلى (خمسة) كتب قيد الإنجاز، وفي مجال ما ينبغي أن يكون عليه المرء العربي المسلم - أي في مجال تربية الأطفال- (عشرون) كتاباً، وأخيراً ألَّف الدكتور شوقي (خمسة) أطالس إسلامية شملت التاريخ والأماكن والأقوام والأعلام التي وردت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فضلاً عن أطلس السيرة النبوية، وأطلس دول العالم الإسلامي، مبيناً أسماء البلدان الأصلية، وغير ذلك من المعلومات القيمة.

فهل بعد هذا كله يحتاج الدكتور شوقي أبو خليل إلى تعريف؟! وهل ستكون الكلمات التي سأقولها فيه كافية؟ لن أقول شيئاً، فعملُه وجهدُه أبلغ من القول، وإنما سأتعرض هنا في المقام إلى كتاب له لفت نظري عنوانه: (عناصر النصر والهزيمة في تاريخنا الإسلامي) فأحببت أن أطَّلع عليه عساني أجد فيه ما

يرشدنا إلى الخروج من هاوية الهزيمة التي سقطنا فيها طوال القرن العشرين، ويبدو أن مُقامنا فيها سيطول، إلا بفضل من الله يخرجنا منها.

خُيِّل إلي عندما قرأت عنوان الكتاب أن الدكتور شوقي يتحدث فيه عن عوامل النصر والهزيمة في جميع ميادين الحياة، ولكني وجدت أنه يتعرَّض في غالبيته إلى عناصر النصر والهزيمة في المعارك العسكرية، ويضرب على هذه العناصر أمثلة من التاريخ ومن سيرة الرسول ﷺ وغزواته. فكان الكتاب درساً تطبيقياً مشفوعاً بالأمثلة بأسلوب سلس وشائق، وهذه ميزة المدرس الناجح والمرشد المقنع.

ويمكن تلخيص عناصر النصر والهزيمة التي ذكرها الدكتور شوقي في كتابه المذكور على النحو التالي:

١- التحضير المُتْقَن والمدروس جيداً للمعركة، ومن عوامل التحضير معرفة العدو من حيث العدد والعدةُ والتدريبُ والحالة النفسية.. وغير ذلك، مع ضرورة إبقاء هذه التحضيرات سرية لدى القيادة. ومن عوامل التحضير أيضاً التمويه على العدو وإيهامه بما نريده أن يتوهم، ومفاجأته إن أمكن.

ويشمل الإعداد: التربية العقائدية، والتسلح المتطور والمتفوق على العدو أو ما يوازي سلاح العدو على الأقل، بيد أن التدريب المشفوع بالإيمان القوي وبصدق العقيدة ربما يعوّض النقص إذا حصل.

٢- وعي القيادة وسمو أخلاقها بحيث تكون قدوة للجند قتالاً وسلوكاً وإيماناً بالله، وحكمةً، وبُعْدَ نظر.

٣- إزالة الحواجز بين الشعب والقيادة، بحيث تتولد ثقة قوية متبادلة بين القيادة والقاعدة، وهذا العنصر ينسحب على مختلف مناحي الحياة والدولة.

أما عناصر الهزيمة، فيمكن القول إنها أضداد عناصر النصر، ولكن لا بأس من التأكيد على الأمور التالية:

١- ضرورة الالتزام والانضباط، وإلا حصلت فوضى، وتهوُّر.

٢- الانتباه إلى الجواسيس؛ فمن أبرز مستلزمات الحرب اليوم الجاسوسية، سواء عن طريق استخدام الأشخاص أو الأجهزة المتطورة والأقمار الاصطناعية.

٣- التمسك بالوحدة، صفاً، وكلمة، وفكرة، وأرضاً. وهذا ينسحب أيضاً على كل مجالات الحياة وعلى كيان الدولة، ولا ينحصر فقط في المجال العسكري.

٤- ضرورة إبعاد بطانة السوء عن مواقع القيادة والمشورة، وينطبق هذا العنصر أيضاً على جميع المسؤولين في الدولة، وليس فقط على القادة العسكريين.

واسمحوا لي الآن، أن أكمل الصورة التي رسمها الدكتور شوقي فأتحدث عن بعض عوامل النصر في الحياة عموماً: اجتماعياً، واقتصادياً، وفكرياً، وحضارياً وغير ذلك.. بحيث تتمكن الأمة من متابعة مساهمتها في بناء الحضارة الإنسانية.

ولكن، قبل البدء في بيان عوامل النصر والهزيمة، لابدَّ من تشخيص حالتنا كي نتمكن من وصف الدواء الناجع.

١- إن أمتنا مصابة بانفصام الشخصية، أي إن مُكَوِّنَيْ هويتنا الحضارية وهما الإسلام والعروبة بما تتضمنه من لغة وثقافة وقيم، قد انفصل أحدهما عن الآخر.

فأصبح هناك عروبة، وهناك إسلام، ولكن لا يوجد شخصية أو هوية حضارية عربية إسلامية، تماماً كمثل الماء عندما نحلّله إلى عنصريه، فيصح لدينا أكسجين وهيدروجين ولكننا نفتقد الماء.

٢- هناك انفصال بين القيادة والقاعدة، بل هناك عدم ثقة متبادل بين القيادات وقواعدهم، سواء على صعيد الأحزاب أو المنظمات أو الفصائل أم على صعيد الحكومات.

٣- التمزق الفكري، والمفاهيم المشوشة، والمشوَّهة، الأمر الذي أفسد التربية.

٤- التمزق الجغرافي والاقتصادي.

ولكي نحقق النصر، لابدَّ لنا من بناء صروح ثلاثة هي: الوحدة، والفكر، والتربية.

أما الوحدة فأعني بها أولاً الوحدة الفكرية، ثم تأتي الوحدة الجغرافية والاقتصادية والسياسية نتيجة طبيعية للوحدة الفكرية، ولكي ننجح في بناء الوحدة الفكرية ينبغي اتخاذ الخطوات التالية:

١- على المسلمين كافة تَبَنِّي المقولة التالية والانطلاق منها: «كلنا مسلمون، ربنا واحد هو الله، وكتابنا واحد هو القرآن، ونبينا واحد هو محمد ﷺ» وما سوى ذلك فهو تاريخ عُرضة للنَّزعات والنزاعات والمناورات السياسية، ولسنا مسؤولين عما كانوا يفعلون. يمكننا الإفادة من إيجابياتهم، ولكن ينبغي ألا نتحمل مسؤولية سلبياتهم.

٢- على المسيحيين العرب - خصوصاً - أن يتبنوا مقولة مماثلة، ويتخلصوا من تعددية المذاهب والطوائف التي تغرقهم كما تغرق المسلمين.

وبعد ذلك لن يجد العرب (مسلمون ومسيحيون)، ولا المسلمون (عربٌ وغير عرب) ما يختلفون عليه. وهذا يساعدنا على إعادة بناء هويتنا أو شخصيتنا الحضارية، فنكون قد حققنا الوحدة الفكرية، وبالتالي تتوحد الأمة على الصعيدين العربي والإسلامي، جغرافياً وسياسياً، وتتكامل اقتصادياً.

أما التربية فهي أعقد عملية؛ لأنها عملية بناء الإنسان نفسياً وثقافياً وسلوكياً منذ ولادته حتى يغدو رجلاً مسؤولاً يحمل على عاتقه عبء تربية أبنائه وأحفاده، ويحمل جزءاً من عبء بناء الأمة إنساناً وأرضاً؛ كي تستمر عملية البناء الذاتي للأمة وتتجدد على الدوام دون أن يصيبها وهن أو انحراف فتذهب ريحها.

وفي أثناء عملية التربية تتفاعل في الطفل ومعه عناصر ثلاثة، تسهم في تحديد هويته الإنسانية، هذه العناصر هي:

١- ذاته، وتتمثل في كل ما له علاقة بالنفس والعقل، كالانفعالات والاستجابات والسلوك، وطريق عمل الدماغ، والمقدرة الذهنية، وغير ذلك.

٢- بيئته، وتتمثل في الطبيعة والمجتمع اللذين ينشأ فيهما، وفي المحيط الذي يترعرع فيه.

٣- ثقافته، وتتمثل في ما يتلقاه في بيئته من تجارب ومعارف وعلوم، وفي ما يبدعه نتيجة تفاعل هذه العناصر الثلاثة فيما بينها من جهة، وفيما بينها وبين الطفل من جهة أخرى.

وتقوم التربية على أساس متين لا يتزعزع هو (الدين). ذلك لأن الدين عموماً، والإسلام خصوصاً، يُعَدُّ نظاماً معرفياً، ونظام مسؤولية شخصية؛ لأن الإنسان يتوصل إلى الدين ويؤمن به وهو على وعي تام بقدراته العقلية. كما أنه يَكْتَسِبُ الدين باستخدام هذه القدرات استخداماً كاملاً؛ ولأنه كذلك مسؤولية جماعية، حيث تعمل الجماعة على بناء حضارتها وتسهم في بناء الحضارة الإنسانية. ولهذا نظر الإسلام بوصفه آخر الأديان وشاملاً لمضامينها ومبادئها جميعاً، إلى الدين عموماً على أنه محرِّر للإنسان من أية سلطة بشرية أو نظام بشري دنيوي، أو حتى من سلطة العوامل الطبيعية (بعكس ما هو واقع حال الناس اليوم الذين يجعلون من الدين قوقعة وسجناً وقيداً، أو

يجعلون من الدنيا وسلطانها معبوداً من دون الله)، الإسلام ينهى نهياً قاطعاً عن الحَجْرِ على الفكر والمسِّ بحرية الإنسان أو تقييد عقله.

وبالتالي ينبغي أن يكون النظام التربوي مسؤولاً عن حياة الإنسان من المهد إلى اللحد (بل ربما قبل ولادته، وهو جنين، حسبما يزعم العلم اليوم)، وعن تطوره في تسخير المعرفة والعلم لصالح البشرية جمعاء ولصالح عملية إعمار الأرض. كما أن النظام التربوي يُعدُّ مسؤولاً عن تعزيز قدرة الإنسان على ترويض النفس وتصعيد هذا النحو واستمراريته. ولهذا لابدَّ له من أن يتطابق مع أهداف التربية التي نلخصها فيما يلي:

١- إشاعة الخير وتعميمه: الخير الاجتماعي والاقتصادي والسلوكي والسياسي، والعلمي والتقني، وغير ذلك من ميادين الخير في الحياة البشرية.

٢- الحيلولة دون ظهور المنكر -وهو عكس الخير تماماً- وإيقافه إن ظهر، والحد من انتشاره.

٣- معرفة عدو البشرية، وعدو عملية إعمار الأرض، من أجل منعه من التخريب والإفساد.

وقد لخصت الآيتان الكريمتان التاليتان هذه الأهداف:

١- ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤].

٢- ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٨٢].

لم تقل الآية: «أشد عداوة للذين أسلموا، أو للمسلمين، بل: للذين آمنوا..» فمن هم هؤلاء المؤمنون الذين يعاديهم اليهود والمشركون؟

المؤمن هو الذي يتبنى الحقائق التالية عقيدة وعملاً والتزاماً:

١- هذا الكون بما فيه ومن فيه مخلوق، خلقه إله واحد هو الله عزَّ وجل.

٢- استخلف الله الإنسان في الأرض وكلَّفه بإعمارها.

٣- الإعمار لا يمكن أن يتم إلا بالتفاعل الحضاري الإنساني الودي السلمي، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

ولما كان اليهود والمشركون يعملون دائماً على إثارة الأحقاد بين الأديان والحروب بين الشعوب، من أجل أن يفرضوا سيطرتهم على العالم ويقلبوا الحق باطلاً والباطل حقاً - كما هو حال عالمنا اليوم- لذلك وصفهم الله بأنهم أشد عداوة للذين آمنوا؛ أي: للذين يعملون على إعمار الأرض.

وأخيراً، فإن مسألة تحقيق التفاعل بين الحاكم والمحكوم، بين القيادة والقاعدة، وبناء الثقة المتبادلة بينهما، فتعَدُّ من أهم الدعوات الواردة في القرآن الكريم، ولا أريد الخوض هنا في تفاصيل كيفية إنجاز هذه المهمة؛ لأن ذلك سيطول وأخشى أن يصل الأمر بالقارئ إلى حد الضجر، ولكن يمكن أن يُفْرَدَ لهذه القضية بحث خاص بها[١].

أستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) من أراد الاطلاع على مزيد من هذه الأفكار والآراء، فليرجع إلى كتاب (الشخصية العربية)، وكتاب (كيف نودع القرن العشرين) للدكتور إبراهيم يحيى الشهابي.

الزاهدون في المناصب

تعريف ودراسة

الدكتور محمد بن عزوز

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فقد رغب إلي الأخ العزيز، العالم البحاثة الدكتور نزار أباظة أن أكتب أحرفاً أعرّف بها كتاب (الزّاهدون في المناصب) للعلامة الجليل الدكتور شوقي أبو خليل.

فأشكره على ثقته بشخصي الضعيف، وأرجو الله تعالى أن يوفقني إلى ما يرضيه، ثم إني أطلب منه أن يسامحني على ما أقصِّر فيه عن القيام بحق عالم، يحتلُّ من نفسي مكانة عالية.

ولقد سررت كثيراً وأثلج صدري أن تقوم دار الفكر بتكريم هذا العلامة الكبير، اعترافاً بفضله وجهوده، وتعريفاً للناشئة به، وبأعماله وآثاره، فالأمم الحية هي الأمم التي تكرم رجالها، وتعترف بفضلهم وأثرهم لأنهم بناة حضارة وفكر، كما أنهم حملوا مشعل الثقافة التي أنارت العالم كله، وكان لها القدح المعلَّى في تقدم الحضارة الإنسانية.

والكريم هو الذي يعرف حق العلماء، وقد قال الشاعر:

إذا أنت لم تعرف لذي السن فضلَه   عليك فلا تنكر عقوق الأصاغر

وهذا يُعد من أبهى صور الوفاء والاعتراف بالفضل في زمن قلَّ فيه الأوفياء، وندر فيه من يرى لغيره فضلاً عليه، فكم في عصرنا من فاضل نبيه طوى ذكره عدم التنبيه، فصار اسمه مهجوراً، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

وهذا ما عبّر عنه العلامة الجليل الدكتور شكري فيصل عندما قال: «..وما أشدَّ ما أصبحنا نحتاج إلى خلق الوفاء، بعد أن تناكر الناس بعضهم لبعض، وجهل بعضهم حق بعض».

إن هذا الوفاء الذي يمثله الحديث الشريف: «ليس منا من لم يوقِّر كبيرنا ويرحم صغيرنا» أوشك أن يُنسى في خضمٍّ من نمو الذات، وتضخم الأنا، وغلبة النظر الضيق للذات الفردية، الجيل الحاضر يوشك أن ينسى - إن لم يكن قد نسي فعلاً - فضل الجيل الذي سبقه، والجيل الذي يأتي يوشك أن ينسى فضل الجيل الحاضر، و(الأنا) تعصف بالرؤوس والنفوس، على حين أن التاريخ حلقات تتسلسل واحدة منها إثر واحدة، والمجتمع أجيال متعاقبة بعضها يلي بعضاً، والحضارة لَبِنات متماسكة يتكون منهما الصرح، وليس لحلقة أو جيل أو لَبِنة أن تدعي لنفسها فوق الذي لها»[1].

وهذا ما نبّه إليه علامة المغرب محمد بن الحسن الحجوي عندما ترجم لنفسه في كتابه (الفكر السامي)، فقال: «فليتنبه إخواننا إلى الاعتناء بتراجم الرجال وإظهارهم مظاهرهم، فالأمة برجالها، والسهام بنصالها، وليترجم الناس

(١) انظر: تقديم الدكتور شكري فيصل لكتاب (تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري) ١/٨-٩.

لأنفسهم بأنفسهم مادامت الأفكار معرضة عن هذه الواجبة، حتى لا تضيع حقائق من حياتهم ربما تتطلب فلا توجد، وكم ضاعت من حقائق بإهمال هذا الفن لم يجد الأسف عليها شيئاً، فليكن في عملي هذا تشجيع للناس على ترجمة أنفسهم، وتنشيطٌ على الاعتناء بهذا الفن المهمل الذي يضيق المقام عن تعداد فوائده التي منها: إن الأمم لا تعتبر في مقام الحياة إلا بقدر ما فيها من الرجال وما يحسنون».

وهذا ما أدركه أيضاً العلامة عبد الله الجراري أحد أعلام الأدب في المغرب في هذا العصر فقال: «..إن قلة الاهتمام وفقدان العناية بتسجيل حياتهم - لما يغلب على كتَّابنا المغاربة ومؤرخيهم - يموت العالم أو الأديب ولا من يحتفل بتدوين حياته، وتخليد تراثه الأدبي، إذ بمجرد إقباره يصبح في خبر كان، ومن وراء هذه الظاهرة السيئة ضاع رجال ورجال كانوا أمثلة حية في جبين الدهر، رجال لو شملتهم العناية لكان لتراثهم الثقافي وإنتاجهم العلمي ما يودُّ قراء اليوم ومثقفوا العصر تسجيله بسواد العيون»[١].

فهذه كلمات من علماء أفاضل تُعبّر عن المرارة الشديدة التي كانوا يشعرون بها في ذلك التاريخ، وقد خفت وطأتها على عهدنا - فيما أظن - فلو أتيح لهم أن يطَّلعوا على ما نشر لحد الآن من كتابات تخلد أعمال العلماء والمفكرين، لكان عتابهم أخف وألطف.

ومن هنا تأتي قيمة عمل اللجنة الكريمة بدار الفكر التي استنَّت سُنّة حميدة في تكريم أعلام الأمة، والتنويه بهم، والإشادة بأعمالهم، وهذا يُعد امتداداً لما كان عليه أسلافنا من العلماء الأفذاذ الذين عرفوا فضل العلماء، فكانوا

(١) من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين، الرباط وسلا، ٢/٢٨٩.

يذكرونهم بالفضل والذكر الحسن والدعاء لهم، والتَّرحُّم عليهم، وكانوا يرون أن حق العالم على تلميذه مقدم على حق أبيه؛ لأن الوالد سبب في وجود الإنسان من حيث هو حيوان، ولكن الشيخ في وجود التلميذ والطالب سبب في ارتقائه ورفعته، وبلوغه الدرجة العالية عند الله عز وجل ثم عند الناس. ولذلك كان أبو يوسف القاضي يدعو كل يوم لأبي حنيفة قبل الدعاء لأبيه؛ لأن أبا حنيفة أخرجه فجعله إماماً للناس.

وإن المطلع على كتب التراجم يجد مؤلفات تسمى بالمشيخات والفهارس والأثبات وهي نوعان:

١- نوع يترجم فيه المؤلف لشيوخه، ويذكر ما يرويه عنهم بالسماع أو الإجازة.

٢- ونوع يعمَد فيه المؤلف إلى تكريم أحد شيوخه بتصنيف يجمع فيه شيوخ أستاذه وما يرويه عنهم، وهذا النوع يدخل تحت باب الوفاء للمعلم وتقديره والبرّ به، وتعريف أهل العلم بمنزلته وفضله.

يقول إدريس المنجرة في فهرسته (عذب الموارد في رفع الأسانيد)[(١)]:

«فإني أريد بعون الله وتوفيقه أن أسطر في هذه الفهرسة ذكر بعض أشياخي في التعليم والتربية، وبعض من اجتمعت به من السادات الهداة القداة بالمغرب حضوراً وغيبة، وفي المشرق في رحلتي إلى مكة وطيبة، تبرُّكاً بأهل هذا الطريق، ومحبة فيمن انخرط في سلك هذا الفريق.. لغرض معرفة السند في الرواية، والطريقة في العمل والسيرة، وشكراً ومكافأة لنشر الإحسان لما ورد أن من أسدى إليه معروفاً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره».

---

(١) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، ورقة: ٢.

ويقول أبو زيد عبد الرحمن التمنارتي في مقدمة فهرسته (الفوائد الجَمَّة في إسناد علوم الأمة): «..فإن أولى الناس بالذكر من كان أهل سيادتك، وسبب سعادتك، ودليل رشدك وهدايتك، وأحق الناس بالشكر من دَلَّك على الله، وفتح لك باب رضى الله..».

ومن أعجب ما قرأته من صور الوفاء للشيوخ، أن الشيخ إسماعيل بن إبراهيم بن سالم - المعروف بابن الخباز - الدمشقي، المتوفى سنة ٧٠٣هـ - وهو من أسرة علمية عريقة بدمشق اشتُهرت بالحديث الشريف - ترجم لشيخه عبد الرحمن بن أبي عمر المقدسي في ١٥٠ جزءاً.

وقد اطلع عليها الحافظ الذهبي فقال: (ما رأيت سيرة عالم أطول منها).

ولقد أحسنت دار الفكر عندما اختارت العلامة الدكتور شوقي أبو خليل ليكون العالم المكرّم هذا العام، بما له من نتاجات قيمة، وإسهامات في تزويد المكتبة العربية، ومؤلفاته كثيرة وفي كل منها تستطيع أن تتحقق صفة العالم الباحث الذي يشبع موضوعه درساً وتمحيصاً في كثير من العمق.

كما أنه يغوص على النفائس التاريخية المطوية، والقلائد الدرية التي حُجبت عن الأنظار، فيخرجها من صدفاتها، ويجليها لروادها عرائس يسرّ الناظرين اجتلاؤها.

ولقد قيض الله تعالى له تلامذة مخلصين، وصفوة ممتازة من محبيه وعارفي فضله يحبون أن يبروه، فهم أقدر مني على بيان مناقبه وذكر فضائله، والإشادة بخُلقه.. ولكن هذا لا يمنع من التعبير له عن مشاعري الصادقة، وسروري بكل أعماله العلمية النافعة. وخاصة كتابه القيم (الزاهدون في المناصب).

ويتناول الحديث عن هذا الكتاب الجوانب التالية بإيجاز:

١- أهمية الكتاب والحاجة إليه.

٢- سبب تأليف الكتاب.

٣- خطة الكتاب ومنهجيته.

٤- ما نستخلصه من الكتاب من إفادات غاليات وعظات بالغات.

أولاً - أهمية الكتاب والحاجة إليه

إننا نعيش في عصر استحوذت فيه المغريات المادية، والمظاهر الفارغة على قلوب كثير من العلماء، وانفكَّ فيه العلم عن التقوى والإخلاص، إذ أصبح العلم في عصرنا مرتزقاً، الغاية منه تحصيل الشهادات والمناصب، لا واجباً ومسؤولية يحملها العالم. وأصبح الإنسان يفتح عينيه على كثير من العلماء بلا تقوى، وعلى قليل من الأتقياء بلا بصيرة وذخيرة من العلم، والأقل القليل هم أولئك القلة الذين وهبوا أنفسهم لله وللعلم، وكانت المناصب عندهم أمانة يعلمون أنهم مسؤولون عنها، ماذا فعلوا بها؟ هل أدَّوها حقّ أدائها؟ أم ضيَّعوها؟

وهنا أحب أن أقتطف ما ذكره علامة دمشق الشيخ محمد بهجة البيطار - رحمه الله تعالى - عند كلامه على هؤلاء القلة من العلماء الذين لم يستجيبوا لإغراءات المناصب ومنافعها، بل زهدوا فيها وتركوها لمن هو أحق بها، وذلك في التتمات التي كتبها في آخر كتاب جده العلامة الشيخ عبد الرزاق بن حسن البيطار (نتيجة الفكر فيمن درس تحت قُبّة النسر)[(١)].

فقال رحمه الله تعالى: (التتمة الثانية: تنازل بعض مُدرسي قُبّة النسر بالاستقالة أو التوكيل لمن هو أعلم منهم): «بلغ حب الإنصاف والإخلاص، وإسناد الأمور إلى أهلها، في بعض المدرسين تحت قبة النسر، إلى الاستقالة من

---

(١) ص١٣٥-١٣٦.

وظائفهم، أو التوكيل فيها إلى من هو أكفأ وأمثل، وقد عدَّ شيخنا القاسمي (١٣٣٢هـ) في كتابه (إصلاح المساجد من البدع والعوائد) رجالاً من هؤلاء حتى في باب القضاء، ونحن نأثر عنه ما يتعلق بغرضنا.

قال رحمه الله: ومن ذلك تنازل السيد محمد العطار - أحد أجداد بني الحسيبي - عن تدريس (صحيح البخاري) تحت قبة النسر؛ لما سعى في توجيهه عليه، إلى الشيخ يوسف الشهير بابن شمس، وقراءة المذكور عنه بالوكالة إلى وفاته.

ومن ذلك نزول الوجيه أحمد أفندي المنيني عن تدريس الحديث تحت قبة النسر بعد صلاة الجمعة إلى الشيخ سعيد الحلبي وقراءة المذكور عنه إلى وفاته.

ثم قراءة ابنه الشيخ عبد الله الحلبي بالوكالة عن ابن صاحب الوظيفة إلى أن نفي في حادثة الشام المعروفة سنة ١٢٧٦هـ.

ثم ختم هذا المبحث النفيس بقوله:

«هذا ما نحفظه ونأثره عن أشياخنا وكله مما يشفُّ عن عقل وفضل بل وإراحة نفس من عناء ما قد لا يتفرغ له، أو يكون الساخط عليه فيه أكثر من الراضي.

أين هذا التكالب والتماوت على نقل ما كان لسلفهم إليهم، والسعي وراءه، وإن كانوا ليسوا له بأهل، وكم من منصب بيع لصغير وجاهل؛ لنقده فيه من الأصفر الرنان ما أبكم من أولئك كل لسان، إلا أن التاريخ بالمرصاد، فهو لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فرحم الله من عرف قدره، ولم يتعد طوره».

كم تركت هذه الكلمات من أثر بليغ في نفسي، وتساءلت: هل هناك كتاب في هذا الموضوع الهام.

لقد كان الظفر بكتاب يتحدث عن أخبار الزاهدين في المناصب أمنية غالية في نفسي.

وقد حقق الله تعالى لي هذه الأمنية في العام الماضي في أثناء زيارتي لمعرض الكتاب بالدار البيضاء، فحصلت على هذا الكتاب النفيس وسررت به غاية السرور، وهو كتاب صغير في حجمه، كبير في معناه، عزيز في بابه، ولا يعرف قدره إلا من وقف عليه، وقد جاء هذا الكتاب في وقته وأوانه، ليكون درساً لأهل العلم والناشئة في عصرنا هذا، وتذكيراً لهم بما كان عليه علماء السلف رضوان الله عليهم من إخلاص وزهد في المناصب.

ثانياً - سبب تأليف الكتاب

ذكر لنا الدكتور شوقي أبو خليل سبب تأليفه للكتاب، فقال: «كلمة لابد منها.. فكرة هذا الكتاب انطلقت في دار الفكر في أثناء حوار مع الأستاذ محمد عدنان سالم المدير العام للدار، راقت للمؤلف، فكان هذا الكتاب، فأسمى آيات التقدير لدار الفكر، ولمديرها العام الذي شجع على العمل وكان معه منذ بداياته الأولى».

هكذا يكون شُكر العلم وأهله، وهذا يدل على خُلق رفيع يتمتع به المؤلف، وهو مثال لتآخي العلماء وتحابّهم، وتقدير بعضهم لبعض.

ثالثاً - خطة الكتاب ومنهجيته

اشتمل هذا الكتاب على تقديم، ثم عرض لباقة من أخبار الزاهدين في المناصب.

أما التقديم: فأوضح فيه المؤلف نظرة الإسلام إلى المناصب، وأن الذي يتولى المنصب مسؤول أمام الله وأمام عباده، موضحاً ذلك بشواهد وأدلة من السنة النبوية وسيرة الصحابة رضي الله عنهم.

ثم تحدث بإيجاز عن دوافع الزاهدين بالمناصب عبر تاريخنا - قديمه وحديثه - فمنهم من زهد بالمنصب زهداً بالمنصب ذاته؛ لأمور ارتآها كتفرغه للعلم والتدريس، أو وَرَعاً، ومنهم من زهد بالمنصب لمن هو أجدر منه وأحق، ومنهم تسلم المنصب بشروطه، وكان زاهداً به في كل لحظاته فلم يخشَ العزل بسبب قولة حق أو موقف عدل..

أما منهجه في عرض هذه الباقة من أخبار الزاهدين في المناصب، فقد رتبهم حسب تسلسل سني الأحداث وفق وقوعها، الأقدم فالأحدث حتى التاريخ الذي نعايشه.

وقبل الحديث عن منهج الكتاب، أحب أن أقف قليلاً على ما اصطلح عليه الدكتور شوقي أبو خليل بقوله: «أخبار الزاهدين في المناصب».. فماذا يقصد بالخبر؟ هل التاريخ؟ أم التراجم؟..

إن العرب حين بدؤوا بتدوين السير والتراجم أطلقوا على التراجم اسم «التاريخ» فالتاريخ عندهم هو (تراجم) كما ترى في تسمية (تاريخ البخاري)، وهو تاريخ كبير على طريقة المحدثين جمع فيه الرواة الثقات والرواة الضعفاء، و(تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، و(تاريخ مدينة دمشق) للإمام ابن عساكر، وتاريخه أشهر من أن يُعرّف أو يوصف، وما شذَّ من هذا الاصطلاح فإنه لا ينقض ما ذكرناه.

واختص العرب الفن الذي يعرف في عصرنا باسم (التاريخ) باسم آخر هو (الأخبار) كما ترى في تسمية (أخبار البصرة) لعمر بن شَبّة المتوفى سنة ٢٦٢، و(أخبار المدينة) له أيضاً، و(التبيان في أخبار بغداد) لأحمد بن خالد البرقي، و(أخبار الزمان ومن أباده الحدثان) لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ، و(أخبار الدول المنقطعة) لابن ظافر الأزدي.

ومن هذا الفن من فنون التاريخ شاع لقب الأخباري، وهو كما في (أنساب السمعاني): «من يروي الحكايات والقصص والنوادر».

وقد كانت العناية مقصورة في تأليف التاريخ على رواة الأثر النبوي فَهُم حملة السُّنة، وحفظة أخبارها، والمحافظون عليها من الوضع والاختلاف، والزيادة والتحريف والتصحيف، ثم تطور الموضوع فدخل فيه الأعيان على اختلاف طبقاتهم.

ومن فنون التاريخ - أعني: فن التراجم - جمع أخبار من اشتركوا في وصف واحد، مثل (الزهد في المناصب) ويأتي توضيح ذلك في المبحث الآتي.

منهج المؤلف في التراجم

١ - جمع اخبار من جمعهم وصف واحد

احتوى كتاب (الزاهدون في المناصب) على (سبع وعشرين) ترجمة في أخبار الزاهدين في المناصب.

فهل لدى المؤلف خطة معينة سار عليها في ذلك؟.

الجواب: تبيّن لي من خلال دراستي للكتاب أنه سار وفق خطة مرسومة، وقد انطلق من الأخبار التي تجمعت لديه مَن جمعهم وصف الزهد في المناصب.

وهذا يُعد من فنون التصنيف التاريخي، فقد ألف العلماء الأقدمون ومن بعدهم التآليف في صنف من العلماء وغيرهم، يجمعهم وصف علمي أو مكاني أو خِلقي أو غير ذلك.

أما فيمن جمعهم الوصف العلمي، فألفوا في طبقات المفسرين، والقراء، والمحدثين، والثقات، والمجروحين، والقضاة، والمفتين، والفقهاء، والأصوليين، والمؤرخين، والمتكلمين، والنحويين، واللغويين، والأدباء، والشعراء.. وسواهم، والكتب المؤلفة في هذا الوجه كثيرة لا تحصى.

وأما فيمن جمعهم وصف مكاني: فألفوا في تاريخ البلدان، وذكروا في تاريخ كل بلد من نشأ فيها أو انتقل إليها وتوطنها..

أو جمع أخبار من درسوا في مكان واحد، كمن جمع فيمن دَرَّس تحت قبة النسر بالجامع الأموي.

وأما فيمن جمعهم وصف خِلقي فألفوا في العميان، والعوران، والمعمَّرين وعقلاء المجانين، والأذكياء..

وكتاب (الزاهدون في المناصب) لا يخرج عن هذا النوع من التصنيف التاريخي وهو فن أصيل معروف عند مؤرخي الإسلام.

٢ ـ تنظيم التراجم حسب تسلسل سني الأحداث

رتب المؤلف أوائل من زهدوا في المناصب منذ السنة الثامنة للهجرة، عندما تنازل ثابت بن أقرم لخالد بن الوليد إلى عصرنا الحديث.

ولهذا الترتيب فوائد مهمة عند المؤرخين وعلماء التراجم.

٣ ـ الشهرة العلمية

اقتصر المؤلف على ذكر مشاهير الأعلام الذين زهدوا في مناصبهم ولم يذكر المغمورين والمجهولين.

٤ ـ الشمول النوعي

لم يقتصر المؤلف على نوع معين من الأعلام، بل تنوعت تراجمه فشملت أعلام الصحابة والتابعين وكبار علماء الأمة، والخلفاء والأمراء والقضاة والفقهاء والسياسيين.

٥ ـ الشمول المكاني

عَمِل الدكتور شوقي أبو خليل على أن يكون كتابه شاملاً لتراجم المشهورين من أنحاء العالم الإسلامي.

- فمن المغرب: أبو بكر زكريا بن عمر.
- ومن القيروان: أسد بن الفرات.
- ومن السودان: عبد الرحمن سوار الذهب.
- ومن الكوفة: الإمام أبو حنيفة.
- ومن البصرة: سوار بن عبد الله.
- ومن مصر: ابن دقيق العيد.

وجاءت الغالبية من المترجمين من الدماشقة فيهم: معاوية بن يزيد، العز بن عبد السلام، الإمام النووي، ابن طولون الدمشقي، الشيخ سعيد الحلبي، الشيخ محسن الأمين، شكري القوتلي.

٦ - طول التراجم وقصره

حاول المؤلف جاهداً أن يقدم ترجمة وافية ومختصرة في الوقت نفسه لا تؤثر فيها كمية المعلومات التي تتوافر لديه فتخرج عن خطته في الاختصار مع التركيز على صلب الموضوع وهو (الزهد في المناصب).

ولقد التزم هذا المنهج إلا في موضع واحد، عند ترجمته لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فجاءت ترجمته له مطولة استغرقت أزيد من عشر صفحات (من ص٧٣ إلى ٩٤) مع أن المؤلف اشترط في بداية الترجمة ألا يذكر سيرة حياته كاملة فقال: «ولست معنيّاً هنا بالحديث عن سيرته كلها، والترجمة الكاملة لحياته رضي الله عنه، إنني معنيٌّ بجانب واحد فقط من حياته، ألا وهو زهده بالخلافة التي وصلت إليه وهو رافض لها، فتورع عن مال الأمة، وترك لنا نموذجاً رائعاً للخليفة الواجد الزاهد، فما أقدمه في السطور الآتية مقتطفات من زهده وورعه فقط، ضمن محور الكتاب ومرماه».

ومِثل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من الصعب أن نختصر سيرته أو نوجز موقفه من الخلافة التي كان زاهداً فيها، وأقول كما قال الحافظ الذهبي لما شعر بترجمته لعمر بن عبد العزيز في كتابه (تاريخ الإسلام) قد طالت أنهاها بقوله: «ومناقبه طويلة اكتفينا بهذا».

٧. عناصر الترجمة:

تختلف المادة الموجودة في ترجمة ما عن الأخرى حسب طبيعة المترجم له، وقيمته العلمية أو مكانته السياسية، وعدد الموارد التي يعتمدها المؤلف ونوعيتها من جهة أخرى، وطبيعي أن نجد اختلافاً واضحاً في محتويات ترجمة الصحابي عن التابعي، أو الفقيه عن القائد السياسي..

والمنهج العام في ذكر أخبار الزاهدين في المناصب:

- اسم المترجم ونسبه ولقبه وكنيته.
- مولده.
- نشأته ودراسته.
- مكانته العلمية.
- وفاته.

فمرة يُقدم هذه العناصر في بداية كل ترجمة وهو الغالب، ومرة يؤخر هذه العناصر بعد أن يذكر الحدث التاريخي.

فمثلاً عند ترجمة أبي عبيدة بن الجراح، وتنازله لعمرو بن العاص في ذات السلاسل، فهو يسرد الحدث التاريخي، وبعدها يقول:

فمن عمرو بن العاص؟

ومن أبو عبيدة بن الجراح؟

وكذلك عند ترجمة شكري القوتلي، ذكر أحداث تنازله عن منصب الرئاسة، ثم قال: فمن شكري القوتلي الذي تنازل عن منصب رئاسة الجمهورية؟

وقد تتوافر هذه الأمور جميعها في الترجمة الواحدة كما هو في ترجمة العز بن عبد السلام، والإمام النووي وغيرهم.

وقد توجد طائفة منها كما هو في شريح بن الحارث، وسوار بن عبد الله، أو لا يتوافر منها إلا القليل حسب كمية المعلومات المتوافرة عنه، مثل ما جاء في ترجمة أبي عبيدة بن حذيفة - لم يذكر المؤلف في ترجمته شيئاً - وأحب أن أُنبِّه إلى وهم وقع في اسم المترجَم له في ص١٠١ (أبو عبيدة بن أبي حذيفة) والصواب كما ذكر أصحاب التراجم هو (أبو عبيدة بن حذيفة) وهو من رجال النسائي وابن ماجه، له ترجمة في:

- الجرح والتعديل، الترجمة ٩، ١٩٣٦، قال أبو حاتم: لا يسمى.

- تاريخ الثقات، للعجلي ص٥٠٤، قال عنه: كوفي تابعي ثقة.

- الثقات، لابن حبان، ٥/ ٥٩٥، قال عنه: «أبو عبيدة بن حذيفة يروي عن عدي بن حاتم، روى عنه محمد بن سيرين». وهو الذي يعزو إليه ابن قتيبة في (عيون الأخبار) - وهو مصدر المؤلف - خبر زهده في القضاء.

- تهذيب الكمال ٣٤/ ٥٤-٥٥

- تهذيب التهذيب ١٢/ ١٧٧

موارد الكتاب

موارد الكتاب متنوعة إلا أن معظمها له صلة بكتب التاريخ والتراجم، وقد أجاد المؤلف في النقل منها.

ولم يقتصر على المصادر التاريخية الأصيلة التي أُلفت في القرون المتقدمة، بل استفاد من الكتب التاريخية المعاصرة، ومن أبرزها (تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري) تأليف الدكتور محمد مطيع الحافظ والدكتور نزار أباظة.

أما أسلوبه في التعامل مع هذه المصادر فتظهر من خلال:

١- تفضيل المورد الأقدم.

٢- التخصص التأليفي.

٣- الدقة في النقل.

٤- المقارنة بين الروايات وترجيح الصحيح منها.

ميزات منهجه

من أكبر ميزات منهج المؤلف وأجلِّها استخلاصه العبرة من السير والأحداث التاريخية، فهذه العبرة أو الحكمة تُنمِّي مشاعر الاعتزاز بالقيم الأصيلة للإسلام؛ لأنها توقد في النفس مشاعل الوجدان، وتحضُّ على الفضيلة، والمجتمعات الإسلامية بالرغم مما أصاب ضميرها من غاشية، تظل وفية لقيمها المستمدة من العبر التي تركها لنا علماء الأمة الأفذاذ.

فليس التاريخ مجرد سير للرجال وسرد للأحداث، لكنه كذلك عبرة وحكمة، فالنظرة إلى التاريخ يجب أن تكون لاستشفاف ما وراء الأخبار التاريخية من المظاهر الحضارية.

ولقد سعى المؤلف إلى تقريب هذه الأحداث التاريخية وأخذ العبر منها.

وقد طبع هذا الكتاب بطابعه المتفرد، وأضفى عليه من فكره وأسلوبه

المشرق، وعباراته الدقيقة، وألفاظه الرشيقة، وكلماته العذبة المعبرة الدالة على المراد.

كما كانت شخصيته بارزة واضحة كل الوضوح خصوصاً في تعليقاته القيمة على الأحداث التاريخية، وذلك بكلمات موجزة تُغني عن صفحات.

هكذا يبدو لي منهجه في التعامل مع التاريخ وأخباره، وهكذا وضع للباحثين الأسس التي ينبغي أن يتسلحوا بها إذا ما أرادوا التعامل مع التاريخ، فلا مستقبل بلا ماض، وليس الماضي بمعزلٍ عن الحاضر والمستقبل.

رابعاً - ما نستخلصه من كتاب (الزاهدون في المناصب)

من إفادات غاليات وعظات بالغات

نستخلص من قراءتنا لهذا الكتاب النفيس عدة فوائد وعِبر، ندرك من خلالها: كيف كان إخلاص سلفنا الصالح ومن تبعهم في الزهد في المناصب، وعدم استجابتهم لإغراءاتها ومنافعها حتى كانوا القدوة الصالحة لمن بعدهم. وتظهر هذه العبر جليّة واضحة في دوافعهم في الزهد في المناصب، وقد جاءت مفرقة في تراجم الكتاب؛ لذلك رأيت أن أجمعها وأذكر تعليقات المؤلف عليها.

١ ـ الزهد في المنصب لأنه مسؤولية أمام الله والعباد

كثيرون عبر تاريخنا زهدوا بالمناصب ورعاً، وخافوا على أنفسهم ألّا يكونوا في مستوى المناصب التي أسندت إليهم، فكان إحساسهم بالمسؤولية إحساساً غامراً: تجاه الله إن لم يقوموا بحقه، وتجاه حقوق المسلمين أن تُضيع، وتجاه الدم المسلم أن يهدر، وتجاه الكرامة الإسلامية أن تداس أو تُمتهن.

ويقدم لنا الدكتور شوقي أبو خليل نماذج من هؤلاء الذين زهدوا بالمناصب لأنه أمانة ومسؤولية من ذلك:

ما جاء عن الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه:

لما صارت الخلافة إلى عمر رضي الله استعمله على البحرين، ثم رآه ليّن العريكة، مشغولاً بالعبادة، فعزله، ولما قدم من البحرين وقد اجتمعت له عشرة آلاف درهم، طبّق عمر رضي الله عنه مبدأ: (من أين لك هذا؟).

قال أبو هريرة: خيلي تناسلت، وعطائي تلاحق، وسهامي تتابعت فقبضتُها لله.

وبعد مدة؛ قال عمر رضي الله عنه: ألا تعمل؟

فقال أبو هريرة: لا. قال عمر رضي الله عنه: قد عمل من هو خير منك يوسف.

فقال أبو هريرة: يوسف نبي ابن نبي، وأنا ابن أميمة، أخشى ثلاثاً واثنين.

قال عمر رضي الله عنه: فهلاً قلت خمساً؟ قال:

- أخشى أن قول بلا علم.

- وأحكم بغير حكم.

- وأخشى أن يُضرب ظهري، ويُشتم عرضي، وينزع مالي.

وعلق المؤلف على قول عمر رضي الله عنه: «ألا تعمل»: وهذا يدل على استقامته وأمانته، وإلا ما طلب منه العودة إلى الإمارة.

ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

عاش ابن عمر في زمان ليس له فيه نظير، فهو أهل لمنصب الخلافة ولكن عمر رضي الله عنه، رأى منصب الخلافة مسؤولية ونَصَباً وحساباً، فرفض تولية ابنه عبد الله رضي الله عنهما، وقال: «بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد».

وهو الموقف نفسه الذي سلكه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، الذي تسلم قيادة الأمة دون أن يسعى إليها، فهو مثال لجلالة القدر والفضل، ووفور العلم والصلاح، وكان يقول للناس على جليل قدره وعلمه: «ألا لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حِملاً».

ولما مات ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز بالطاعون في حياة أبيه، قال له مسلمة: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو بقي، أكنت تعهد إليه؟ قال: لا، قال: لم وأنت تثني عليه هذا الثناء؟

قال: «لولا أني أخاف أن أكون قد زُيِّن في عيني من أمره ما زُيِّن في عين الوالد من الولد؛ لرأيت أنه أهل للخلافة».

علّق المؤلف على موقف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقال: «.. ولم يقل رضي الله عنه، لجعلته ولياً للعهد، قال: لرأيت أنه أهل للخلافة، فهو في رأيه ليس أهلاً لها، لأنه يراه بعين الوالد حيث الإعجاب، والرؤية الحسنة، وإغفال السيئة إن وجدت، فترشيحه للخلافة بيد الرعية، لا بيد الوالد الذي ينظر إلى ابنه بعين الرضا».

ومن ذلك أيضاً: ما ورد عن التابعي الجليل أبي عبيدة بن حذيفة.

قال تلميذه محمد بن سيرين: «كنا عند أبي عبيدة بن حذيفة في قُبّة له، وبين يديه كانون له فيه نار، فجاء رجل فجلس معه على فراشه، فسارَّه بشيء لاندري ما هو، فقال أبو عبيدة: ضع لي أصبعك في هذه النار، فقال له الرجل: سبحان الله! أتأمرني أن أضع لك أصبعي في هذه النار؟!.

فقال له أبو عبيدة: أتبخل علي بأصبع من أصابعك في نار الدنيا، وتسألني أن أضع لك جسدي كلَّه في نار جهنم؟

قال: فظننا أنه دعاه إلى القضاء».

٢ - الزهد في المنصب حرصاً على وحدة الكلمة

يذكر لنا الدكتور شوقي أبو خليل نماذج ممن زهدوا في مناصبهم حرصاً على وحدة الكلمة، منهم:

- ما جاء عن أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه:

وذلك حينما بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف المدينة المنورة، دعا ﷺ عمرو بن العاص، فعقد له لواءً أبيض، وجعل معه رايةً سوداء، وبعثه في ثلاث مئة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن يمرُّ به من بَلِيٍّ وعُذر وبَلقين، فسار الليل وكَمَنَ النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهين إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مئتين، وعقد له لواءً، وبعث معه سراة المهاجرين والأنصار، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلحق بعمرو. فأراد أبو عبيدة أن يؤمَّ الناس فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مدداً وأنا الأمير، فقال أبو عبيدة: لا، ولكني أنا على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه. وكان أبو عبيدة رجلاً سهلاً ليناً، هيِّنٌ عليه أمر الدنيا، فقال له عمرو: بل أنت مددٌ لي، فقال أبو عبيدة: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لي: «لا تختلفا» وإنك إن عصيتني أطعتك، فقال له عمرو: فإني أمير عليك، قال أبو عبيد: فدونك...

قال الدكتور شوقي أبو خليل معلّقاً على موقف أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: «لقد حرص على وحدة الكلمة، فهانت عليه الإمارة مع مكانته التي لا تقارن بمكانة عمرو، الذي أسلم قبيل فتح مكة المكرمة، ومع أننا لا ننكر عليه دهاءه وحزمه وإمرته، نقول: لكنه دون مقام أبي عبيدة يقيناً».

وممن زهد في منصب الخلافة - وهو أعلى منصب في الدولة - الحسنُ بن

علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وذلك حرصاً على وحدة كلمة المسلمين، وحقناً للدماء.

لقد هال الحسنَ أن يقتتل المسلمون، ولم يستشعر الثقة بمن معه، فكتب إلى معاوية يشترط شروطاً للصلح، ورضي معاوية فخلع الحسنُ نفسَه من الخلافة، وسلم الأمر لمعاوية في بيت المقدس سنة ٤١هـ، وسمي هذا العام: عام الجماعة؛ لاجتماع كلمة المسلمين فيه.

يقول الدكتور شوقي أبو خليل مستخلصاً العبرة من هذا الحدث التاريخي: «لقد حقن رضي الله عنه دماء المسلمين التي كانت تسيل في سخاء وغزارة، بعد وضع حربي شائك تفتقده الثقة.

لقد تنازل رضي الله عنه عن المنصب الرفيع - خلافة المسلمين - مُنهياً العصر الراشدي لأنه من أبصر الناس بنفسيَّة جيش مضطرب هائج مائج، متهيئ للثورة والغدر والتراجع بأقل سبب، وهو العليم بهذا الجيش المدعي نصرته ونصرة أبيه من قبل».

ويقدم لنا الدكتور شوقي أبو خليل نموذجاً آخر لشخصية معاصرة إنه الشيخ العلامة محسن بن عبد الكريم بن علي بن محمد الأمين الحسيني العاملي الدمشقي. قال له الجنرال غورو - وهو الذي كان يقصد أن يفرق بين الشيعة والسنة-: «أنتم الشيعة في سورية مظلومون، حقوقكم مهضومة، مغبون شأنكم، فالمفتي العام للبلاد الشيخ عطا الكسم من أهل السنة، وليس لكم مفتٍ خاص بكم، إني أقترح باسم الحكومة الفرنسية أن تكون سماحتك المفتي الأكبر للمسلمين في سورية إن شئت، أو مفتي الشيعة على الأقل، أو من ترتضيه من تلاميذك، فيكون للمسلمين مفتيان: واحد للسنة، وآخر للشيعة».

فأجابه: «أيها الجنرال.. إن مثل هذا الكلام يخاطَب به غيري، تزعزع به عقيدته بدينه، وتشتريه أنت وأمثالك به، لتوقعوا العدواة والبغضاء، وتثيروا التفرقة في صفوف المسلمين وهم أمة واحدة، فتعيدوها جاهلية جهلاء، اسمع وبلِّغ من وراءك، نحن المسلمين أمة واحدة، إلهنا واحد، ونبينا واحد، وكتابنا واحد، وكعبتنا واحدة، ليس عندنا فرق، إنما هي ألفاظ جوفاء، اخترعها أعداء الإسلام أمثالكم في غفلة من الأمة؛ ليكيدوا للمسلمين، وخسِئوا، إن مفتي المسلمين جميعاً أخي العلامة الشيخ عطا الكسم، وهو مفتينا وإمامنا، فأرغب إليك أن تكفَّ عن هذا، وتوفر القول فيه، ولا تعد إليه معي، ولا مع غيري، وإلا فإننا يد واحدة عليكم».

وجاء تعليق الدكتور شوقي أبو خليل على موقف الشيخ محسن الأمين في غاية الجودة فقال:

«ويعود الفضل لوحدة كلمة المسلمين في سورية حتى اليوم بين السنة والشيعة إلى موقف سماحة الشيخ محسن الأمين، وعزوفه عن المنصب، فوحدة صف المسلمين هي الأساس، هي أولاً وآخراً، وهي الحقيقة عند المؤمن الحق بإسلامه.

تغمد الله سماحة الشيخ محسن الأمين بواسع رحمته، وجعل روحه الطاهرة في فسيح جنَّته مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

فعزوفه عن المنصب دليل قاطع على صدق إسلامه، وعمق إيمانه، وبهما حقق وحدة المسلمين كافة على اختلاف مذاهبهم في وجه المستعمر».

٣ ـ الزهد في منصب الرئاسة لمن هو اكفا واصلح

يذكر لنا الدكتور شوقي أبو خليل أربعة نماذج ممن زهدوا في منصب الرئاسة أو الحكم لمن هو أصلح منهم.

١- تنازل معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان عن الخلافة سنة ٦٤هـ، فقد بويع لمعاوية (الثاني) بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بالخلافة في حياة أبيه أن يكون ولي العهد من بعده، وكان رجلاً صالحاً ناسكاً، ولم تطل مدته، نادى في الناس ذات يوم: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فقال لهم: «يا أيها الناس! إني قد وليت أمركم وأنا ضعيف عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر، فلم أجد، وابتغيت تركها شورى في ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك، فأنتم أولى بأمركم، فولوا عليكم من يصلح لكم».

علّق المؤلف على هذا الموقف قائلاً:

«لقد كان معاوية زاهداً بالمنصب، وأراد أن يعيدها (شورى) كما تركها رسول الله ﷺ، وكما كانت أيام الراشدين رضوان الله تعالى عليهم، وأن ينتهي الملك العَضوض (الوراثي)، ويلي أمور الأمة الأصلح، العدل المؤهل لقيادتها».

٢- وهذا أبو بكر زكريا بن عمر يتنازل ليوسف بن تاشفين أمير المرابطين سنة ٤٦٥هـ.

ففي عام ٤٥١هـ استشهد عبد الله بن ياسين، فقبض أبو بكر زكريا بن عمر زمام الحكم دون شريك، ولم يكن من قبل سوى قائد للإمام، وبينما كان أبو بكر مشغولاً بتخطيط عاصمته الجديدة (مراكش) عام ٤٥٤هـ نشبت حرب أهلية بين قبيلتي كدالة ولمتونة، فهرع إلى الصحراء لكي يحول بتدخله دون أن تبطش إحدى القبيلتين بالأخرى، ولما تعذر إقناع القادة من الفريقين بعقد الصلح، بادر الأمير إلى نجدة لمتونة في خيرة جنده، واستخلف ابن عمه يوسف ابن تاشفين بن إبراهيم - من قبيلة صنهاجة - على العاصمة الجديدة، وأمره أن يتم تخطيطها وبناءها.

وعاد أبو بكر سنة ٤٦٥هـ، فتلقاه يوسف بن تاشفين بالهدايا الثمينة، فعرف أبو بكر أن الأمور قد استقرت ليوسف، فلم يطمع في الملك لنفسه، وتنازل ليوسف عن ولاية المغرب طواعية وقال له: «أنت أخي وابن عمي، ولم أرَ من يقوم بأمر المغرب غيرك، ولا أحق به منك، وأنا لا غناء لي عن الصحراء، وما جئت إلا لأسلم الأمر إليك، وأهنُئك في بلادك، وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا، ومحل سلطاننا».

ثم ذكر الدكتور شوقي أبو خليل نموذجين من تاريخنا المعاصر هما:

٣- شُكري القوتلي الذي تنازل عن منصب رئاسة الجمهورية، وهو قرير العين، راضي النفس، غير آبه بالمنصب العظيم.

يقول المؤلف: «في اليوم الأول من شهر شباط (فبراير) عام ١٩٥٨م، توجه الرئيس السوري شكري القوتلي من دمشق إلى العاصمة المصرية (القاهرة)، يرافقه أعضاء حكومته، وبعد جلسة تاريخية غايتها التداول في الإجراءات النهائية لتحقيق إرادة الشعب العربي، صدر بيان أعلن قيام الجمورية العربية المتحدة في ١٢ رجب سنة ١٣٧٧هـ الموافق أول شباط (فبراير) ١٩٥٨م.

وفي ٥ شباط (فبراير) ١٩٥٨م عقد مجلس النواب السوري جلسة خاصة لإقرار مشروع الوحدة، ألقى فيها الرئيس شكري القوتلي خطاباً، قدم فيه المبادئ التي تم الاتفاق عليها لتكون أساساً في بناء الجمهورية العربية المتحدة، وختم كلمته قائلاً:

«إنني إذ أُسلِّم هذه الأمانة الغالية، طيب النفس، قرير العين، واثقاً مطمئناً، أرشح لرئاسة الجمهورية العربية المتحدة، أمام مجلسكم الكريم في هذه الجلسة القومية التاريخية يوم الواحد والعشرين من شباط عام ١٩٥٨م أول من

يقوم بواجبه كمواطن لانتخاب الرئيس القائد الذي وضع ثورة مصر في خدمة القومية العربية، كما وضع نفسه في خدمة أمته، ليعمل في سبيل حريتها ومجدها ورخائها».

ثم قال الدكتور شوقي أبو خليل: «ووافق مجلس النواب السوري على قيام الوحدة، مشيداً بالمثل الرائع الذي ضربه الرئيس شكري القوتلي بصدق جهاده، وعميق إيمانه، وعظيم إيثاره».

٤- وممن زهد في منصب الرئاسة بعد عام واحد، سوار الذهب، الذي قام بانقلاب سنة ١٩٨٥م على جعفر محمد النميري الذي تولى رئاسة الجمهورية في السودان سنة ١٩٧١م. ووعد في أول خطاب له أن يتنازل عن الحكم بعد عام واحد، ويعيده حكماً مدنياً ديمقراطياً وبرّ بوعده عام ١٩٨٦م.

٤ - الزهد في المنصب لا للراحة بل لمصلحة عامة او عمل اسمى

من ذلك تنازل الصحابي الجليل ثابت بن أقرم لخالد بن الوليد، فبعد استشهاد أبطال مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة - وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة - أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال الناس: أنت. فهم يعلمون أنه أهل للإمارة والقيادة، فقال: ما أنا بفاعل ودفع الراية إلى خالد بن الوليد، وقال: أنت أعلم بالقتال مني. فقال له خالد: أنت أحق بها مني؛ لأنك ممن شهد بدراً. فنادى ثابت حسماً للموقف: يا معشر المسلمين. فاجتمع الناس على خالد بن الوليد رضي الله عنه، وسلموه الراية فأخذها.

يعلق الدكتور شوقي أبو خليل على هذا الموقف قائلاً:

«إن تنازل ثابت بن أقرم خلُق رفيع عظيم، أن يتنازل العالم إلى الأعلم، والحسن إلى الأحسن، والجيد إلى الأجود.

والتنازل هنا عن منصب القيادة للجيش لتحقيق مصلحة عامة هي فوق المآرب الشخصية، وأسمى من حظ النفس وحبها الإمارة، وهذا لا يكون إلا من رجال تعمق الإيمان في نفوسهم، وسكن الإسلام الصحيح في قلوبهم».

ومنهم من زهد في المنصب للتفرغ لنشر العلم، ويذكر لنا المؤلف نموذجَين من كبار العلماء، وهما:

١- **الإمام أبو حنيفة**: فحينما تم لأبي جعفر المنصور العباسي بناء بغداد، واستقدم إليها أبا حنيفة وعرض عليه القضاء، رفض أبو حنيفة معتذراً بأنه لا يصلح للقضاء لأسباب بيَّنها، فحلف عليه المنصور ليفعلنَّ، فحلف أبو حنيفة ألّا يفعل، فحلف المنصور ليفعلن، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، فقال الربيع الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟! فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني. وأبى أن يلي القضاء، فأمر به إلى الحبس، ثم دعا به يوماً فقال: أترغب عما نحن فيه؟ قال: أصلح الله أمير المؤمنين، لا أصلح للقضاء. فقال المنصور له: كذبت. فقال أبو حنيفة: قد حكم عليّ أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء؛ لأنه ينسبني إلى الكذب، فإن كنت كاذباً فلا أصلح، وإن كنت صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح فردَّه إلى الحبس.

يعلق الدكتور شوقي أبو خليل على موقف الإمام أبي حنيفة:

«رحم الله أبا حنيفة الذي آثر التدريس والإفتاء على أن يلي القضاء، ورأى في التعليم والتدريس خيراً يعلو فوق منصب القضاء الذي قد يؤديه غيره..».

٢- **ابن طولون الدمشقي**: اعتذر هذا العالم الكبير عن وظيفة القضاء حينما عُرضت عليه، مثلما رفض قضاء الصالحية مراراً، كما اعتذر أيضاً عن الخطابة في الجامعة الأموي عام ٩٤٦هـ بعد موت خطيبه الشيخ جلال الدين

محمد بن علي المصري، ورفض وظيفة إفتاء المذهب الحنفي حين وفاة قاضي الحنفية قطب الدين محمد ابن سلطان، على الرغم من سعاية جماعة من الشيوخ الكبار سنة ٩٥٠هـ، وعلى الرغم من الإغراءات المالية، واكتفى بنشر العلم، فخرَّج عدداً كبيراً من الطلاب حازوا مراتب علمية ومناصب رفيعة، فكان يبتهج بهم، وترجم لهم في كتابه (ذخائر القصر بتراجم نبلاء العصر» وترك أكثر من ٧٥٠ مؤلفاً منها الرسالة الصغيرة، وبعضها المجلدات الكبار في الحديث والفقه والنحو، والطب والفلك والمساحة والجبر والمقابلة، والحساب والنقود وحساب الدرهم والدينار.

وجاء في تعليق الدكتور شوقي أبو خليل على هذا الموقف النبيل من ابن طولون الدمشقي: «لقد زهد ابن طولون بالمناصب، وهيأ طلابه لها بجدارة، وبقي مثابراً على التأليف والدراسة والتدريس حتى آخر عمره بعيداً عن المناصب والإغراءات المالية، فربَّى جيلاً من العلماء افتخروا بالتلمذة على يديه، فخُلِّد رضي الله عنه وأرضاه».

٥ ـ الزهد في المنصب لأجل الجهاد في سبيل الله

يقدم لنا الدكتور شوقي أبو خليل ثلاثة نماذج ممن زهدوا في مناصبهم لأجل الجهاد في سبيل الله، وهم:

١- **الصحابي الجليل أبان بن سعيد بن العاص الأموي**: استعمله رسول الله ﷺ على البحرين سنة ٦هـ، لما عزل عنها العلاء بن الحضرمي، فلم يزل عليها إلى أن توفي رسول الله ﷺ فرجع إلى المدينة المنورة، فلامه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال أبان: «آليت ألاَّ أكون عاملاً لأحد بعد رسول الله ﷺ».

يقول الدكتور شوقي أبو خليل: «لقد زهد أبان بالمنصب لا للراحة، أو هروباً من العمل أو المسؤولية، بل ليلتحق بجيش من جيوش المجاهدين، فسار إلى الشام لجهاد الروم».

٢- النعمان بن مُقَرّن المُزني: كان عاملاً على كَسْكَر لجباية الخراج (وزير المالية) من قبل سعد بن أبي وقاص، فما ارتضى هذا العمل لحبه الجهاد، فكتب إلى عمر:

«مثلي ومثل كَسْكَر كمثل رجل شاب وإلى جانبه مومسة تَلوَّن له وتعطَّر، فأنشدك الله لما عزلتني عن كَسْكَر، وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين».

يقول الدكتور شوقي أبو خليل: «خُلِّد النعمان حينما زهد بالخراج (بالجباية) وسار مختاراً إلى ساح الجهاد يطلب الشهادة، وليكون أول شهيد حين اللِّقاء».

٣- أسد بن الفرات: عرف الوزير علي بن حميد قدر ابن الفرات، فأشار على الأمير زيادة الله الأغلبي أن يوليه منصب القضاء.

وفي عام ٢١٢هـ، وجد ابن الفرات في نفسه رغبة تسيطر عليه، يتقرب بها إلى الله لإعزاز دينه، وجهاد أعدائه، فرفض الأمير الأغلبي، ولكنه ألح في التماس تحقيق رغبته، وكان يقول - وقد تجاوز السبعين من عمره -: «وجدوني رخيصاً فلم يقبلوني، وقد أصابوا من يُجري لهم مراكبهم من النُّوتيَّة (البحَّارة)، فما أحوجها إلى من يجريها لهم بالكتاب والسنة». إنه يريد أن الحرب ليست أمراً مادِّياً فحسب، بل أمراً روحياً أيضاً، يشدُّ العزائم، ويثير النفوس ويشوقها إلى الجهاد.

يقول الدكتور شوقي أبو خليل: «ويستجيب الأمير زيادة الله الأغلبي له، ويوليه قيادة أسطول لفتح صقلية، لكن ابن الفرات ما أراد الإمارة، لقد زهد بها، وأراد الجهاد جُندياً عادياً، فقال لزيادة الله: «أصلح الله الأمير! من بعد القضاء والنظر في حلال الله تعالى وحرامه، تعزلني وتوليني الإمارة؟!».

لقد رأى ابن الفرات القضاء فوق الإمارة، وأسمى منها مرتبة، فزهد بها

فقال زيادة الله: «إني لم أعزلك عن القضاء، بل وليتك الإمارة وأبقيت لك اسم القضاء، فأنت قاض أمير».

وانطلق ابن الفرات من ميناء سوسة بتسع مئة فارس، وعشرة آلاف راجل غير النُوتيّة، ووصلت الحملة بعد مسير خمسة أيام إلى صقلية، وعند أسوار سرقوسة (سيراكوزا) اشتد القتال وجرح ابن الفرات، ولقي وجه ربه شهيداً متأثراً بجراحه، ودفن بمدينة قصريانة، وتم فتح صقلية بعد سنوات من الجهاد.

رحم الله أسد بن الفرات الذي زهد في منصب الإمارة، ورأى النظر في حلال الله وحرامه فوق الإمارة وأسمى منها وأعلى رتبة.

٦ - من تسلم للنصب بشروطه وكان زاهداً به في كل لحظة

عرض لنا الدكتور شوقي أبو خليل نماذج ممن قبلوا المناصب، ولكنهم كانوا زاهدين فيها في كل لحظة، فلم يخشوا العزل بسبب قولة حق أو موقف عدل. ومنهم من كان لا يتملق للخلفاء ولو فقد منصبه.

أ- من لم يخشوا العزل من مناصبهم لقولة حق أو موقف عدل: - **الإمام النووي - رحمه الله تعالى** - الذي تولى مشيخة دار الحديث بدمشق، الذي يمثل مشيخة الإسلام، وكان لشيخ دار الحديث راتب كبير، فما أخذ الإمام النووي قرشاً، بل جمع رواتبه عند ناظر المدرسة، واشترى بها ملكاً أوقفه على دار الحديث، واشترى بها كتباً ووقفها على خزانة دار الحديث.

وحينما جاء الظاهر بيبرس إلى دمشق بعد انتصار عين جالوت وإجلاء التتار عن بلاد الشام، زعم له وكيل بيت المال أن كثيراً من بساتين الشام من أملاك الدولة، فأمر بيبرس (الحوطة عليها)، أي: بحجزها، وتكليف واضعي اليد على شيء منها إثبات ملكيته، وإبراز وثائقه، فلجؤوا إلى الإمام النووي في دار الحديث، فكتب إلى بيبرس كتاباً يعظه فيه، فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه.

ولما رأى الإمام النووي أن الكتاب لم يفد، وأن هذا اللين منه لم يأت بنفع مشى إليه بنفسه، وقابله وكلمه كلاماً غليظاً، وأبطل بيبرس الأمر بـ(الحوطة).

وما أجمل ما علق عليه الدكتور شوقي أبو خليل بعد ذكره هذا الموقف الشجاع من الإمام النووي - رحمه الله تعالى - فقال:

«لقد كان الإمام النووي زاهداً عملياً، بلا رهبنة وزوايا واعتزال، فهو مرجع الناس في الخطوب، ولم يكن للسلاطين، ولم يتذلّل لهم، ومع ذلك لم يكن يغلظ عليهم، ولا يشتد معهم كي لا ينفروا منه، فلم يسكت عن قوله الحق، ويعرف كيف يخاطبهم.. وقضية الحوطة على بساتين الشام، وقضية الفرض على الناس ضريبة جديدة تمكّن من إلغائها.. دون خشية على منصبه في دار الحديث».

ومنهم:

- **سلطان العلماء العز بن عبد السلام - رحمه الله تعالى -**: تولى العزُّ منصب الفتوى، ومنصب القضاء، ومنصب الإمامة لأهليته وقدرته، وكان خطيب المسجد الأموي بدمشق، ثم خطيب جامع عمرو بن العاص بالقاهرة، ومنصب رئاسة القضاء (قاضي القضاة).

عُرف العز بصلابته في الحق، حتى طال في نهيه الوزراء والسلاطين، فأنكر على السلطان الأشرف تساهله مع وزرائه وحكامه الذين يرتكبون الآثام، ويجورون على الرعية بفرض ضرائب متنوعة، وإباحته لبيع الخمور في بعض المحلات، وأنكر نحو هذا الإنكار على الصالح نجم الدين سلطان مصر، فكان رحمه الله يقول الحق ولم يخشَ من العزل في مناصبه.

ومنهم:

- تلميذ العز بن عبد السلام، وزميل الإمام النووي، **إنه الإمام ابن دقيق العيد.**

وقد لخص لنا الدكتور شوقي أبو خليل شخصية هذا الإمام في كلمات مركزة فقال:

«جرأته في الحق أدهشت، وصدق مواقفه أبهرت، وخشيته في فتاويه أصلحت، مهابته وجلال قدره وعزوفه عن المناصب المرموقة، أضاف إلى عظمته الروحية، ومنزلته الاجتماعية ما أكمل عظمته».

لقد رفض منصب قاضي القضاة على جلال المنصب الخطير وشرفه، وقد طلب هذا المنصب كثيرون، ورنت عيون كثيرين إليه، ومع الإلحاح المتزايد اضطر ابن دقيق العيد إلى قبول المنصب، شريطة فصل السلطتين التنفيذية عن القضائية، فكلمة القضاء هي العليا دون تدخل من السلطة التنفيذية.

يقول الدكتور شوقي أبو خليل: «لقد كان ابن دقيق العيد أكبر من المنصب، فهان عليه التخلي عنه لإحقاق الحق، فخلد».

ب- من كان لا يتملق للخلفاء ولو فقد منصبه: منهم: **سَوَّار بن عبد الله ابن قدامة العنبري البصري:** كتب له أبو جعفر المنصور: انظر الأرض التي يخاصم فيها فلان القائد فلاناً التاجر، فادفعها إلى فلان القائد. فكتب إليه سوار: إن البيّنة قد قامت عندي أنها لفلان التاجر، فلست أخرجها من يديه إلا ببينة. فكتب إليه المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنَّها إلى فلان القائد. فكتب إليه سوار: والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يدي فلان التاجر إلا بالحق!.

وشُكي سوار بن عبد الله إلى أبي جعفر المنصور، وأثني عليه عنده شرّاً، فاستقدمه من البصرة، فلما أن قدم دخل عليه، فعطس المنصور، فلم يشمّته

سوار. فقال: ما يمنعك من التشميت؟ قال: لأنك لم تحمد الله. فقال المنصور: قد حمدت في نفسي. قال سوار: فقد شمّتك في نفسي، فقال المنصور: ارجع إلى عملك، فإنك إذا لم تحابِني لم تحابِ غيري.

علق الدكتور شوقي أبو خليل على هذين الموقفين قائلاً:

«لقد كان سوار بن عبد الله في الموقفين أكبر من المنصب، ففي الموقف الأول والثاني كان عرضة للعزل، فرأى أن الحق أولى، ويكفّر أبو جعفر المنصور عن يمينه، ولم يحاب أمير المؤمنين المنصور في الثانية؛ لأنه يرى نفسه في موقف شرعي هو الأولى أيضاً، فلا تملق ولو فقد المنصب. فرفعه زهده بالمنصب وخُلِّد».

وختاماً..

لقد صنع الزاهدون في المناصب بتقواهم العميقة تجردهم العظيم، فكيف صنعوا تقواهم؟ بأي وقود نقيّ أشعلوا فتيلة الروح فمنحوا تجربتهم الذاتية الضوء الذي تجاوزوا به مواقع الظلمات؟

إنه التعبد الخالص الدائم العميق الذي أراده الله سبحانه أن يكون طريق التقوى وروحها في الوقت نفسه.. ولن يكون ذلك إلا بأن يمارس في إطار من الذكر الذي يحقق التواصل مع حقيقة الألوهية والتجاوب مع حركة الكون والموجودات.

لكنه ليس ذلك التعبد السالب الذي يدفعهم إلى الفرار من المسؤولية، بل ذلك الذي يضعهم في قلب المسؤولية، وهم أعمق وعياً، وأشد خشية..

هذا هو المنطوق الذي علمنا إياه الإسلام، والذي يجعل التعبد ممارسة إيجابية تضرب في أعماق الناس فتغير نفوسهم، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ سيرته.

لقد أدرك الزاهدون في المناصب حقيقة الحياة الدنيا، فلم يستجيبوا لإغراءات المناصب ومنافعها؛ لأنهم تفوقوا بتقواهم على هذه الإغراءات وكانت لهم همة عالية يتيهون بها على أهل الأرض.

وأخيراً أقدم شكري وعظيم تقديري للقائمين على هذا العمل الجليل، وأسأل الله عز وجل أن يشكر للمؤلّف صنيعه، وأن يطيل عمره المبارك، وأن يتم عليه نعمته بدوام العافية.

إشراقاتُ الحضارة العربيّة الإسلاميّة

في باصرة الدّكتور شوقي أبو خليل

الأستاذ الدكتور عيسى علي العاكوب

تُبرز قائمةُ مؤلّفات الدكتور شوقي أبو خليل باحثاً فعالاً في ميدان الثقافة العربية الإسلامية في الوقت الرّاهن. والمستيقَنُ أنّ المرحلة التي قدّم فيها الدكتور أبو خليل مؤلّفاته لا تمثّل - على الحقيقة - لحظات ازدهار في عمر الثقافة العربية الإسلاميّة، على الجملة، بل يمكن القولُ بحَيْدة تامة: إنّ جمهرة المؤمنين بعبقرية هذه الأمّة وتميّزها كانوا في موقف الدّفاع، فحسب. فقد قويت جبهةُ المهاجمين، وتعدّدت انتماءاتُهم، وتنوّعت أسلحتهم، وأعلنوا مقاصِدَهم ومراميهم.

وليس غريباً في هذا السياق التاريخي لحال الثقافة العربية الإسلاميّة أن يقف أبو خليل في جبهة المنافحين الأشدّاء في معركة الدّفاع عن قِيَم الأمّة. ويجد الرّجلُ في تخصّصه في التاريخ مجالاً رحْباً لإبراز الحقيقة، والانتصار لها، والدعوة إليها. وفي كلّ ما قدّم د. أبو خليل من مؤلّفاتٍ ومقالاتٍ ومحاضرات كان لسانُ حاله يردّدُ:

أولئك آبائي، فجئني بمثلِهِمْ   إذا جمعتنا، يا جريرُ، المجامعُ

ليس لأنّ الماضي هو وحدَه ما ينبغي أن نقف عنده، دون أن نتجاوزه إلى الحاضر والمستقبل، بل لتأكيد أنّ حضارة الإسلام العظيمة أثمرت خيرَ الجنى وأسماه وأروعه.

والدعوةُ المفهومةُ هنا دعوةٌ إلى سياقٍ حضاريّ إيمانيّ علميّ عمليّ، ينبتُ رجالاً كأولئك الذين أنبتتهم تربةُ الإسلام إبّان ازدهار المسلمين وقوّتهم.

ويفهم متأمّلُ آثار الدكتور أبو خليل أنّه مشدودٌ إلى هذه الكينونة الحضارية التي أنبتت هذا النبات الحسَن، وإلى تأكيد أنّ البناءَ على أسسها قمينٌ بإعادة النّماء والقوّة إلى أمّة العرب المسلمين.

ولم تقف جهود الدكتور أبو خليل عند إبراز هذا السّياق الحضاريّ المتميز، بل انشغل كثيراً بالرّدّ على من ينالون منه ويدلّسون عليه، ويتغاضون عن إنجازاته. وكأنّه يردّدُ مقولةَ الشاعر العربيّ الكبير عمر أبو ريشة:

أنا من أمّةٍ أفاقتْ على المجْـ ـدِ، وأمستْ مغموسةً في الهوانِ

عرشُها الرّثُّ من جِراب المغيريـ ـنَ، وأعلامُها من الأكفان

وليس من شأني هنا أن أعرض لقيمة الإنجاز الذي حقّقه الدكتور أبو خليل في كلّيّته، بل سأقصُرُ الحديث في المتّسع المتاح هنا على واحدٍ من آثاره الكثيرة، وهو كتابُه الذي يحمل العنوان: (الحضارةُ العربية الإسلاميّة) وموجز عن الحضارات السابقة.

فقد أتيح لي أن أدرّس بعض مباحث هذا الكتاب لطّلاب قسم اللغة العربية في بلدة الزنتان في الجماهيرية الليبيّة في مطلع التسعينيات من القرن المنصرم، عندما كنتُ مُعاراً إلى ما عُرف بعدُ بـ(جامعة الجبل الغربيّ) في ليبيا، والكتابُ الذي درّستُ بعضاً من مباحثه آنئذٍ جزءٌ فقط من الكتاب الذي صدر في صورته الكاملة عن دار الفكر في دمشق عام ١٩٩٤م.

والحقّ أنّ الكتاب - خاصّةً في الصورة التي ظهر عليها أخيراً - على قدرٍ كبير من القيمة؛ لأسباب كثيرة، أكتفي هنا بالإشارة إلى واحدٍ منها، إخاله أساسيّاً فيمن يتصدّى للحديث عن الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

وما أعنيه هنا أن الدكتور أبو خليل انبرى للكتابة عن حضارة أمّته العظيمة من موقع الأهليّة العلمية والشعوريّة. وتعني الأهليّةُ العلميّةُ عندي الإلمامَ التّامّ بعناصر المادّة العلمية بالتقاطها من مظانّها البعيدة، وبلورتها في صياغات قادرة على تقديمها التّقديم العلمي المنشود. وقد أثبت الدكتور أبو خليل في هذه الوجهة براعةً واضحة المعالم أهّلته لأن يجمع بين المادّة العربيّة الإسلاميّة الأصيلة، التي تثبتُ قائمة مصادره فيها خبرةً واسعة وعمقاً يُغبط عليهما، وبين المادّة الغربيّة الحديثة التي تتكئ في كثير من الأحيان على معطيات علمية رصينة. ويتراءى لي أنّ الدكتور أبو خليل يحسن قراءة المتون المكتوبة بالإنكليزية، وربما الفرنسية، وقد عوّل عليها في مواضع من كتابه.

أمّا ما أسميتُه (الأهليّة الشعورية)، فأعني به: قوّة الانتماء الذي يبديه المؤلف نحو أمّته. وإخال أنّ هذا العنصر من أبرز العناصر التي ينبغي أن يتحلّى بها من يهيّئ نفسه للكتابة في شأن من شؤون الثقافة العربية الإسلامية. وأستطيع أن أصف من يمتلك الملَكتَيْن المشار إليهما بـ (العارف المحبّ).

وقد عبّر المفكّر والشاعر الإسلاميّ الكبير محمد إقبال (ت١٩٣٨م) في قصيدتَيه الرّائعتين المترجمتين إلى العربية (شكوى وجواب الشكوى) عن حاجة الأمّة إلى هذا الصنف من المفكّرين العشّاق، وبيّن أنّ غيابهم عن السّاحة من أسباب تخلف المسلمين:

أرى التفكير أدركه خمولٌ ولم تبقَ العزائمُ في اشتعال
وأصبحَ وعظُكمْ من غير سِحرٍ ولا نور يطلُّ من المقالِ

وعـنـد الـنّـاسِ فـلـسـفـةٌ وفِـكْـرٌ ولـكـنْ أيـن تـلـقـينُ (الـغـزالي)
وجـلـجـلـةُ الأذانِ بـكـلّ أرضٍ ولـكـنْ أيـن صـوتٌ مـن بـلالِ
مـنـائـرُكـمْ عـلـتْ في كـلّ حـيٍّ ومـسـجـدُكـمْ مـنَ الـعُـبّـادِ خـالي

وأقول باطمئنانٍ تامّ: إنّ الدكتور أبو خليل كتب في الحضارة العربيّة الإسلامية بهذا المزاج الذي يجمع بين سعة المعرفة وحرارة العشق لهذا الصّنيع الذي يقدّمه لأبناء أمّته. وإخاله عبّر تماماً عن روح الإسلام الحضاريّ والعلميّ حين استشهد في أوّل كلام قاله في المقدّمة بالكريمتين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٠].

ولعلّ أظهر خصيصةٍ للحضارة العربية الإسلاميّة أنها أُسّست على مبدأ تكريم الله تعالى بني آدم؛ أي: تكريم الإنسان الحامل للأمانة، أياً كان هذا الإنسان. ومن هنا أشرقت شمسُ الإسلام إلى أرجاء البسيطة تحمل لخَلْق الله جميعاً النّورَ والهداية والصلاح. وقد جعل ذلك كلّه علَماً كبيراً كمحمّد إقبال ينشد:

أنـا أعـجـميّ الـدّنّ لـكـنْ خـمرتي صـنْـعُ الحـجـاز وكَـرْمـهـا الـفـيـنان
إن كـان لي نـغـمُ الهـنـودِ ولحـنُـهـم لـكـنّ هـذا الـصـوتَ من عـدنـانِ

ويأنس المتأمّلُ الرّوحَ الحضاريّ الإسلاميّ الذي صدر عنه الدكتور أبو خليل حين يجده يُثني في السّطر الثاني من مقدّمة كتابه على نبيّ هذه الأمة، محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام القائل: «وُزِن حِبْرُ العلماءِ بدَم الشهداء، فرجح عليه». ويُفهم من ذلك أنّ الرجل يرى - من وجهة نظر إسلاميّة جديرة بالاحترام - أنّ التأليف في نُصرة الحقيقة التي جاء بها الإسلامُ العظيم ضربٌ

من البذْل يفوق الجهاد في ميدان القتال. ولعلّك لا ترى الدكتور أبو خليل يُغفِل هذا التصوّر. ولسنا نغادر الحقيقة حين نزعم أنّ الأمّة ظلّت بخير ما بقيت تأخذ بهذا المبدأ، وتجعل كلّ جهد فكريّ وعمليّ إنّما يقدَّم لله وحده سبحانه.

ويقدّم الدكتور أبو خليل أكثر من تعريف للحضارة يستمدّها من مصادر عربية وغربيّة، وينتهي به المطافُ إلى تعريف بدا له أكثر دقّةً وشمولاً، وذلك حين يقول: «إن الحضارة هي محاولاتُ الإنسان الاستكشافَ والاختراع والتفكير والتنظيم والعمل على استغلال الطبيعة؛ للوصول إلى مستوى حياة أفضل، وهي حصيلة جهود الأمم كلّها» (الحضارة العربية الإسلامية ص٢٠).

ويلاحظ المتأمّل هنا أنّ الدكتور أبو خليل يسلّم بالرأي الذي يقول: إنّ مواجهة الظروف القاهرة في بيئة معيّنة تساعد على ظهور حضارة متقدّمة إلى حدّ ما. والحقّ أنّ مثل هذا التصوّر يحظى بكثير من أسباب الصحّة. وثمّة أشياءُ أُخَر كان ينبغي أن تعطى اهتماماً خاصّاً، كقضية الوَحْي الذي أتى به الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام، وهو ضربٌ من المعرفة الإلهية يبيّن للناس الكيفية التي ينبغي أن يتعاملوا بها مع أشياء الوجود، كما يبين كتابٌ سماويّ مثلُ القرآن الكريم الخطوطَ العامة لنشأة حضارات التاريخ، والعواملَ التي عملت على ازدهارها وارتقائها، وتلك الأخرى التي قوّضت أركانها. وإنّه في هذه النقطة بالذات كان لا غنى عن الحديث عن خصوصيات حضاريّة لحضارات الأمم المختلفة؛ ذلك أنّ العقل الغربيّ الماديّ لا يرى سوى وجه واحد من عوامل ظهور الحضارات، وليس في وسعه أن يرى الأسباب الحضارية المتوارية وراء غِلالة العالم المادي.

ثمّة إشراقات داخليّة بعثها الإسلامُ في نفوس المؤمنين به وقلوبهم وعقولهم؛ لينبثق من ذلك بعد أمدٍ قصير عمرانٌ حضاريّ تكلم بلغة السماء فوق هذه الأرض.

ثمّة شواهدُ وأدلّة تبدو في غاية البساطة والضآلة، ولكنّها في ميدان الحركة والفعل على قدر كبير من الأهمية. ألَمْ يقلْ نبيّ هذه الأمّة عليه الصلاة والسلام: «مَنْ بدا جفا»؟ أي: من سكن البادية غلُظ طبعه وخشن. ثمّ إنه ما كان يأذن بسهولة بالخروج من الحاضرة إلى البادية. ولستُ هنا في مقام من يعدّد أسباب التحضّر ذات المصدر الغيبيّ، بل أجد نفسي أسترق المثال لأقدّمه في مضيق البحث في أسباب نشوء الحضارات.

والصّحيح أن الدّكتور أبو خليل لم يغفل ما نحن في صدده تماماً، بل كان الأمرُ - فيما يرى - في حاجة إلى مزيد استجلاء لطبيعة (النموّ) في الحضارة العربية الإسلاميّة. هذا النمو الذي اعتمد أساساً على رؤية المسلم أنّ كلّ ما في السمّاوات والأرض بما فيه الإنسان، هو مُلْكٌ لله سبحانه. ومن هنا بدا للمسلم المتخلّي عن مُراده الطالب لمراد الله، أنّ كلّ خطوةٍ يخطوها يجب أن تكون خالصةً لمولاه.

ومن هنا نفهم مقالة ذلك الجندي المقاتل في جيش عمر:

إنّا نقاتلُ كي يرضى الإلهُ بنا ولا نقاتلُ كي يرضى بنا عمرُ

وقد حدّد الدكتور أبو خليل في هذا المجال عدداً من المعايير التي توضع في الحسبان عند أي تقييم مظهر حضاري. وجعل في طليعة ذلك «النظرة إلى الإنسان وموقعه ومكانته في إطار هذه الحضارة، وفي إطار الفلسفة السّياسيّة والاجتماعية السائدة» (الحضارة ص١٠) وهداه التأمّلُ إلى عدد من الدّعائم التي قام عليها صرحُ الحضارة العربية الإسلامية التي لاحظ أنّها هي الحضارة الحقيقية.

وأهمّ هذه الدعائم فيما يرى: الإيمان بالله الواحد الخالق قيّوم السماوات والأرض.. واحترام العقائد الأخرى.. وفرض العِلْم على المسلمين جميعاً،

ورفع مكانة العلم والعلماء.. وجعل التكافل الاجتماعي سمة الايمان، وإنزال السلوك الطيب والخلق القويم مُنزلاً علياً (الحضارة ص١١-١٣).

ويرى الدكتور أبو خليل أنّ للحضارة ستّة مظاهر أو مجالٍ هي: المظهر السياسي، والمظهر الاقتصادي، والمظهر الاجتماعي، والمظهر الديني، والمظهر الفكري، والمظهر الفنّي. وقد حكمت هذه التجليات آفاق المادة العلمية التي عرضها في الحيّز الذي خصّ به الحضارة العربية الإسلاميّة.

وقد كان الدكتور أبو خليل موفّقاً إلى حدّ كبير حين تنبّه إلى المكوّنات الحضارية القديمة والأصيلة للبيئة التي انطلق منها الإسلام، فقدّم مادّةً طيبة في حديثه عن حضارة الشعوب التي دخلت في دين الله أفواجاً في بلاد الرّافدين والشّام، ووادي النيل وفارس، وبلاد ما وراء النهر. ويساعد ذلك قارئَ كتابه على فهم الإطار العامّ أو الحاضن الذي نشأت فيه حضارة الإسلام، والمعطى التاريخي والحضاري والعقلي الذي أفادت منه وأضافت إليه وتقدّمت به.

ولعلّ من الأسئلة الخطيرة التي يثيرها الدكتور شوقي أبو خليل قبل مباشرة موضوع الحضارة العربية الإسلاميّة هذا السؤال: هل هناك حضارة عربيّة إسلاميّة؟ وقد هيّأه ذلك لتقديم مفهوم سديد للحضارة يجعلها صنيعاً مشتركاً للإنسانيّة كلها، وذلك حين يقول: «الحضارة بساطٌ نسجته وتنسجه أيدٍ كثيرة، كلّها تهبه طاقاتها، وكلّها تستحق الثناء والتقدير، ولا ننكر أنّ الحضارة العربية الإسلامية اعتمدت في نموّها وتطوّرها وازدهارها على حضارات عربيّة وشرقيّة سبقتها، ولكنّها واصلت العطاء، وقدّمت إلى بساط الحضارة ما طلب منها وأكثر» (الحضارة ص١٨٥).

ويلحظ المتأمل مرّة أخرى أنّ الدكتور أبو خليل كان شديد الانشغال بما يمكن تسميتُه (لَيّ عنق الحقيقة) الذي ابتُلي به عدد كبير ممّن أرّخوا للحضارة

الإنسانية، من الغربيّين وغيرهم. أولئك الذين أرجعوا إلى الإغريق كلّ فضل في بناء الصرح الحضاري الإنساني. ويؤكد الدكتور أبو خليل وجهة النظر المقابلة التي تذهب إلى أن الإغريق مضيفون فقط إلى البيان الحضاري، وليسوا في حالٍ واضعي الأساس أو مخترعين. ويدلّل على مذهبه بشهادات مؤرّخين أوروبيّين للحضارة لم يُعمِهم التعصب ولم يستبدّ بهم روحُ الهيمنة، من أمثال ديورانت الذي يستشهد الدكتور أبو خليل بقوله: «إنّ اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً؛ لأن ما ورثوه منها أكثرُ ممّا ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلّل المِتلافَ لذخيرة من الفنّ والعِلْم، مضى عليها ثلاثةُ آلافٍ من السّنين، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب» (الحضارة ص١٨٥/ عن قصة الحضارة ٢/ ١٠).

ويبرز الدكتور أبو خليل إسهام الحضارة الإسلاميّة في الحضارة الإنسانيّة في جملة أمور. ويؤكّد أن «المنهج العلميّ هو أجلُّ خدمةٍ أسدتها الحضارة الإسلامية إلى العالم؛ فالإغريق (اليونان) اقتبسوا ونظّموا وعمّموا ووضعوا النظريات، ولكنّ روح البحث والتدقيق والتحقيق للوصول إلى المعرفة اليقينية وطرائق العلم الدّقيقة والملاحظة الدّائبة، كانت عربيّةً في المزاج الإغريقي، والمسلمون هم أصحابُ الفضل في تعريف أوروبة بهذا كلّه، فالعِلْمُ الأوروبي مدينٌ بوجوده للمسلمين» (الحضارة ص١٩٠).

وللحضارة العربيّة الإسلامية أيضاً فضْلُ الحفاظ على الميراث الحضاريّ القديم واليوناني وتسليمه إلى الأوروبيّين بعد استيقاظهم من غفوتهم في عصور الظلام، وذلك بعد أن أقبل المسلمون على هذا الميراث يقرؤون ويتأمّلون ويعدّلون وينظّمون ويضيفون.

وينتبه الدكتور أبو خليل إلى أمرٍ على قدر كبير من الأهميّة في شأن حضارة العرب المسلمين، وهو أنّه لأوّل مرّةٍ في تاريخ الإنسانيّة يغدو البحثُ

والكشفُ، وتعرّف خواصّ الأشياء والإفادة من الطّاقات الكامنة في موجودات الحياة في ظلّ الإسلام، جهوداً يكسب بها المسلمُ مرضاة ربّه سبحانه، ويحقّق بها فوزاً لا يني يطلبه ويسعى إليه بكلّ ما أوتي من قوة؛ ذلك أنّها الحضارةُ التي أُوحي إلى نبيّها: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٩٦/٣-٥]، وإنّه من هذه الآية الكريمة وأمثالها انطلق في أرض الله موكبٌ حضاريّ من نوع جديد، موكب كان يرى في كلّ حركةٍ يتحرّكها الإنسانُ إمكانية للظفر برضا الله سبحانه، وما أجمل ما قال شاعِرُ الإسلام محمد إقبال في هذا المعنى:

بلغتْ نهايةَ كلِّ أرضٍ خيلُنا ... وكأنّ أبحُرَها رمالُ البيدِ
في محفِلِ الأكوانِ كان هلالُنا ... بالنّصر أوضح من هلال العيدِ
في كلّ موقعةٍ رفعْنا رايةً ... للمجد تُعلن آيةَ التّوحيدِ
أممُ البرايا لم تكن مِن قبلنا ... إلا عبيداً في إسار عبيد
بلغتْ بنا الأجيالُ حرّياتها ... مِنْ بعد أصفادٍ وذُلّ قيود

وممّا يسجّل توفيقاً وإحساناً لمؤلّف (الحضارة العربيّة الإسلاميّة) أنّه يفتتح فصول كتابه بآياتٍ كريمة، أو أحاديثَ نبويّة شريفة، أو أقوال مأثورة، تومئ مضموناتها إلى الإطار العام الذي يزمع الحديث فيه. ومن هذا القبيل أنّه حين شرع بالحديث عن الحضارة العربية الإسلامية بما سمّاه (لمحة تاريخية) أورد في الجانب الأيسر من أعلى الصحيفة هاتين الآيتين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧-١٠٨].

ويخال المدقّق أنّ هاتين الكريمتين تنطويان على جملة ما يميز الحضارة الإسلامية: فالنبي محمد عليه الصلاة والسلام لم يرسل إلاّ رحمةً للعالمين. وما

أوحي إليه من ربّه إنّما هو توحيدُ الألوهيّة، والمطلوبُ ممّن أُرسل إليهم إنّما التسليم بذلك تسليماً مطلقاً.

وقد حكمت هذه المبادئ حركة المجتمع المسلم في الآفاق جميعاً. وهكذا بدأ الدكتور أبو خليل حديث الحضارة العربيّة الإسلامية بخلاصة سريعة لحياة الرّسول الأكرم عليه الصلاة والسلام منذ الولادة إلى الانتقال، مُتْبعاً ذلك بالحديث عن خلفائه الرّاشدين الأربعة رضوان الله عنهم وشيء من سِيَرهم، ثم ما أعقب ذلك من سلسلة الدّول الإسلامية المتعاقبة.

ويَلفت الانتباهَ في حديث الدكتور أبي خليل عن تاريخ الحضارة إعطاؤه حيزاً واضحاً لعوامل الاضمحلال والتقهقر التي تفتك بالدّول الرّاعية للحضارات. ففي حديثه عن الدّولة الأموية مثلاً يقول: «سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ= ٧٥٠م لأسبابٍ كثيرة؛ منها نظامُ ولاية العهد الذي أوصل إلى الحُكْم أحياناً مَنْ ليس أهلاً له.. والرّوح العصبيّة هي السّبب الثّاني لسقوط الدولة الأموية، تلك الرّوح التي بُعثت بين القبائل العربية، كما بدأ التعصب للعرب يظهر على الألسنة، وفي نتاج الفكر، وفي سياسة الدولة» (الحضارة ١٩٩-٢٠٢).

ومثلَ هذا فعل عند حديثه عن سقوط دولة بني العبّاس والدّويلات التي قامت على أنقاضها في بلاد الإسلام، وينبّئ مثلُ هذا الاهتمام بعوامل الانحدار، بقَصْدٍ إلى الاعتبار والاتّعاظ، وهو أساسٌ من الأسس الكبيرة التي ألح القرآن الكريم على أن يبني الخَلْقُ عليها تفكيرهم وتصوّرهم وسلوكهم، وذلك في الكثير الكثير من مثل قول الله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩/١٢]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [محمد: ١٠/٤٧]. والآيات والأحاديث في هذا المعنى

كثيرة، وتشير في جملتها إلى مصدرٍ عظيمٍ من مصادر المعرفة بتأمّل حال الأقوام السّابقة.

على أنّ جمهرة حديث الدكتور أبو خليل عن الحضارة الإسلاميّة دارت حول النظام السّياسي والإداري للدولة العربية الإسلامية. ونجد ثمّة حديثاً مسهباً عن مصادر التشريع ونظام الحكم والخلافة والوزارة والإمارة والحسبة والقضاء وولاية المظالم والشرطة والدّواوين وبيت المال والبريد والجيش والأسطول.

ويظلّ حديثُهُ عن سِمات حكومة الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفائه من المباحث التي تضفي على الكتاب قدراً من الجِدّة في الاستنتاج والبراعة في معالجة المسائل.

ويمكن القولُ: إنّ العقل المتأمّل لحضارة الإسلام عند الدكتور أبو خليل متمتعٌ بقدر كبير من حرية الحركة والتبصّر، ربّما بسبب قراءاته الواسعة في القديم والحديث، وتأمّله جيّداً لما يقول الغربيّون في شأن هذه الحضارة. ولعلّ في هذه النقطة خصوصيّة لما كتب الدكتور أبو خليل ويكتب. والذي آذن لنفسي بقوله هنا هو أنّ الدكتور أبو خليل يدرك عِظَم المؤامرة وضخامة المخطّط، أليس هو ابنَ فلسطين الغالية التي تمتدّ سلسلةُ المؤامرات عليها لما يربو على قرنٍ؟.

على أنّ ثمّة شيئاً آخر كانت عينُ عقلِ الدكتور أبو خليل عليه وهو يكتب عن حضارة الإسلام، وذلكم هو وحْدةُ المسلمين وأخوةُ الإسلام، بل الأخوة الإنسانية؛ ولذلك لستُ إخالُك تجد في (الحضارة العربيّة الإسلاميّة) ما يمكن أن يسيء إلى أحدٍ من المسلمين أو غيرهم. ولعلّ الكثير ممّا أُخِذ على من كتبوا في تاريخ الإسلام وحضارته مبعثُه الإخلالُ بهذا المطلب. ويستحقّ منهج

الدكتور أبو خليل في هذا الشأن أن يكون أسوةً تُتمثَّل لدى من يتصدّون للتأليف في هذا المجال.

وحين ينتقل الدكتور أبو خليل إلى الحديث عن (الحياة الفكرية) في ظلّ الإسلام يفتتح بقول رائع لأحمد تيمور من كتابه (المهندسون في العصر الإسلاميّ) هو قولُه عن العرب المسلمين: «لمّا ألقوا عصا التّيار، واطمأنّت بهم الدّار، لم يلبثوا أن نشطوا للفَتْح الثّاني، وهو الفتح العلميّ، فأتوا في الفَتْحين على قِصَر المدّة بما لم يبقَ له مثيلٌ في الأمم السّالفة، وكان من ذلك أنّهم ملكوا ناصية العِلْم كما ملكوا ناصية العالم» (الحضارة ص٤٣٩).

والحقّ أن القدرة على انتقاء الشواهد معْلَمٌ آخر من معالم تفوّق مؤلف (الحضارة العربية الإسلامية)، فيما يكتب. وتشدّ المرءَ هذه الحكايةُ التي يرويها في صدد الحديث عن تقدير ولاة أمر المسلمين للعِلْم وأهله، وذلك إذ يقول: «قال أبو معاوية الضّرير - وكان من عُلماء الناس -: أكلت مع الرّشيد يوماً فصبّ على يديّ الماءَ رجلٌ، فقال لي: يا أبا معاوية، أتدري من صَبّ الماءَ على يديك؟ فقلتُ: لا، يا أميرَ المؤمنين، قال: أنا، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أنت تفعل هذا؟ ودعوتُ له. فقال الرشيد: إنّما أردتُ تعظيمَ العِلْم» (الحضارة ص٤٤١).

وربما كان من إضافات (الحضارة العربيّة الإسلاميّة) ما عمد إليه الدكتور أبو خليل من ردّ شُبهات المبغضين، ودحض دعاوي المفترين الذين يجعلون شعاراً لهم المَثَلَ الذي يُنسب إلى أحد أكاسرة فارس، وأورده الشاعرُ العربي أبو نواس في بيتٍ له، وهو: «مِنْ فُرصة اللصّ ضجّة السّوق».

وقد اتسع المجالُ الذي خصّ به الدكتور أبو خليل صنيعَ هؤلاء في كتابه. ويقع في الصّميم من هذا التوجّه كلامُه، في تضاعيف الحديث عن المكتبات في الحضارة العربيّة الإسلامية، على ما أعطاه عنوان (العصور الوسطى). وقد

بيّن تحت هذا العنوان التجنّي الكبير الذي عمد إليه نفرٌ من الدّارسين، وذلك إذ يقول: «وبعد هذا كلّه، يقع بعضُهم في خطأ عظيم، عندما يعمّمون قائلين: العصررُ الوسطى عصورُ ظلام، وتحريق للعلماء، ومحاربة للمعرفة، وهذا حقّ لاريبَ فيه، ولكنه ينطبق هناك عندهم، في أوروبة وحْدَها، عندما كانت تخاطبُ الإنسان بقولها: «أطِعْ وأنتَ أعمى». وهذا يقابلُه في الفترة ذاتها في حضارتنا العربيّة الإسلاميّة: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢/١١١]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨]. تحريق العلماء كان عندهم، هناك في أوروبة لا في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة. ثلاثُ مئة ألفٍ عوقبوا على آرائهم في أوربة؛ أُحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياءً، كان منهم العالم الطبيعي برونو (Brunoe) الذي قال بتعدّد العوالم، فحُكم عليه بالقتل وأحرِق ميتاً، وعوقب العالِمُ الطبيعي الشهير غاليلو بالقتل؛ لأنّه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس، وحُبس دي رومنس في رومة حتّى مات، ثمّ حوكمت جثّته وكتبُه، فحُكم عليها بالحرْق» (الحضارة ص٤٤٩-٤٥٠).

وعندما يعرض الدكتور أبو خليل للمظهر العلميّ للحضارة العربية الإسلامية لا يملك إلاّ أن يكتب بنشوة وبهجة تطفح عباراته بأماراتهما وأدلتهما. ولا يمكن فهمُ هذا إلاّ بما حمله الدكتور أبو خليل بين جنبيه من إخلاص لأمته، وإدراك ممتاز للجوانب المشرقة في إنجازها الحضاري الذي ظلّ على امتداد قرون معيناً لارتقاء عقلي وعلمي لشعوب وأجناسٍ ظلت زمناً طويلاً تبتهج بالظلام وتُعلي له المنازل.

وابتغاء بيان هذا الملحظ في سلوك الدكتور أبي خليل وهو يدوّن حضارة أمته، أدعوك إلى أن تصغي معي إلى هذه العبارات التي لا أشك في أن كاتبها كان يكتب وهو ممتلئ بهجةً ورضا وإيماناً بهذا الذي يقوله:

«وهكذ.. كان العلاجُ بالبيمارستان النُّوري، الذي أنشأه نورُ الدين بدمشق عام ١١٦٠م، مجانياً للفقراء وللأغنياء سواء بسواء، دون أن يكلف المريض درهما واحداً، بل كانوا يُمنحون لدى خروجهم من المستشفى ثياباً ونقوداً تكفيهم للعيش دون عمل في فترة النقاهة». «لقد كانت المعالجةُ بالموسيقا، والترويح عن المرضى وتسليتهم عن آلامهم بالقصّاصين والمنشدين، ولمن يخرج من البيمارستان عند بُرئه كسوةٌ، وخمسُ قِطَعٍ من الذهب، إعانةً حتى تنتهي فترة نقاهته». «ولقد ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجْرٍ، ويمدّهم من غير ثمن، ويقول المؤرخون: إنّ نيرانه ظلت مشتعلةً لا تنطفئ ٢٦٧سنة» (الحضارة ص٥٢٠).

أما الخاتمة التي أعدّها الدكتور أبو خليل لكتابه وأعطاها عنوان: (أثر الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية)، فقد جاءت خلاصة مركّزة طيّبة لذلك التأثير الفعلي الذي تركته الحضارة العربية الإسلامية في نهضة أوربة، وإذا كان كثير من أقلام الغربيين يضيق ذرعاً بالحديث عن أيّ فضلٍ للعرب المسلمين على الغربيّين، فقد جاء الدكتور أبو خليل ليضع يده على غير قليل من المصادر المهمة التي أرّخت للحياة العلميّة في الغرب، واعترفت بالآثار الطيبة لشمس الحضارة العربية الإسلامية في تُربة العِلْم الغربيّ والنهضة الغربية.

وفي هذا المعنى يقول الدكتور أبو خليل: «قامت صيحاتٌ علمية موضوعية منصفة، وعلى قلّتها أعطت حضارتنا وأعلامها الكبار جزءاً ولو يسيراً من الحق والإنصاف، فكتابُ زيغريد هونكه (شمس العرب تسطع على الغرب) مشهورٌ معروف، وكتابُ غوستاف لوبون (حضارة العرب) معروف أيضاً، وقدّم ماكس فانتيجو كتابه (المعجزة العربيّة) Le Mircale Arabe وفي مؤتمر الحضارة العربيّة الإسلامية الذي عُقد في جامعة برنستون في واشنطن عام

١٩٥٣م، تقرّر أنّ كل الشواهد تؤكّد أنّ العِلْم الغربي مدينٌ في وجوده إلى الحضارة العربية الإسلامية، وأنّ النهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة، والذي أخذ به علماء أوروبة، إنّما كان نتاج اتّصال العلماء الأوروبين بالعالم الإسلامي، عن طريق دولة العرب المسلمين في الأندلس» (الحضارة ص٥٩١).

وأمّا القولُ الأخير لنا في هذه المندوحة فهو أنّ الدّكتور شوقي أبو خليل فيما أسداه للحضارة العربية الإسلامية من صنيع طيّب مبارك، ليستحق من المخلصين من أبناء هذه الأمّة التبجيل والتقدير، فإنّ ما كتبه عن حضارة أمّته هو ذوبُ روحه الرّاقي وقلبه العاشق وعقله المستنير وخُلُقه السَّنيّ، وقد أصاب الغرض وأزال المرض، فجزاه الله عن كلّ ما صنعَ خيرَ الجزاء، وحباه القوّة على العطاء، وأحسن إليه في هذه الفانية وفي الأخرى الباقية.

شوقي أبو خليل.. وإنجازه العلمي المعرفي

شوقي أبو خليل .. عالماً

الدكتور طالب عمران

عرفته منذ سنين بعيدة، كاتباً متنوّراً في الفكر الإسلامي.. وباحثاً ذا باع طويل في تقديم الجديد من الأفكار في بحوث التراث، والمزج بين الحقائق التاريخية والعصر في أسلوبه السهل الممتنع، الذي يتدفق أحياناً بعباراته الرشيقة..

ولكن الذي لفت انتباهي حضوره المتميّز في مجال البحوث التي تمزج بين حقائق العلم والدين، فطالعت له كتابه الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٠ (الإنسان بين العلم والدين) الذي قدّم فيه سلسلة من المعلومات العلميّة الشائقة، جمعها ورتّبها بشكل مشوّق، وكان عندها في التاسعة والعشرين من عمره..

ونظراً للجهد الكبير الذي قُدِّم في هذا الكتاب تتالت طبعاته بعد نفاد نسخه المتكرِّر..

في هذا الكتاب يزاوج د. شوقي أبو خليل بين النظريات العلميَّة، التي تطرَّق إليها بتفصيل مهمٍّ ليقرنها بآيات من القرآن الكريم.. حيث يبدو الإعجاز العلمي واضحاً..

فأي كلام أبلغ من كتاب الله الكريم ..﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٠]. بدأ الكون من كتلة متجمعة من المادة شديدة الكثافة إلى درجة مذهلة، انفجرت هذه الكتلة منتشرة في الفضاء غير المحدود.. ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٤٧] والكون يتوسع بتمدد في شمولية كاملة.. وتتشكل نجوم وسُدُم جديدة، ثم قد يتوقف التمدد، ويعود الكون للانكماش.. وعلم ذلك عند الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٤].

ثم يتابع د. شوقي أبو خليل فيقدم معلومات عن المجرَّة التي تحتضن شمسنا «درب التَّبان» أو الطريق اللبني.. حيث تتوضع المجموعة الشمسيَّة في منطقة منها ليست محتشدة بالنجوم.. سمك المجرَّة (٢٠) ألف سنة ضوئيَّة (الضوء يقطع في ثانية (٣٠٠) ألف كيلو متر وفي سنة نحو (١٠) مليون مليون كيلو متر) وطول قطر المجرَّة التي شبهناها بالعدسة نحو (١٠٠) ألف سنة ضوئيَّة.. وتبعد الشمس عن طرف المجرَّة نحو (٢٠) ألف سنة ضوئيَّة.

تدور الشمس ومجموعتها في المجرَّة حول المركز كل (٢٠٠) مليون سنة.. والشمس تشكَّلت من سحابة غازية ترابيَّة، وهي ما زالت فتيَّة، وهناك نجوم تندثر بعد شيخوختها.. ويشرح الباحث معلومات عن مولد وفناء النجوم..

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ١١] لقد بيَّنت هذه الآية الكريمة أن المادة التي خلق الله تعالى منها المجرَّات المنتشرة في كوننا كانت مثل الدخان.. وآية تثبت زوال الشمس في النهاية ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ١-٢] والتكوير ذهاب الضوء، أي إن

الشمس ستنتهي ويذهب لمعان وصفاء النجوم، ثم تتناثر مع النهاية التي لا بدَّ منها في يوم القيامة.. ويتابع (د. شوقي) استعراض المجموعة الشمسيَّة وكواكبها وأقمارها، ويستفيض في حديثه عن كوكب الأرض وكوكب الحياة، بنيتها تراكيبها، البراكين، الزلازل، المحيطات، ملوحة المحيطات، الشفق القطبي، والأرض في القرآن الكريم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد: ١٣/٣] ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: ٣١/١٠]. ويتابع حديثه الشائق عن الرياح والأمواج.. ثم عن الضغط الجويّ، ويظهر الإعجاز في الآية الكريمة ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٥].

فصعود الإنسان في الجو يجعل صدره يضيق من قلَّة الأوكسجين من الضغط الجوي المتضائل.. إنه إعجاز مدهش.. ثم يورد مجموعة كبيرة من آيات القرآن الكريم عن البحر.. ثم يتطرَّق إلى القمر وفوَّهاته وخسوفه، ودوره في كسوف الشمس، والقمر يعكس الضوء، بينما الشمس تشعه ..﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ٧١/ ١٦].

ويتابع الدكتور شوقي أبو خليل في كتابه الشائق الحديث عن المركبات الفضائية التي دارت حول المريخ والتي هبطت القمر، وقد حمَّل فاروق الباز العالم المصري الذي ساهم في إنجاح (أبوللو ١١) التي هبط منها رائدا الفضاء (نيل أرمسترونغ) و (أدوين ألدرين) على القمر.. أرمسترونغ سورة الفاتحة، فحملها الرجل تَعْويذة وهبط بها القمر..

وبعد أن ينتهي من حديثه المستفيض عن كواكب المجموعة الشمسيَّة، يحكي عن المذنبات والشهب والنيازك. ثم عن الملاحة عبر الفضاء ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ

وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٣٣].

ثم تحدَّث عن بعض معيقات السفر إلى الفضاء وعددها (الشهب والنيازك - الإشعاعات الكونيَّة - انتفاضات الشمس - تسارع المركبة والعزلة فيها - انعدام الوزن والجاذبية - متاعب الثقالة - درجات الحرارة - عدم رؤية الأفق..). وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الحياة ونشوئها، وكيف ظهرت أول مرَّة، ثم يتحدَّث عن الإنسان وظواهر الإعجاز الإلهي في خلقه ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣-٤] يتحدَّث عن المورِّثات وعن إعجازات الحواسّ.. والخلق الذي يبدأ من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة ..﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٤]، ثم يحكي عن الفيروسات، وبحوث تقليد الحياة الفاشلة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٣].

ونختم كتابه الهامّ بالحديث عن معجزات النُّبوَّة في الكون والحياة والصحة، ثم يحكي عن ظاهرة مثلَّث برمودا وأبعاد بعض النجوم، ومواد القشرة الأرضيَّة، وعن بعض النُّجوم والبروج وفضل العرب في علم الفلك، وأشهر جبال وبراكين القمر، وعن عناصر البحر والمذنبات، إضافة لتفسير بعض المصطلحات..

قدَّم الباحث جهداً كبيراً في هذا الكتاب العلمي الهامّ، قدَّم فيه بعض نواحي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، بشكل لم تكن له سابقة - بمثل هذا الوضوح والتَّنوُّع من قبل..

د. شوقي أبو خليل، باحث متابع، اهتمَّ بالدفاع عن الإسلام وسط فوضى

من الهجمات الحمقاء على هذا الدِّين الحنيف، فكتب (١٣) كتاباً في ذلك، طبعت هذه الكتب عدَّة طبعات منها: (الإسلام في قفص الاتِّهام - مَن ضيَّع القرآن - آراء يهدمها الإسلام - الإسلام وحركات التَّحرُّر - عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي - الهجرة حَدَث غيَّر مجرى التاريخ - أطلس التاريخ العربي..»، وفيها آراء جريئة دافعة لأولئك الذين حملوا الإسلام الحنيف، مدفوعين أحياناً بحقد، وبغباء وجهل من قبل أعداء الإسلام المنتشرين من قوى الشَّرِّ التي تشنُّ الآن حملات مسعورة تضع فيها كل سفالتها، لاختراق هذا الدِّين السمح الذي علَّم العالم التَّسامح والسَّلام مع بدء الدعوة التي نشرت الإسلام شرقاً وغرباً..

الكتاب الآخر الذي أريد أن أتحدَّث عنه، وأنا أحكي عن «د. شوقي أبو خليل» الذي أرَّخ للعلم بطريقته المعتمدة على ربط حقائق العلم بإعجاز (القرآن الكريم) العلميّ.. هذا الكتاب هو (غريزة أم تقدير إلهي؟).. يصدِّر كتابه بالآية الكريمة ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود: ٦/١١] أنواع جميلة أبدعها الخالق - فراشة القمر - وطائفة من الغرائز التي أودعها الله سبحانه في بعض أنواع الحيوان والطير والأحياء المائية والحشرات.. فأطوار نموّ الضفدع من عجائب الطبيعة، ولكن حياة ثعبان البحر تفوقها إعجازاً.. إن الطبيعة جهَّزت بعض السحالي بأسلوب يعدُّ من أغرب الأساليب وأعجبها للدِّفاع عن النَّفس..

- في الطبيعة توازن عجيب بين الحشرات والطيور..

- الأخطبوط يختزن الماء في جيب، فإذا أراد الحركة دفع الماء من الجيب كالغواصة تماماً..

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: ٧/٣٢].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ٢-٣].

بعد هذه المقدّمة التي تعطي عناوين كبيرة للحياة، حكى عن الهجرة، هجرة الطيور وعجائبها، وأشكالها، وأنواع الطيور، ثم هجرة السمك، وهجرة اللمنغ العجيبة، حيث تنتحر جماعاته ملقية نفسها في البحر..

هجرة السنونو، الشقراق، أبو فصادة.. غرائز كما نسمّيها توجّهها في رحلاتها الطويلة وعودتها، وهي تقدير إلهي، غرسه الله سبحانه وتعالى فيها..

ثم يحكي عن التَّخفي والتَّمويه، أو ما يسمَّى بالتَّلوُّن الوقائي، (بن عرس) يكون جسمه في الصيف مغطَّى بشعر خشن بنيّ اللون، يسمح للهواء بالتَّخلُّل فيما بينه فيرطب جسمه.. أما في الشتاء فإن هذا الشعر يتحوَّل إلى فرو ثمين أبيض اللون حتى ليبدو ابن عرس كأنه مغطَّى بالجليد.. ما أروع حكمة الخالق في خلقه.. تبيض الطيور التي تضع بيوضها في العراء، أو في عشّ مكشوف بيضاً ملوَّناً، يتَّخذ لون البقعة التي يوضع فيها، وذلك حتى لا تكتشف الحيوانات والطيور الأخرى مكانه بسهولة.

يغطي الدّب الأبيض أنفه الأسود بكف يده البيضاء، وبذلك يصبح من العسير تمييزه من الجليد الأبيض الذي يغطي كل ما حوله..

يتغيَّر لون الحسُّون بتغيُّر الفصول، في الربيع والخريف يبدو الذكر بألوان صفراء وسوداء زاهية وبحلول شهر أيلول، وقبل أن تسقط أوراق الأشجار يصير لونه أخضر داكناً.. وعندما تصبح فروع الأشجار جرداء يصبح شبيهاً بالعصافير العاديَّة.

حكمة الخالق جعلت اللون يتناسب مع طبيعة المناخ، في حيوانات كثيرة أخرى أيضاً ..﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٢]..

ثم يدخل الدكتور شوقي الباحث المجتهد ليقدّم صورة من حياة عجيبة في ثعبان البحر الذي يختار المنطقة الخاصة لحياته في نسبة ملوحة في المياه.. وبعد تمام مرحلة النُّمو التي تستغرق ثمانية أشهر أو تسعة يشعر ثعبان البحر أن الماء المالح لا يصلح لمعيشته فيهاجر في مواعيد محددة إلى الأنهار.. لبدء حياة جديدة.. ويحكي عن طريقة هجومه على فرائسه.. وهو يعيش في البر والماء ويقيم في النهر العذب..

ثم سمك السلمون يمضي سنوات في البحر ثم يعود إلى النهر الخاص به، والأكثر غرابة أنه يسبح على طرف النهر، حتى يجد النهير الذي ولد فيه فيصعد إليه..

إن سمكة السلمون التي تسبح في النهر صعداً، إذا نقلت إلى نهير آخر أدركت أنه ليس جدولها فتعود من حيث أتت، وتشقُّ طريقها خلال النهر، ثم تسير في اتجاه مضاد للتّيار، قاصدة مكانها الذي ولدت فيه ..﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور: ٢٤/ ٤٥].

ويتابع الباحث الكبير رحلته مع الضوء البارد في أعماق البحار والمحيطات حيث البرودة وانعدام الضوء تعيش أنواع من الأسماك المضيئة والثعابين والخنافس المضيئة والحشرات الناريَّة.. وبعضها يطفئ نورها إذا اقترب منها عدو.. إنها جزء من عجائب مخلوقات الله المدهشة ..﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٤].

ويتحدَّث عن مجتمعات النَّمل التي تدَّخر الطعام، وممالكها العجيبة.. ثم عن ممالك النَّحل المنظَّمة المذهلة بتنظيمها ومعيشتها.. وكيف تنتج العسل:

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٩].

وماذا عن لغات التّفاهم بين الحيوانات؟

إنها معجزة أخرى من معجزات الخالق عزّ وجلّ الذي قدّر لهذه الأنواع التّفاهم فيما بينها والتعاون والتّكاثر والاستمرار..

ثم ماذا عن الصراع من أجل البقاء.. بين اللواحم والعواشب، وكيف يحمي الضعيف نفسه بما يمتلكه من وسائل حماية؟..

وماذا عن العلاقات في الفصائل الحيوانية؟ غرائز الأمومة والعطف والحنان بين الطيور والفيلة والحشرات والفقمة والحيتان والدببة وعجول البحر وأفراسه.. وأشكال عديدة من الحيوانات التي خلقها الله على هذا الكوكب..

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨].

ويتابع د. شوقي، الباحث المجتهد في تقديم أفكاره ونماذج مختاراته من فصائل الحيوان، مؤكداً على إعجاز الخالق عزَّ وجلَّ في خلق الحياة على الأرض.. كيف يبني القندس بيته؟ كيف يشكِّل العنكبوت الغطَّاس بيته؟ كيف يصيد (أبو نقَّار) بمنقاره الطويل السمك؟ وكيف يبيض ويربِّي فراخه؟ ماذا عن الغربان؟ كيف تحتضن أنثى الطيور البيوض؟ كيف يترك الأسد فرائسه بعد الشبع لبنات آوى؟ ماذا عن السمك الطَّيَّار؟ ماذا عن الشقراق وصداقته للتمساح؟ أسئلة كثيرة وكثيرة، يجيب عليها الدكتور شوقي في كتابه الهامّ الشَّائق (غريزة أم تقدير إلهي؟) حول إعجاز الخالق عزَّ وجلَّ في خلقه المتنوِّع على هذه الأرض..

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ٣١/١١].

هذه الآية الكريمة كانت عنواناً لبرنامج تلفزيوني اسمه (خلق الله) قدم منه أكثر من (٣٠٠) حلقة على مدى عشر سنوات.. كانت تؤكد على الإعجاز الإلهي في الخلق.. كما بيَّن الدكتور شوقي أبو خليل في كتابَيْه المهمَّيْن (الإنسان بين العلم والدِّين) و (غريزة أم تقدير إلهي)، وقد رغبت في أن أتحدث عن منهاج الدكتور شوقي أبو خليل في هذين الكتابَيْن.. كأدلَّة محسوسة عن طبيعة الإعجاز الإلهي في الخلق.. ومدى تطابق ذلك مع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.. الكتاب الإلهي العظيم..

☆ ☆ ☆

عرفته باحثاً متابعاً، متواضعاً، لَمّاحاً، شديد الألفة والحميميَّة، تقابله فتشعر أنك تعرفه منذ زمن بعيد، فتنكسر الحواجز، وتغيب الكلفة.. هو قارئ ممتاز ينهل المعرفة من كل جوانبها، وباحث متنوِّع موسوعي، ألقى بظلِّه - من منهج خاص - في دائرة العلم فأبدع وأجاد..

فتحية إلى هذا العالم الباحث الذي تفخر دار الفكر بتكريمه، وهو من أعطاها الكثير من جهده وعرقه.. ونفخر نحن به وبإنجازاته الكبيرة عبر حياته المعطاءة.. أطال الله عمره..

القسم الثالث

البحوث المهداة

هكذا نشات القومية

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

مُقَدِّمَة

الأخ الصديق الدكتور شوقي أبو خليل متخصص بالتاريخ الإسلامي، وأعتقد أنه أحسن صنعاً إذ اختار هذا الاختصاص، وأولاه الكثير من اهتمامه الفكري وجهده العلمي. ولكني كنت أود أن يستمر في خدمة اختصاصه، ضمن ميدان الدراسة والتدريس، ومتابعة البحث والتأليف، بدلاً عن الاكتفاء بالعمل الإداري ولو في نطاق مؤسسة علمية مرموقة، مثل مؤسسة دار الفكر بدمشق.

ولعلي لم أكن لأُبدي هذه الرغبة، بل لعلي لم أكن أشعر بها أيضاً، لو شاء الله أن أكتب عنه هذه الأسطر في أواسط الثمانينات.

كنت لا أعلم آنذاك عن الدكتور شوقي أبو خليل إلا أنه يحمل اختصاصاً علمياً في التاريخ الإسلامي، وأنه ذو اهتمامات مشكورة بالإسلام، وأن له كتابات قيمة في التبصير بحقائقه والدفاع عنها.

ولكني عندما رأيته - وقد استقدمَتْهُ جامعة دمشق محاضراً في مقرر التاريخ الإسلامي على طلاب كلية الشريعة - كيف يستقطب الطلابَ صباح كل أحد وأربعاء من الأسبوع، وكيف تفيض القاعة الكبرى بهم فيتضاغطون في الممر،

وقد اشتدّ بهم الظمأ إلى أن ينصتوا إلى من أمكنه الله من كشف الزيف وإزالة غبش الجهالة، وتمزيق نسيج الافتراء عن حقائق التاريخ الإسلامي، أقول: عندما رأيت فيه هذه القدرة، ورأيت في الطلاب هذا الإقبال، وددتُ أن لو استمر يؤدي رسالته في هذا الميدان، وألّا يتحول عنه فيما بعد إلى هذا العمل الآخر الذي يعكف عليه اليوم، ولو أنه يسدّ بذلك ثغرة علمية في مؤسسة علمية كبرى لا ينكر أهمية رسالتها أحد.

ترى لماذا كان هذا التحول؟ ألأنه آثر عمله الذي هو فيه اليوم، أم لأن عمله هذا هو الذي آثره، فحكم عليه ولم يترك له من خيار؟

أياً كان الأمر، فإن الذي أجزم به أن الله إن قيض لهذا الاختصاص من نال فيه درجة علمية عالية، وجمع إليها الإخلاص للحق والغيرة على حقائق التاريخ أن لا تُشوه ولا يتسرب إليها الدجَل والافتراء، ينبغي ألّا يألوَ جهداً في دراسة التاريخ الإسلامي من جديد، وإبراز أحداثه ومشاهده ناصعةً عارية من الزغل والزيف. والدكتور شوقي أبو خليل - فيما أعتقد - واحدٌ ممن حالفه التوفيق الإلهي في الجمع بين هاتين المزيتين.

ثم إن الله شاء أن تكون لي مشاركات في تمحيص أحداث التاريخ، ورغبة في إزاحة الرُّكام الذي تكاثف، من عوامل الدجل والزيف، عليها. وقد عدت إلى أوراقي وبحوثي التي سجلت عليها هذه المشاركة، فلم أجد أعزّ إلى نفسي من بحث تحدثت فيه عن نشأة القومية وتاريخها والأيدي الأجنبية التي شاركت في ترسيخها وجعلها قنبلة موقوتة تتفجر في ميقاتها المحدد على الأخوة الإيمانية والجامعة الإسلامية بالتشرذم والدمار.

فإلى أخي الدكتور شوقي أبو خليل أهدي هذا البحث العزيز إلى نفسي والنادر ربما في مضمونه والغني في دروسه وعبره.



كنت أدير إبرة المذياع يوماً، فوقعَتْ بي على حديث من إذاعة أنقرة التركية، فأصغيت إليه، وإذا بالمتحدث يتكلم عن السلطان عبد الحميد قائلاً: إن عبد الحميد قد تآمر على القومية التركية، وراح يفتح أمام العرب أبوابَ النفوذ والسيطرة، من خلف ستار فكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها؛ ولكن اليقظة التركية قطعت عليه الطريق، واستطاعت أن تنقذ القومية التركية من مؤامرته ورجعيته!..

لقد تملكتني حيرة بالغة لهذا الكلام!.. فالذي نسمعه من إذاعاتنا، ويُعلِّمونه في مدارسنا، أن السلطان عبد الحميد كان مستعمراً تركياً لهذه البلاد، وكان يبسط سلطان القومية الطورانية على شعبنا العربي باسم الخلافة الإسلامية. فكيف يكون هذا القومي الطوراني والمستعمر التركي في الوقت نفسه عدواً للقومية التركية، متآمراً عليها، صديقاً للعرب متحيزاً إليهم؟!.. كيف يكون الرجل، في آن واحد، سائراً في سبيلين متخالفتين، هاتفاً بحقيقتين متناقضتين؟!.

إن حقيقة الرجل مدفونة - ولا ريب - بين هذين النقيضين. وإن قصته لضائعة، وراء لغو هذين التأريخين. ذلك لأن التاريخ لم يعد اليوم - كما نعلم - نوراً تُكتشف به الحقائق الثابتة، بل هو اليوم حمض تذاب فيه هذه الحقائق!..

لقد فقد التاريخ - ويا للأسف - شرف حريته، فقد أوقعته حضارة القرن العشرين في يد السياسة. ومعنى ذلك أن أشرف ما في الكون على الإطلاق، وهو الحقيقة، قد قُضي عليه بالإعدام!! ولست أدري أي قيمة تبقى للعقل البشري، بعد أن يحال بينه وبين الحقيقة، وبعد أن يزجَّ به في متاهات الاختلاق والتزييف والتضليل!..

ولكن لمن يكون الانتصار أخيراً؟

ما من ريب في أن العقل هو الذي سينتصر، وأن الحقيقة آيلة - ولا شك - إلى التحرر والانعتاق، بدليل أن أي حرّ مفكر يسمع هذا التناقض عن حياة السلطان عبد الحميد، مثلاً، يدرك أن هناك حقيقة مخبوءة، وأنه إنما يسمع وقع المعاول التي تحفر قبراً لدفنها فيه!..

وحتى السياسة نفسها التي تسير إلى أهدافها على أشلاء الحقائق، لابدَّ أن تزلّ قدمها، وتهوي على رأسها، قبل أن تجني ثمار تلك الأهداف، لأن معالم الطريق لا يمكن أن تستنير بغير نور الحقيقة، ولأن الحقائق مهما غُشِّي عليها، فإن العقل سرعان ما يبرزها ويعيد إليها القوة والحياة.

☆ ☆ ☆

لقد كتبت أقلام السياسة صفحات كثيرة عن القومية العربية، تفلسفها وتحلِّلها، وتلبسها لَبوس العلم والعمق، وتضفي عليها قداسة العقيدة والدين، وترفعها فوق كل شيء، وتزيح عن طريقها كل حقيقة مهما كانت أصيلة أو ضخمة!.. فهل استطاعت أن تسير بشراشرها هذه إلى نهاية الطريق وتقدم ثمارها المأمولة؟.

لا.. فقد زلّت بها القدم، لم تستطع أن تصبح ديناً جديداً، تقدم لأهلها ما يقدِّمه الدين، من الوحدة والحب والتضامن. وإنما استطاعت أن تحييَ دفين القوميات الصغيرة الأخرى في صدور أربابها. فإذا بالقوميات تتناطح، وإذا بهيبة الفلسفة التحريرية تنحسر عنها، وإذا بلَبُوس العلم والعقيدة والعمق يطير عن كاهلها، وإذا بالحقيقة الخالدة تقف ملتمعة أمام كل بصيرة وفكر، وهي تردد قول خالقها عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣].

ولا يقف الأمر عند هذا وحده، بل يأبى العقل إلا أن يلتفت إلى الوراء، ليكشف زيف الصفحات الطويلة التي تسترت بأسلوب الفلسفة ولسان العلم، علّها تخدع ألباب الناس وتلبّس عليهم الحقائق بأشباهها.

لقد حان الوقت لأن نلتفت إلى الوراء، لنكشف حقائق عن تاريخ نشأة القومية، طالما ظلت أيدٍ سوداء ممتدة فوقها في سكون وصمت، كي لا تقع عليها أعين الناظرين، فيؤمنوا بها.

ولكن الأيدي السوداء لم تكن تحتمل من الصبر تحت أشعة العقل والبحث أكثر مما احتملت. إنها اليوم تتحرك في ارتجاف، وإن حقائق خطيرة تتبدى تحتها لكل ذي عينين.. وإليك بعضاً من هذه الحقائق:

إن مقدمة نشأة القومية في عالمنا الإسلامي، تبدأ مع بدء التجمع الصهيوني وسعيه ابتغاء استلاب فلسطين!.. فقد كانت الخلافة الإسلامية إذ ذاك تطوق معظم بلاد الإسلام - وفلسطين قلب فيها - بطوق متين، على ما كانت تعانيه الخلافة حينئذ من ضعف وتأخر.

وكان المحور الذي استقطب من حوله هذا التجمع الصهيوني، هو المحفِل الماسوني، الذي تأسس في أواخر عهد الدولة العثمانية، باسم محفل الشرق العثماني. فقد كان هذا المحفل مكوَّناً من كبار أغنياء اليهود ورؤوسهم، وكانت مدينة (سولانيك) مركزاً رسمياً له وهي المدينة التي ترعرعت في أحضانها جماعة اليهود المرتدين (الدونمة).

وبدأت أول محاولات اليهود المباشرة للاستيلاء على فلسطين، بدخول الثري الماسوني (قرصّو) على السلطان عبد الحميد، بواسطة مرافقه، عارف بك. فقد قال له إذ ذاك بالحرف الواحد: «إنني قادم مندوباً عن الجماعة الماسونية لرجاء جلالتكم بأن تقبلوا خمسة ملايين ليرة ذهبية، هدية لخزينتكم

الخاصة، ومئة مليون كقرض لخزينة الدولة بلا فائدة، على أن تسمحوا لنا ببعض الامتيازات في فلسطين».

فما هو إلا أن اربدّ وجه السلطان، والتفت إلى مرافقه الذي دخل بواسطته قائلاً: «أفما كنت تعلم ما يريد هذا الخنزير»؟ ثم نظر إلى قرصو، وصاح في وجهه: «اخرج من وجهي يا سافل».

فخرج من عنده قاصداً إلى إيطالية، ومن هناك أرسل إلى السلطان عبد الحميد البرقية التالية، التي لا تزال صورتها محفوظة بالزنكوغراف في كثير من كتب التاريخ التركية: «أنت رفضتَ عرضنا، ولكن هذا الرفض سيكلفك أنت شخصياً، ويكلف مملكتك كثيراً».

وفي هذه الأثناء، قابله زعيم صهيوني آخر، هو (هرتزل) برفقة الحاخام (موسى ليفي) وراح يرجوه في تزلُّف أن يبيع أراضي فلسطين بالثمن الذي يريد، فقال له السلطان عبد الحميد رحمه الله بالنص:

«إن هذه الأراضي قد امتلكها المسلمون بالدماء، وهي لاتباع إلا بالثمن نفسه».

وهكذا يئست الصهيونية، وماسونيتها، من إمكان إغراء الخلافة الإسلامية ببيع فلسطين أو التنازل عنها، مهما كان الأجر والثمن، فراحت تسلك إلى ذلك سبيلاً آخر، مستعينة بالخبث البريطاني.

فماذا كان هذا السبيل؟

كان ملخصاً في القضاء على الخلافة التي تشكل الطوق الحديدي المحيط بفلسطين، وذلك على حدّ ما اعترف به (حاييم وايزمن) نفسُه في مذكراته.

أما الطريقة التي اتُّبعت لذلك فهي ما قامت به جماعة الماسونية من إشاعة أن السلطان عبد الحميد قد اتفق مع العرب على مؤامرة يراد منها الكيد للشعب التركي والقضاء على العنصرية التركية، وأن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، ليست إلا غطاء دينياً لستر هذه المؤامرة، وأوحت إلى أحد الكتاب الملاحدة، وهو (ضياء كوك آلب) مع زمرة من أتباعه، بفكرة إيقاظ القومية الطورانية وفلسفتها والدعوة لها والغلو في تمجيدها، فاستجابوا لذلك، وراحوا يبشرون بالدين الجديد، ويملؤون من حديثه أدمغة الشباب والطلاب، مستعينين على ذلك بترداد ما أشاعته فلول الماسونية عن الجامعة الإسلامية وما وراءها.

وما هي إلا فترة، حتى استطاعوا أن ينبهوا مِنْ حولِهم الأذهان، وأن يفتحوا لدعوتهم بعض القلوب، وأن يجمعوا لها بعض الشبان الأغرار.

وسرعان ما تألفت من مجموعة هؤلاء الداعين والمستجيبين، جمعيَّة أسمت نفسها جمعية الاتحاد والترقي، وهي التي ثارت على السلطان عبد الحميد، واستطاعت إزاحته عن الحكم. وإذن فهي جمعية يهودية ماسونية، انبعثت لفتح أول باب في الطريق إلى فلسطين، وبذلت كل جهدها في سبيل تقويض الخلافة، واستعانت على ذلك بحمل سلاح القومية الطورانية. يعلم هذا كل مثقف لا يكذب على عقله ولا على الله.

غير أن سلاح القومية التركية لم يكن هو وحده أمل اليهود في القضاء على حصن الخلافة، وإنما استعملوه ليكون باباً ومنطلقاً لأعاصير الفتنة والقوميات المتعارضة فوق الصعيد الإسلامي الواحد، كي تقوم هي نفسها بعملية الثورة والانفجار الذي يودي بالخلافة ويكسر طوقها المحيط من حولها.

هكذا أفهم وزيرُ المستعمرات البريطاني كبارَ قادة الصهيونية، وهكذا خطط

لهم!.. يعلم هذا أيضاً كلُّ مثقف لا يريد أن يبتلع الحقيقة ليخون الله والتاريخ. وهذا ما تم بعد ذلك.

سمع العرب هنا باسم القومية التركية تهتف بها حناجر الأتراك الذين كانوا إلى الأمس لا يعرفون غير الإسلام ولا يهتفون بغير الجامعة الإسلامية، ولا يميزون رعاياهم في الهويات إلا بالإسلام، فعجبوا.. ثم تأملوا وفكروا.. وإذا بهم يقولون بدورهم: ولكننا نحن عرب، وهل القومية التركية أولى بتمثيل الدولة الإسلامية من القومية العربية، متى كان الأمر كذلك؟.

قال العرب هذا الكلام بوحي من ردة الفعل التي طفحت بها نفوسهم، دون أن يسبروا غور الأمر، وأن يكشفوا عما وراء الأكَمة من عوامل وبواعث!..

وكانت خطوط المؤامرة قد وصلت إلى هنا أيضاً، فانتهز الفرصة من كانوا ينتظرونها، وراحوا يبعثون في الناس فلسفة القومية العربية، ويتلون عليهم تنزيلها، ويفرغون لها مكان القداسة والعقيدة من القلب، ويجعلون منها ديناً مكان دين. هذا ومثيرو القومية التركية، من الماسونيين ينفخون من سالونيك في نار الفتنة هنا.

والغريب العجيب - لمن لم يعرف مخطط الكيد - أن كلا القوميتين المتعارضتين المتناقضتين اتجهتا في الهجوم على عدو واحد، ألا وهو الخلافة الإسلامية، متمثلة في السلطان عبد الحميد. فقد كان دعاة القومية الطورانية يتهمونه بممالأة العرب وشق سبيل السيطرة أمامهم، على حين يعتقد دعاة القومية العربية أن كلاً من الخلافة والجامعة الإسلامية ليستا سوى مبرر لفرض القومية الطورانية على العرب. ولقد علم كل عاقل فيما بعد أن كلا هذين الخصمين كانا مسخَّرين تسخيراً محكماً من قبل الثلاثي الماكر الخبيث:

الصهيونية والماسونية وبريطانية، وبتعبير أصح كانا مسخرين من قبل الصهيونية التي كانت تقوم إذ ذاك بأخطر دور على أوسع نطاق، للانقضاض على فلسطين.

وهكذا قامت الأعاصير في وجه الخلافة من كل جانب، خدمةً للسيد المنبوذ الذي يأبى إلا استيلاءً على فلسطين، إلى أن انتابتها هزة، ثم سرى فيها زلزال، ثم حلّ بها الدمار!..

إذن، لقد تكسّر الطوق الذي لم يستطع (قرصّو) أن يفتح في أي جانب منه أيّ ثقب إلى فلسطين، وتبعثرت كتلة الإسلام التي كانت موحدة، ومجتمعة في داخله، وانكشفت فلسطين عارية أمام العدو المتربص بها، فجاءت إسرائيل تدلف إليها بخطاً هادئة ثابتة، وراحت بريطانية تتسلل إلى المستعمرات التي في بالها، وجاءت فرنسة هي الأخرى لتأخذ قسمتها من الغنيمة، وكان لسان حال هؤلاء جميعاً يقول للمسلمين: اهتفوا الآن بقومياتكم ما طاب لكم الهتاف، مادام الطوق قد تكسر والشمل قد تبعثر وفلسطينكم قد ضاعت!..

يا قارئي العزيز: هذا طرف من تاريخ نشوء القومية، وأسباب انبثاقها فوق أرض الإسلام، كما يسجله التاريخ ويعلمه كل من أراد أن يلتفت لمعرفة شيء من الماضي الذي خلّفه. أفلا تحسّ أن بين سطوره لهيباً يمتدّ إلى الأحشاء ويسري في مجاري الدم، أفلا تأكل النار كبدَك أسفاً للعصائب التي عُصِّبتْ بها أعين المسلمين، فانطلقوا ينتشرون كخراف ضائعة في فجاج الأرض. وراحوا يخترقون بحار الظلمات على غير تفكير أو هدى.. ثم طال بهم الأمد، فأصبحوا يستنيرون بالظلام ويستأنسون بالضلالة، ويركنون إلى صوت كل خادع وطامع.

ماذا يفعل الإنسان إذا داهمته مشكلة، غير اللجوء إلى منطق العقل السليم، أو إلى تجربة التاريخ الصحيح؟.. وهذه هي حقائق التاريخ تنطق بوضوح لكل

ذي أذن عن حال المسلمين يوم كانوا لا يميزون أنفسهم بشيء غير شارة الإسلام، قوة وتضامناً وتآلفاً. ثم عن حالهم يوم قضت الصهيونية والماسونية بأن يستبدلوا برابطة الإسلام رابطة القوميات، تفككاً وتدابراً وضعفاً.

صحيح أن الروح الصليبية المنطلقة من الجامعة الأمريكية في بيروت والقادمة مع حقد المستشرقين من الغرب تحاول أن تسدل حُجُباً كثيفة على هذه الحقاق التاريخية بكل ما يسعها من جهد، ولكنّ كل ذي عقل يستطيع أن يستعمل عقله في الوصول إلى ما وراء هذه الحجب، وأن يمزقها بنفخة فكريّة واحدة، وأن يرى الأيدي الملوثة التي تحاول أن تشدّ هذه الحجب لتبقى ممدودة فوقها، في هلع وخوف.

فأين هي حرية الفكر عند أدعيائها من أبناء جِلدتنا الذين يستسلمون في غباء منقطع النظير لوحي الصهيونية المتحالفة مع الصليبية، ويرددون ما يملونه عليهم من دروس؟

إنني أتحدى كلَّ من يقرأ التاريخ أو يكتب أو يدرس شيئاً منه، ممن يدينون بدين القومية، أن يقولوا إنهم لا يعلمون هذه الحقائق التي عرضتها، أو أن يدّعوا أن التاريخ غير صادق في بثها وتسجيلها.

وإذن، ففيم الابتعاد عن الحقيقة ومناصبة العداء لها؟ وما هي المصلحة الوطنية أو الاجتماعية أو حتى الشخصية من وراء محاربة الحقيقة والتضحية بها؟.

أما ضاعت فلسطين بعد ميلاد القومية، وكأنما ولدت هذه لتموت تلك؟!..

أما ذرّتْ من ورائها قرون القوميات الصغيرة التي تتفجر اليوم من هنا وهناك، كردّ فعل طبيعي للباب الذي فتحته جمعيّة اليهود (الدونمة) أمام القوميات التي كانت تتعانق نائمة في مهد الإسلام؟

أليست يقظة القومية الكردية التي تشغل بال كثير من المسؤولين العرب اليوم ثمرة طبيعية لغرس هذه الشجرة التي غرستها لنا يدُ الصهيونية، ثم جئنا نحن نرعى لها هذه الغراس كأحسن ما تكون الخدمة والرعاية؟

ترى هل استعاض الأكراد عن دينهم، بالقومية وشعاراتها، إلا يوم أن فوجئوا بانقطاع الحبل الذي كان يصل ما بينهم وبين إخوانهم العرب، ألا وهو الإسلام، الذي طالما جمعهم في صف مستقيم وعلى قلب واحد، ليحل محلّه حاجز حصين من العنصرية التي تجعل هذا في أقصى اليمين، وتترك ذاك في أقصى الشمال؟.

رأوا أن القومية غدت هي الحلة التي يتباهى بها العرب.. ونظروا، فإذا بالحلّة قد فُصِّلت على قدر العرب وحدهم، والتفتوا إلى أنفسهم فإذا هم قد أصبحوا عراة إلى جانبهم من كل شيء، فراحوا هم الآخرون ينقبون في التاريخ؛ ليستخرجوا هم أيضاً منه حلّتهم القومية التي ينبغي أن يلبسوها أسوة بغيرهم.. شيء طبيعي في منتهى الانسجام المنطقي، مادام العصر عصر مباهاة بالقوميات، وما دامت الوحدة الإسلامية قد أصبحت بعيدة عن مركز الجمع والتأليف.

ولكنه ليس شيئاً طبيعياً، ولا سلوكاً صائباً، بالنسبة لمصلحة ملايين المسلمين الذين يبحثون عن الوحدة التي تُصلح شأنهم، والقوةِ التي تعيد اعتبارهم.

إن الأمر الطبيعي لهذه الأمة المسلمة التي لا ترضى عن دينها بديلاً، أن تتوحد على نداء الإسلام، وأن تصطف على صراطه، وأن يتساقط مما بينها كل حاجز يمنع الصف من الاتصال والالتئام.

وحسبي وحسب كل عاقل دليلاً على أن جميع هؤلاء الذين ينادون بيننا

بنداء القومية العربية بدلاً عن نداء الإسلام، يدركون الحق الذي نقول ويؤمنون به، أنهم لا يجدون سبيلاً يقاومون به تيار القوميات الأخرى، غير الالتجاء إلى ما أبقته العقيدة الإسلامية من خيط بين العرب وغيرهم مقدسين له ومذكرين به، ومحاولين بعث القومية فيه.

ولكن هيهات للقوة أن تدب في هذا الخيط الواهي الضعيف، وقد أبت عقيدة القومية العربية إلا أن تجعله أنكاثاً من بعد قوة، وأن تستعيض عنه بما آل إليه أمر المسلمين اليوم من تفكك وتدابر على مفترق طرق القوميات.. غير أن الفتنة تزول، والقوة تعود، إذا ما نفضنا أيدينا من هذه التجربة المؤسفة، ووقفنا خاضعين من جديد للهتاف الذي بعثه رسول الله ﷺ، من وراء خمسة عشر قرناً، خلال الأجيال قائلاً:

«أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد».

☆ ☆ ☆

هذا هو تاريخ نشأة القومية فوق صعيد الإسلام، وهذه هي وقائع تجربتها، من بعد ذلك.

فليقل دعاة القومية ماذا يعلمون عن تاريخ الوحدة الإسلامية وتجربتها، خلال الأجيال والقرون، هل تجمَّع ما تجمَّع للعرب من مجد وممالك إلا في ظل تلك الوحدة، وتحت قيادتها؟.. وهل ضاع ما ضاع، وتشتت ما تشتت من ذلك، إلاَّ بعد انحسار تلك القيادة؟

هل سمعوا أن كتابياً واحداً من اليهود أو النصارى قد أصابه أي حيف أو ظلم، في ظلال تلك الوحدة والقيادة؟ هل أنبأهم التاريخ - التاريخ الذي

ينطق به أهله لا دخلاؤه الصليبيون - أن المسيحيين ضاقوا ذرعاً في ظلال القيادة الإسلامية، بالإسلام، كما يضيق ذرعاً أرباب القوميات الصغيرة في ظلال قيادة القومية العربية، بالعروبة وقوميتها؟

هل يستطيعون أن ينكروا ما سجله التاريخ من إعجاب النصارى بعدالة الإسلام واطمئنانهم إلى قيادته وحكمه في مختلف الأجيال التي كانت تسير تحت راية الإسلام لا القوميات؟..

أولم يسمعوا قول رسول الله ﷺ: «من ظلم معاهَداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة؟».

ألم يطَّلعوا على اعتراف البطريرك (عيشويابة) عام ست مئةٍ وستة وخمسين، قائلاً: «إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم، يعاملوننا بعدالة كما تعرفون، إنهم ليسوا أعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملَّتنا، ويوقرون قديسنا، ويمدّون يد العون إلى كنائسنا وأديرتنا؟».

يا أيها العرب المسلمون: لا تبدؤوا من حيث انتهت الأمم، ولا تمضوا في الخوض بتجربة خاضها من قبلكم أناس فحفِيَتْ أقدامُهم وضاعت جهودهم وعادوا من سعيهم آسفين نادمين، لقد كان العلوّ القومي نشوة ساورت أمم الغرب فترة، ولكن ها هي ذي اليوم تتخلى عنها، واحدة إثر أخرى، على أعقاب النتائج المريرة التي خلَّفتها لهم التجربة.. هذا إلى أن أمم الغرب لا تملك ما تملكونه أنتم من سلطان المبدأ الجامع، والدين الموحد الذي وحد بلاد الإسلام قروناً طويلة من الزمن، واللغة الجامعة. فإذا كان افتقار أولئك قد زجَّهم في التجربة التي تخلو اليوم عنها، فأحرى بكم، وقد أغناكم الله بجامعة الإسلام، ألا تتورطوا فيها، فضلاً عن الاستمرار في متاهاتها.

على أن الله قد جعل لنا في الإسلام ما يكفل علوّ شأن العربية ولغتها، إذا

رفعنا لواءه وسرنا تحت قيادته وسلطانه، وذلك لما أراده الله تعالى من الرابطة المتينة بين دينه ولغة العرب. ولقد دلت التجربة وأثبت التاريخ أن العرب كلما ازدادوا ارتباطاً بإسلامهم وانضواء تحت جامعته، كان تقديس الأعاجم للعرب واللغة العربية أبلغ وأعظم.. وكلما تنكروا لدينهم واستبدلوا به شعارات القومية المجردة، تنكر لهم الأعاجم ولوَوا رؤوسهم متقززين من جميع شعارات القومية والعروبة وفلسفتها.

هذه سنّة الكون.. وهذا هو واقع التاريخ. فمن كان يبحث عن الحقيقة المجردة، في تحرر وتعقل، فلن يجد مناصاً من الإيمان بواقع التاريخ والخضوع لسنة الكون، والاستسلام لدين الله. أمَّا الحاقد على الحقيقة والمكبَّل بأصفاد التشهي والهوى، فلن يستطيع البحث المنطقي نزولاً إلى حطته التي يصرّ على الركون إليها. ومن ثم فلن يتلاق العقل معه في أي صعيد ولا مجال.

وأختم حديثي لهؤلاء وأولئك جميعاً بقول رب العالمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

الدعوة إلى ترسيخ اللغة العامية في الميزان

الدكتور محمد الطيب الإبراهيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن سار على دربهم ونهج نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد... فإن اللغة العربية في أهم مراحل نضجها قد ارتبطت بالقرآن الكريم معجزة لخاتم رسل الله محمد ﷺ حيث كانت قالباً لكتابه الكريم وأداة لتبليغ رسالة الإسلام، وهي خاتمة الرسالات السماوية الباقية أبد الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وكان نزول القرآن باللغة العربية أول ظاهرة تكريم من الله تعالى للعرب ولغتهم مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠]. ولقد أكد ربنا سبحانه مِنّته على الرسول وقومه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤]، ولقد بين سبحانه أن القرآن العظيم فيه شرفهم وذكرهم وهم معرضون عن ذلك: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧١].

لقد ارتقت اللغة العربية على غيرها من لغات البشر، وخُصَّت من دونها جميعاً بأسباب الرفعة والقوة والخلود.

أما هذا النضج وهذا الاكتمال للغة العربية فلم يكن ذروة وصلت إليها ثم تنحدر عنها، بل إن عناصر هذا الرقي والاكتمال، والقدرة على متابعته والاستمرار فيه هي من خصائص هذه اللغة الفريدة، مما دعا كثيراً من الباحثين واللغويين في القديم والحديث إلى التعبير عن شدة إعجابهم بخصائص العربية وقدرتها على مسايرة الحياة، واستيعابها والتعبير عنها بقوانين تكاد تكون توقيفية من عند الله عز وجل، إذ لا يُعقل أن يفعل مثل هذا أقوام لا هَمَّ لهم سوى التنقل في أرجاء البادية بحثاً عن أسباب الرزق وما يمسك الرمَق[1].

ولم يكن تصورهم بعيداً عن الحقيقة، فكل أمر بتدبير الله وإرادته، وعلم الله القديم الذي يعلم ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤]، قادرٌ على تزويد هذه اللغة - وهي تتكون على ألسنة أصحابها - بما يريد لها من عناصر النماء والخلود.. كيف لا وقد جعل شرعه العظيم محمولاً على أصواتها، وبين حروفها وألفاظها وقوانين عباراتها مما دعا المستشرق آرنست رينان في كتابه (اللغات السامية) إلى القول بكثير من الدهشة والعجب: «إن من أغرب ما وقع في تاريخ بني البشر، وصعُب حلُّ سره انتشار اللغة العربية.. فلقد بدأت فجأة في غاية الكمال، سَلِسَة أيَّ سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، ظهرت لأول مرة تامة محكمة... ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين عاماً حتى اضطر رجال الكنيسة إلى أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى»[2].

---

(١) حقيقة الفصحى وحقيقة العامية ص١، رسالة من منشورات مجمع أبي النور الإسلامي بدمشق للعام الجامعي ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٢) سلطاني محمد علي، حقيقة الفصحى وحقيقة العامية ص٢ من منشورات مجمع أبي النور الإسلامي.

ثم يتابع هذا المستشرق كلامه قائلاً:

«ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرُّحَّل... تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها... ومن يوم أعلنت ظهرت لنا في حلل الكمال، إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر، حتى إنه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعلم شيئاً عن هذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج، وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة»[١].

انتهى كلام آرنست رينان، وإذا كان هذا المستشرق قد دهش من عظمة هذه اللغة لعدم معرفته الأسباب، فإننا نحن معشر المسلمين لا ندهش لسبب واضح قريب، وهو إيماننا بأن الله سبحانه قد صنعها على عينه، لتكون قادرة على حمل كلامه وبيانه وتعاليمه، جديرة به مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٤].

وفي مجال إدراك سهولة هذه اللغة، وضبط قواعدها، يقول العالم الفرنسي (مارسي) في مجلة التعليم الفرنسية ١٩٣٠-١٩٣١: «من السهل جداً تعلم أصول اللغة العربية، فقواعدها التي تظهر معقدة لأول نظرة، هي قياسية ومضبوطة بشكل عجيب يكاد لا يصدق، فذو الذهن المتوسط، يستطيع تحصيلها بأشهر قليلة، وبجهد معتدل»، ويتابع (مارسي) قائلاً:

«إن الفعل العربي، هو لعبة أطفال إذا ما قيس بالفعل اليوناني، أو بالفعل

---

(١) المصدر السابق.

الفرنسي، فليس هناك صعوبة بالاشتقاق، أما النحو فسهل لا تعقيد فيه مطلقاً»[(١)].

وقد خاضت العربية قروناً من التجارب والمحن والاختبارات ونجحت فيها جميعاً، لتصل إلينا وهي أصلب عوداً، وأكثر حيوية، وأقدر على استيعاب الحياة المتجددة، تضج فيها عناصر العطاء والنماء.

ويكفي أن نعود مع الزمن إلى الوراء، لنراها ولم يمضِ على مغادرتها بادية العرب قرن من الزمان، حتى طُلب منها أن تتمثل حضارات عريقة، سبقتها على طريق الفكر والمعرفة، كالحضارة الهندية والفارسية واليونانية والسريانية فأقبلت عليها شامخة، واثقة؛ لتنقل ما يصلح من أفكارها بلسان عربي مبين، تمكَّن بيسر واقتدار من احتواء هذه المعاني وتلك الأفكار، ليتمثلها أبناء العربية من المسلمين، ويعبروا عنها من جديد من خلال عقيدة التوحيد، فتزكو في عقولهم، وتغنى على أيديهم؛ لتنتقل إلى الأمم الأوروبية حية سائغة[(٢)].

ولم تقف العربية عند هذا الحد، بل خاضت تجربة ثانية في القرن الماضي وما زالت تخوضها في استيعاب العلوم والمعارف الحديثة، فترجمت بأقلام المؤمنين القادرين من شيوخ الأزهر وغيرهم، منذ رفاعة الطهطاوي كتب علمية لا حصر لها في الهندسة والطب والعلوم المختلفة مما تزخر به أعمال أساتذة الجامعات في طول الوطن العربي وعرضه، فوضعوا -وخاصة في الطبعات القديمة- من المصطلحات ما هو جدير بالاحتذاء مستفيدين من خصائص

---

(١) من مقال للأستاذ عارف النكدي، بعنوان (بين الفصحى والعامية) ص٤٦ في مجلة مجمع اللغة العربية، شوال ١٣٨٨هـ/ كانون الثاني ١٩٦٩م، عدد خاص بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيس المجمع.

(٢) من رسالة للمرحوم الدكتور محمد علي سلطاني بعنوان (حقيقة الفصحى وحقيقة العامية) ص٣.

العربية في الاشتقاق والنحت والتعريب، فكانت هذه اللغة تسلس قيادها لهم، وتعطيهم بقدر معرفتهم بها، وتضنُّ عليهم بمقدار جهلهم بمفاتيح كنوزها[١].

وما كان للعربية أن تقاوم عاديات الدهر، ولا أن تصارع حادثات الأيام خلال تلك الفترة التي تألَّبت قوى الشر والعدوان، وتضافرت ضدها جهودُ البغي والظلم، فتصرع خصومها وتغلب أعداءها، وتخرج من تلك المعارك ظافرة منتصرة، مرفوعة الرأس عالية الجبين؛ إلا لأنها استمدت عناصر قوتها من لهجة القرآن، ورشفت نُسُغَها من رحيق كتاب الله، إذ لَبِسَتْ من الفصحى ثوباً قشيباً، وارتدَت من لغة القرآن لباساً جميلاً مهيباً.

ثم تسرب اللحن إلى هذا الصرح العظيم، فأخذ يسري في جذوره، وينخر في أصوله، وقد رأى العلماء أن كل خروج على هذا النظام اللغوي المتكامل يعد لحناً، سواء أكان هذا الخروج بخلط الكلام بلغة أخرى، أم في استعمال اللفظة في غير موضعها، أم في مخالفة أي عنصر أساسي من عناصر كيانها اللغوي الذي يميزها من غيرها من اللغات الإنسانية.

وظاهرة اللحن في اللغة العربية ليست وليدة العصر الحديث، فقد ظهر اللحن في كلام الموالي والمتعربين منذ عهد النبي محمد ﷺ، فقد ذكر السيوطي أن رجلاً لحن بحضرته فقال: «أرشدوا أخاكم فقد ضل»[٢]، وكان عمر رضي الله عنه إذا أصاب رجلاً يلحن ضربه بالدِّرة، ولما كتب إليه كاتب أبي موسى الأشعري: «من أبو موسى» كتب إلى أبي موسى: «إذا أتاك كتابي هذا فاضرب كاتبك سوطاً واعزله عن عمله»[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الخصائص لابن جنّي ٢/٨.

(٣) البيان والتبين للجاحظ ٢/٢١٦، والخصائص لابن جني ٢/٨.

ويروي لنا الجاحظ أن أول لحن سُمع في البادية قول أحدهم: «هذه عصاتي» بدل «عصاي»، وأن أول لحن سمع في العراق قولهم: «حيِّ على الفلاح» (بكسر الياء بدل فتحها)[١]، وقيل للحسن البصري: إن لنا إماماً يلحن، فقال: أخِّروه. وقال الحسن: اللحن في الشريف كالجدري في الوجه[٢]. ثم فشا اللحن في العصر الأموي حتى وقع فيه بعض الخلفاء والبلغاء بالرغم من أنه كان عيباً يتحاشاه الناس، فقد نُقل عن عبد الملك بن مروان أنه قال: شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن[٣].

وسبب ذلك فساد لغة العرب لمخالطة من جاورهم، ففساد لغة همدان وحمير والأزد وخولان من عرب اليمن لمخالطتهم لبني حام، وفساد لغة لخم وجذام وغسان لمجاورتهم القبط بمصر والنصارى بالشام، وفساد لغة تغلبَ والنِّمر بن قاسط لمجاورتهم للروم، وفساد لغة تميم وعبد قيس لمجاورتهم فارس، وفساد لغة بكر بن وائل وبني حنيفة لمجاورتهم للنبط، وفساد لغة طيئ لمجاورتهم للروم بالشام[٤].

وبتتبع هذه الظاهرة يلاحظ أنها مشكلة طارئة على اللسان العربي؛ إذ لم تكن قائمة حينما كانت اللغة مَلكةً في ألسنة العرب، وسليقة يأخذها الجيل بالتلقي عمن سبقه، فلما جاء الإسلام، وفارقوا الأوطان لحمل دينهم، وتبليغ دعوتهم إلى الأمم الأخرى، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، من مختلف الشعوب والألسنة، وخالط العربُ الأعاجمَ في شتى صنوف الحياة

---

(١) الجاحظ: البيان ٢/ ٣٦١.

(٢) ابن فلاح اليمني منصور، المغني رسالة دكتوراه في النحو والصرف للدكتور عبد الرزاق السعدي ٢/ ٥.

(٣) الجاحظ: البيان ٢/ ٢٦١.

(٤) هذه أسماء قبائل العرب الذين دخل اللحن لغتهم لمخالطتهم من جاورهم من العجم، ابن فلاح اليمني، المغني ٢/ ٩-١٢.

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فشا اللحن في لغة التخاطب، وانتشر الفساد في اللغة بشتى أنواعه، فهرع العلماء حرصاً منهم على لغة القرآن، فتصدوا لهذه الظاهرة، وألفوا الكتب العديدة في متن اللغة وفي قواعد الإعراب، منبهين إلى لحن العوام والخواص[١]، كما جمعوا الشعر الجاهلي، ووضعوا المعاجم على اختلاف أنواعها. وصنفوا الموسوعات في الأدب والأخبار لحفظ هذه اللغة من العبث والفساد، فأوقفوا هذا الزحف الجارف من العجمة واللحن، وأبقوا لهذه اللغة العتيدة نقاءها وصفاءها، راجين أن يسلكهم الله في جملة سدنة هذه اللغة التي هي وعاء لكتاب الله، وأن يجعلهم من وسائل الحفظ والصيانة لكلام الله تعالى في الذكر الحكيم، وهو الذي تعهد بذلك في محكم تنزيله بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ١٥/٩].

وعلى توالي الأيام، واتساع نطاق الحضارة، ووفرة الشعراء والكتّاب، وكثرة المؤلفات والمصنفات في شتى نواحي الآداب والفنون، ظهر أمر آخر لا يقل عن اللحن خطراً أو ضرراً، وهو شيوع الخطأ اللغوي في الاستعمال، والالتواء في الأساليب، والخروج على سنن العرب في كلامها، وشاع ذلك على ألسنة الشعراء وأقلام الكتّاب والمنشئين، وفي بطون الكتب والأسفار.

فقام جهابذة العلماء، حفاظاً على هذه اللغة وسلامتها من الانحراف

---

(١) معروف، د. نايف، خصائص العربية وطرائق تدريسها، وقد ذكر منها:

١- ما تلحن فيه العوام، كتابان بهذا العنوان (الكسائي ١٨٩هـ)، و(أبي العباس ثعلب ٢٩١هـ).

٢- لحن العامة، ثلاثة كتب بهذا العنوان (لأبي عبيدة ٢٠٩هـ)، و(لأبي حاتم السجستاني ٢٥٥هـ)، و(لأبي عثمان المازني ٢٨٤هـ).

٣- لحن الخاصة (لأبي هلال العسكري ٣٩٥هـ).

والخطأ في التعبير، بالتنبيه على الخطر الداهم والحث على الاستعمال الفصيح، والأسلوب الصحيح المستقيم[١].

وأخذت البحوث والمقالات والمؤلفات تتوالى في هذا الشأن في شتى نواحي البقاع الإسلامية، وكان لكل إقليم أخطاؤه الخاصة، ولهجاته المنحرفة، ألف فيها العلماء، فاستوعبوا أغلب الأخطاء الشائعة، ونبَّهوا الأذهان إلى أوجه الصواب في النطق والكتابة[٢].

واستمرت المؤلفات في ذلك الشأن إلى عصرنا الحديث[٣]، وظلت

---

(١) نذكر منهم:

١- أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ٢٩١هـ، وضع كتاب الفصيح.

٢- عبد الله بن جعفر المعروف بابن درستويه ٣٤٧هـ، ألف كتاب الكُتّاب.

٣- محمد بن يحيى الصولي ٣٣٥هـ، صنف كتاب أدب الكُتَّاب.

٤- عبد الله بن مسلم بن قتيبة ٢٧٦هـ، وله كتاب أدب الكاتب.

٥- حمزة الأصفهاني ٣٦٠هـ، وضع كتاب التنبيه على حدوث التصحيف.

٦- العسكري أبو أحمد الحسن بن عبد الله ٣٨٢هـ، وله كتاب شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف.

٧- الحريري أبو محمد القاسم بن علي ٥١٦هـ، فألف درة الغواص في أوهام الخواص.

(٢) نذكر منهم:

١- الزبيدي أبا بكر محمد بن الحسن ٣٧٩هـ، ألف كتاباً في أخطاء أهل الأندلس في القرن الرابع الهجري سماه: «لحن العامة».

٢- وابن مكي الصقلي، ألف في أخطاء أهل صقلية في القرن الخامس سماه: «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان».

٣- وابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، وضع كتاباً في لحن عامة بغداد في القرن السادس سماه: «تقويم اللسان».

(٣) نذكر منهم:

١- اليازجي إبراهيم بن ناصيف ١٣٢٤هـ الذي عمل كتاباً سماه «لغة الجرائد».

٢- داغر أسعد ١٣٧٧هـ ألف كتاباً سماه: «تذكرة الكاتب».

٣- القطان إبراهيم ١٤٠٣هـ ألف كتاباً فيما عثر عليه من أخطاء المنجد (المعجم المعروف).

٤- الزعبلاوي صلاح الدين ١٤٢٢هـ ألف كتاباً سماه «أخطاؤنا في الصحف والدواوين».

الصحف والمجلات تفيض ببحوث النقاد وشيوخ اللغة، وقرارات المجامع اللغوية في مختلف الأقطار العربية، وكذلك البرامج والأحاديث اللغوية من بعض الإذاعات العربية، بالتنبيه إلى الأخطاء الشائعة، وعشرات الأقلام المشهورة، كل ذلك في سبيل المحافظة على سلامة اللغة، ونصاعة بيانها، وجمال جرسها، وتنقيتها من كل ما يشوبها، مع الإشارة إلى الأسلوب السليم الذي يجب استعماله، وبخاصة في المقالات والكتب الأدبية والقصص والمسرح.

العامية: تعريفها وأسباب حدوثها

واللهجة العامية هي هذا اللسان الذي يستعمله عامة الناس مشافهة في حياتهم اليومية، لقضاء حاجاتهم والتفاهم فيما بينهم، ومع مرور الزمن تتخذ هذه اللهجة صفات لغوية خاصة بها، متأثرة بالعوامل البيئية التي وجدت فيها. ويرى الباحثون أن اللهجات تتقارب وتتباعد بمقدار اقترابها وابتعادها من اللغة الأم من جهة، وبعوامل الغزو الطارئة عليها من خارج أصولها وقوانينها اللغوية من جهة أخرى.

ولعل الناظر في أمر اللهجات العامية في البلاد العربية المختلفة يجد أنها اللغة الأصيلة الوافدة من الجزيرة العربية، مع ما طرأ عليها من تحريف لكثير من ألفاظها نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأعجمية، ونتيجة لتحريف عامة الناس، حينما خرجوا على قوانين اللغة وأنظمتها.

أما اختلاف هذه اللهجات بعضها عن بعض، فمردُّه إلى اختلاف اللغات التي غزتها اللغة العربية في البيئات التي تناولتها الفتوحات الإسلامية، إذ اصطدمت بالفارسية في بلاد فارس، وبالسريانية واللاتينية في أطراف بلاد الشام، وبالقبطية في مصر، وبالبربرية في شمال إفريقية، وبغيرها من اللغات في

مناطق متباعدة من العالم الإسلامي، وبالرغم من انزواء معظم اللغات المحلية، وهزيمتها أمام لغة الإسلام الغازية، فإنها تركت آثاراً واضحة في اللهجات المحكية هنا وهناك.

وقد قسم علماء اللهجات اللغة العربية إلى خمس مجموعات هي: الحجازية والمصرية والشامية والعراقية والمغربية، ووجدوا أن المجموعتين الحجازية والمصرية أقرب المجموعات إلى الفصحى لعدم اختلاط أبنائها بأقوام أعجمية(١).

وهذه العامية إنما هي - في الحقيقة - ظاهرة اعتلال في كيان العربية الفصحى وتاريخها، شاعت في فترات الضعف والجهل والتفكك، فوجد فيها أعداء الأمة باباً واسعاً لبثِّ سمومهم بالإبقاء على هذه العاميات وتأصيلها. واستغل خصوم العربية وأعداء الإسلام هذه الظاهرة المَرَضِية، فقاموا بتلك المحاولات المشبوهة للنَّيل من لغتنا الفصحى، وما أخفقوا بتحقيقه من مآربهم بصرف هذه الأمة عن دينها وتراثها بوسائل العنف المباشرة، وجدوه ميسوراً بمحاربة الفصحى بإشاعة دعاوى صعوبتها، ووعورة قواعدها، وأن لكم - أيها العرب والمسلمون - مندوحةً عنها بالعامية.

خصائص العامية المزعومة

وهي سهلة سائغة ميسورة، تجري على ألسنتكم بلا مشقة، وتبعث التفاهم بينكم بلا عناء، وهي غنية موحية، تغني فيها اللفتة عن الجملة، والكلمة عن المقطع إلى آخر هذه المزاعم السطحية الخادعة، يشجعهم على ركوبها ما يجدونه عند المتساهلين من تقبُّلٍ لها ممن لا يجد عنده فضلة ليلقي على نفسه الأسئلة التالية:

---

(١) معروف نايف: خصائص العربية وخصائص تدريسها ص٥٥، نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية (دمشق)، المجلد (٤٥) السنة ٤٥، ١٩٧٠، ص٦١٤.

١- ترى أية عامية أختار لهذه الأقطار المتعددة؟

٢- وكيف يتم تعليم هذه العامية المختارة لهذه الشعوب الإسلامية التي تملأ أرجاء الأرض؟

٣- وهل سيكون تعلمها أقل صعوبة من تلك الصعوبة المزعومة في تعلم الفصحى؟

٤- وكيف سيتم لهذه الشعوب الاتفاق على اختيار هذه العامية؟

٥- وهل نطلق الحرية لكل بلد ليختار عاميته؟

وبذلك تصبح اللغة العربية مجموعة كبيرة من اللغات المتباعدة، لا يجمعها جامع، ويكون الحصاد آخر الأمر جهلاً بلغة القرآن وأساليبه وحاجة ماسة لترجمته إلى هذه العاميات الكثيرة، فيكون حاله حال الإنجيل مع اللغات الأوروبية، وعندها فقط يسعد أعداء هذه الأمة، والمتربصون بها، ويتحقق لهم من تأصيل الفرقة والتمزق وقطع الصلة بالقرآن، وحصار الدين الحنيف ما يشتهون.

وقد نبه إلى ذلك مستشرق منصف - وما أقلهم! -هو الألماني (فنت فور) وهو يقول: «كثر الحديث عن لغة الشعب، ولغة المثقفين، وهذا غريب؛ لأن الشعب في كل البلاد العربية لا تجمعه عامية واحدة، وإنما تجمعه العربية الفصحى»[١].

أما الذين يتمسكون بالعامية باسم الحرص على التراث الوطني وكنوزه، فقد كفاهم أعداؤهم من المستشرقين مؤونة هذا التمسك، فسبقوهم إلى جمع

---

(١) سلطاني، محمد علي، حقيقة الفصحى وحقيقة العامية، ص٥-٦.

هذه العاميات، ووضعوا لها القواعد، وبذلوا لهذا الغرض أعمارهم وأموالهم، حرصاً عليها، وصوناً لكنوزها، فقل أن تجد مستشرقاً لم يزين دراساته، ولم يكلل مؤلفاته بكتاب يجمع فيه عامية لبيئة، ويضع لها قواعدها ويجمع الأمرين معاً، حتى إن بعضهم تخصص باللغات العامية العربية، فنذر لها حياته ووقف عليها جهده وعمره[١].

وقد بدأت الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى في مصر أيام الاحتلال البريطاني، وكان أول من أطلق هذه الدعوة الدكتور الألماني (وِلْهَمْ سبيتا) حينما كان يعمل مديراً لدار الكتب المصرية عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م.

ولم يمض عام حتى تلقفت هذه الدعوة صحيفة (المقتطف) المعروفة بميولها الاستعمارية وأخذت تروج لها في أوساط قرائها، فتصدى لها الحريصون على سلامة العربية، فأسكتوها.

ثم بدا لهم أن الوقت ما زال مبكراً، فهدأت المناقشة إلى حين، لتعود ثانية إلى الظهور على لسان رجل إنكليزي هو السير (رالف ويلمبور) الذي كان أحد قضاة محكمة الاستئناف الأهلية في مصر، حين ألف سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م كتاباً بالإنكليزية سماه (لغة القاهرة)، واقترح اتخاذ لغتها العامية لغة للأدب والعلم، كما اقترح أيضاً كتابتها بالأحرف اللاتينية، وتبعت المقتطف مجلة الهلال، ففتحت صفحاتها لدعاة العامية أمثال اسكندر معلوف وأمين شميل[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) معروف، نايف، خصائص العربية وطرائق تدريسها، ص٥٥-٥٦، نقلاً عن مجلة مجمع اللغة العربية (دمشق)، المجلد ٤١، جمادى الأولى ١٣٩٨هـ/ أيار (مايو) ١٩٧٨م، بحوث الدورة الرابعة والأربعين.

ونشطت جولة ثالثة حوالي ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م على يد السير (وليم ولكوكس) الذي كان مهندساً إنكليزياً يعمل في مجال الري المصري في ظاهر الأمر، بينما كان في حقيقته من دهاة الاستعمار، إذ كان يظهر التودد والتسامح لعلماء الدين وأولي الأمر، حتى استطاع أن يتولى إصدار مجلة (الأزهر) لحقبة من الزمن، فاتخذها منبراً للدعوة إلى العامية، بل كان ينشر المقالات فيها، ويرصد المكافآت، ويدعو إلى المباراة في الكتابة بها[1]. واستمر ينفث سمومه قائلاً: «إن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة الفصحى، وأنهم لو ألفوا وكتبوا باللغة العامية لأعان ذلك على إيجاد ملَكة الابتكار وتنميتها»[2].

وكانت الدكتورة نفوسة سعيد من الذين رصدوا تاريخ الدعوة إلى العامية، وآثارها في مصر، فقالت: «إن مصدر الدعوة إلى العامية أجنبيٌّ، كما اتضح لي من دراسة الكتب الأجنبية التي تناولت اللهجة المصرية، وخاصة منها ما كان في أوائل عهد الاحتلال البريطاني في مصر[3]، ثم عددتُ المحاولات التي قام بها الأجانب لإدخال العامية، وإحلالها محل الفصحى»[4].

ومن الشواهد التي تستدل بها على صحة دعواها:

١- اهتمامهم الزائد باللهجات العربية العامية.

٢- إدخالهم تدريس اللهجات العامية في مدارسهم وجامعاتهم في إيطالية والنمسة وروسية وفرنسة وألمانية والمجر وإنجلترة.

---

(١) المصدر السابق نقلاً عن مجلة الأمة عدد ٦ ص٧٧، (مقال الدكتور عبد العظيم الديب).

(٢) المصدر السابق نقلاً عن مجلة اللغة العربية دمشق، المجلد ٤١، (بحوث مؤتمر الدورة الرابعة والأربعين).

(٣) سعيد، نفوسة: تاريخ الدعوة إلى العامية ص٨.

(٤) المصدر السابق ص٥٥-٧٧.

٣- اهتمامهم بالتأليف في اللهجات العامية.

وهناك كتب ألفها أبناء العربية - بإيعاز منهم - مثل كتاب: (أحسن النخب في معرفة لسان العرب) لمحمد عياد طنطاوي، وكتاب (الرسالة التامة في معرفة كلام العامة)، و(المناهج في أحوال الكلام الدارج) لميخائيل صباغ[١].

نشاط للمستشرقين في خدمة العامية

وقد نشط المستشرقون في التمهيد لإحلال العامية محل الفصحى، وبذلوا في خدمة العامية جهوداً مضنية، سابقين في ذلك أنصار العامية في زماننا بعشرات السنين، إدراكاً منهم لأهميتها فيما يقصدون إليه من تشتيت الأمة الإسلامية، وحلِّ أواصر الأمة العربية.

ففي كتاب (المستشرقون) وهو في ثلاثة أجزاء لنجيب عقيقي ذكر أن: (ليتمان) الألماني له كتاب (لغة دمشق العربية)، ونللينو الإيطالي له كتاب (قواعد ومفردات العربية العامية في مصر)، وجوينوت الإيطالي له كتاب (لغة البربر) سنة ١٩١٦م، والأب فاكاري الإيطالي له (قواعد العربية المكتوبة والمتكلمة في طرابلس) سنة ١٩٢١م، وبانيتا الإيطالي له كتاب (العربية المتكلمة في بنغازي) في جزأين، وكانيتنو الفرنسي له (الجغرافية اللغوية للعربية العامية في الجزائر والبدو والسوريين واللبنانيين والفلسطينيين)، ودي مورينو الإسباني له (قواعد العربية المغربية)، وشارل بيلا الفرنسي له (لغة البربر)، والأب نخلة اليسوعي له (قواعد العامية اللبنانية السورية)، والأب دالفرني اليسوعي له (المدخل إلى اللهجة اللبنانية) في ثلاث مجلدات، وروايندر الأمريكي، ومعه إدوارد جورجي لهما (العربية السعودية) الطبعة الثالثة.

---

(١) معروف، نايف. خصائص العربية وطرائق تدريسها ص٥٧، نقلاً عن نفوسة سعيد، الدعوة إلى العامية في مصر ص٩ وما بعدها.

ومكاريوس الأمريكي أقلقه جداً حال العرب وهم يكابدون لتعلم لغتهم العربية الأصيلة، فوهب حياته رخيصة لمساعدتهم في إيجاد عربية (حديثة)، فألف عدداً من الكتب الكبيرة منها: (عناصر العربية المعاصرة) في خمسة مجلدات، وأعيد طبعه مراراً، و(المدخل إلى نطق وكتابة اللغة العربية الحديثة) في جزأين، و(مستوى اللغة العربية الحديثة) في ثلاثة أجزاء.

ولم يترك المستشرقون قطراً عربياً إلا واهتموا بعاميّته، وألفوا فيها، فهذا إيدوين الأمريكي له: (قواعد اللغة العراقية)، و(الأساس في اللغة المغربية)، و(معجم اللغة العربية المغربية). وجروتز فيلد الألماني نذر حياته كذلك لخدمة اللهجات العامية، فكان من كتبه (لغة دمشق العربية)، و(قواعد اللغة السورية)، و(نظام الصوتية في اللهجتين السورية واللبنانية)، و(القاف والهمزة)[1].

نشاط المستشرقين في حقل المعاجم العامية

أما نشاط المستشرقين في حقل المعاجم العامية، فلا يقل إخلاصاً عن نشاطهم المتقدم في خدمة العاميات والتقعيد لها، فكان من هؤلاء الجنود المجهولين: جريفين الإيطالي، وقد صنع معجماً للعامية في طرابلس سماه: (التحفة العربية في اللغة العامية الطرابلسية) وصدره بنبذة عن قواعد اللهجة الطرابلسية عام ١٩١٣م، وأتوري الإيطالي صنع كذلك (المفردات القحطانية في لغة اليمن الحالية)، وبارتيلمي الفرنسي عمل (القاموس العربي عن اللغة العامية في حلب ودمشق ولبنان والقدس) في خمسة مجلدات سنة ١٩٣٥م، كما صنع وليم مارسيه الفرنسي كتاب (المعجم) وهو قاموس كبير جمع فيه اللهجات المغربية، وقام ليفي برفنسال الفرنسي بعمل (معجم تطبيقي لعربية

---

(١) سلطاني، محمد علي، حقيقة الفصحى وحقيقة العامية ص٧-٨.

القرن العشرين)، وضع فيلنتشيك الروسي (قاموس اللهجات العامية في آسية الصغرى) وكذلك (معجم العربية في سورية ولبنان وفلسطين) سنة ١٩٤١م[١].

أعمال المستشرقين في حقل الأدب

ولم يكتفوا باللغة والمعاجم، بل التفتوا إلى الأدب يفسدون به الأذواق، ويؤصّلون به لهذه العاميات السقيمة المغرقة، فقام سيرجنت الإنكليزي بجمع (مختارات من الأدب العامي الحضرمي) سنة ١٩٥١م، وقدم كاكيا الإنكليزي دراسات بعنوان (استعمال اللغة العامية في الأدب العربي الحديث) وغيرهم كذلك[٢].

وكان أكثر المستجيبين لدعوة المستشرقين، والناسجين على منوالهم هم أولئك الذين نهلوا من الثقافة الأجنبية، ودرسوا على يد المستشرقين، مع ما يتمتعون به من الحرية في السلوك والتقاليد، وفريق كبير منهم كانوا طلاباً في الجامعات الأمريكية والفرنسية في مصر وفي لبنان. وفي الأسطر التالية سنستعرض تلك النشاطات وأنواع الاستجابات لترسيخ العامية والدعوة إليها في لبنان، وما لقيته من صدٍّ وردٍّ، أو من استجابة وقبول.

ولعل الوقوف على ما جرى في هذه المعركة الكلامية المسموعة منها والمكتوبة، وما أدلى به كل من الفريقين المؤيد والمعارض من أدلة وحجج تجعل المستمع والقارئ يقف من هذه الدعوة موقف الفاحص المدقق، يستخلص النتيجة بعد الدرس والتمحيص مبنية على أسس قويمة وقواعد متينة.

---

(١) المصدر السابق ص٨.

(٢) المصدر السابق ص٩.

الدعوة إلى العامية في لبنان على يد أبنائها

أما الدعوة إلى العامية في لبنان فنترك الحديث عنها إلى أحد دعاتها - يوسف الخال - الذي يحدد لنا تاريخ الدعوة لها بقوله: «لا يوجد حد فاصل - تاريخياً - بين وعيي هذه الظاهرة، وبدء تحقيقي لها. لكنني أذكر أنني في مطلع عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م، وكنت بعدُ طالباً في الجامعة الأمريكية، دعيت إلى إلقاء محاضرة حول النقد الأدبي، فلبَّيت، وألقيت المحاضرة باللغة المحكية.. أثناءها عدد من الأدباء أخذوا يدعون إلى الكتابة بالعامية، وعلى رأسهم سعيد عقل، وبينهم رشدي المعلوف». ويرى الخال أن انتصار العرب على إسرائيل مرهون بانتقالهم من الفصحى إلى العامية المحكية[١].

واستمرت الدعوة إلى العامية، وسلك دعاتها اتجاهات مختلفة:

- منهم من أراد أن تكون العامية بديلاً عن الفصحى، على أن تكتب بالحروف العربية المألوفة. ويمثل هذا الاتجاه الخوري مارون غصن.

- ومنهم من قصد العامية، وأن تكتب بحروف متطوره، ويتمثل هذا الاتجاه بالشاعر سعيد عقل[٢].

- أما أنيس فريحة فإنه - مع ساطع الحصري وعلي حسن عودة - في الوقوف موقفاً وسطاً بين الفصحى والعامية لاستكشاف أنجع الوسائل لجعل لغة الضاد مُوَحَّدَة موحِّدَةٌ في جميع البلاد العربية.

وقد بدا كذلك في مقدمة كتابه (اللهجات وأصول دراستها) يبين:

أن اللغة من الأمور التي ينبغي أن نعيد النظر فيها، فاللغة أساس الفكر،

(١) معروف، نايف: خصائص العرب وطرائق تدريسها، ص٥٨، نقلاً عن النهار العربي والدولي (باريس) عدد١٩٤.

(٢) معروف، نايف: خصائص العربية وطرائق تدريسها، ص٥٨.

وطريق الإنسان لإدراك الكون وقد آن للعرب أن ينظروا إلى اللغة نظرتهم إلى أية مؤسسة أخرى تخضع لقوانين العلم.

ولكن أنيس فريحة ما لبث أن بدأ يعلن أن اللغة المحكية ينبغي أن تولى العناية التي تستحقها فيقول: «وموضوع اللغة الأدبية والمحكية موضوع خطير، ولكنه حساس مثير، ولا غرو فاللغة لصيقة بالدين والأدب والتاريخ والقومية، ولست أشك في أن ما أقوله خروج على المألوف في تفكيرنا اللغوي، ولكني موقن أنكم ستقبلون هذه النظريات بالروح التي يفرضها العلم». ثم يتابع متسللاً لرفع العامية قائلاً: «إن تعريفنا العامية بأنها لغة قائمة بذاتها، حية متطورة نامية، كما يبدو في العنوان، لن يرضي المجموع الأكبر منا، لأننا اعتدنا أن ننظر إلى العامية أنها لغة رديئة فاسدة تتميز باللحن والرطانة والعجمة، فلا يمكن أن تكون حية متطورة نامية، بل إنها تمثل انحطاطاً لغوياً، تمثل الموت في اللغة لا الحياة»[١].

عندما انعقد مؤتمر الأدباء العرب في بيت مري (أيلول/ سبتمبر ١٩٥٤) وأثيرت قضية ازدواج اللغة، وأثرها في الأدب، برزت هذه النظرة - أن العامية ليست لغة بل لهجة فاسدة - أحسن بروز، فانبرى الخطباء يدافعون عن الفصحى بمهاجمة العامية، ووجه المهاجمة أنها ليست لغة، بل لهجة تتجسد فيها الركاكة والرطانة.

وقد أتيح لي أن أتحدث إلى الناس بواسطة الإذاعة، عن قضية ازدواج اللغة، وأثرها في الفكر والتربية والأخلاق، فانبرى صديق لي، الأستاذ زكي نقاش يسفّه الرأي.. قال - حفظه الله -: ... وحَضَرته (أي: أنيس فريحة)

---

(١) فريحة، أنيس، مقدمة كتابه (اللهجات وأسلوب دراستها)، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

أحق منا ومنكم أن يعلم أن العامية لهجة وليست لغة؛ إذ ليس لها صرف ولانحو، وأنها - في الحقيقة - وليدة الجهل والتخلف[١]..

المؤتمرون الأدباء في بيت مري، وحضرة الأستاذ زكي نقاش، في الآداب، إنما يمثلون الفكرة الخاطئة الشائعة عند العرب: العامية ليست لغة. بل لهجة رديئة، ولهذا سنحاول في هذا الفصل أن نثبت:

أولاً - أن العامية لغة قائمة بذاتها.

ثانياً - أنها لغة حية متطورة نامية، تتميز بجميع الصفات التي تجعل منها أداة طيعة للفهم، والإفهام، وللتعبير عن دواخل النفس.

ثم يذكر بعض الفروق بين العامية والفصحى على أنها فروق أساسية جوهرية تبرر اعتبار العامية لغة قائمة بذاتها سواء كان هذا في النظام الصوتي أم التركيبي أم النحوي أم في المفردات، والتوليد والاقتباس[٢].

ويرجع أنيس فريحة سبب الخطأ في الزعم - أن العامية والفصحى لغة واحدة - إلى سهولة الانتقال من العامية إلى الفصحى من عامة المتأدبين الذين قضوا الشطر الأكبر من حياتهم في إتقان العربية قواعدها وشواذها. ويمثل على ذلك بسهولة ترجمة - جملة من العامية إلى الفصحى - عند المتأدبين، وصعوبة ذلك عند الناشئين.

ثم يذكر تحت العنوان (العامية لغة حية متطورة) أن في كل أمة مدرستين:

---

(١) مجلة الآداب البيروتية، العدد ١١، السنة الثانية ص٧٨.

(٢) ويستشهد لذلك برأي ابن خلدون في المقدمة، فإنه شعر أن لغة العرب في عهده ليست العربية الفصحى، بل لغة مغايرة لها، المقدمة ٥٤٤-٥٤٦.

الأولى تنظر إلى العامية على أنها انحطاط لغوي، وأن الأدبيّة هي الفصحى، وتحاول فرضها.

والثانية تنظر إلى اللغة المحكية على أنها نتيجة حتمية لمجرى اللغة واتجاهها، فالعامية تمثل تطوراً طبيعياً نحو الأفضل والأسهل، لا انحطاطاً وتقهقراً.

ثم يدلل على أن العامية لغة حية متطورة نامية بذكر بعض الظواهر اللغوية التي نحسبها تقدماً وتطوراً:

أولاً - فقدان الإعراب، والإعراب في أية لغة بقية من البداوة، فهو مساعد على الفهم، ولكن حكمه حكم كل قرينة أخرى تساعد على الفهم. ثم يستدل لذلك بما قال ابن خلدون[١]، ثم يذكر خصائص للعامية يعدُّها مميزات.

ثانياً - التطور الصرفي والنحوي.

ثالثاً - خضوع العامية لنواميس لغوية طبيعية.

رابعاً - الإهمال والاقتباس والتجديد في المعنى.

خامساً - العنصر الإنساني يضفي على العامية مسحة من الحياة.

ثم يدلل على كل خاصية، ويحاول أن يبرهن على صحتها[٢]، ببراهين لا تقوى على الإقناع، ولأن الواقع يناقضها.

---

(١) في الفصل التاسع والثلاثين في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير، وفي الفصل الأربعين في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر.

(٢) فريحة، أنيس، اللهجات وأسلوب دراستها، ص٩٧، تحت عنوان (العامية لغة قائمة بذاتها حية متطورة).

على أن الذين انتصروا للعامية - ولاسيما المستشرقين - كتبوا عنها، وألفوا لها بلغاتهم، لا بها عجزاً منهم ومنها أن يؤدوا أغراضهم بها؛ لاستحالة القراءة والكتابة بالعامية إلا بالجهد والمشقة.

إلا أن واحداً من أبناء العرب، كتب كتاباً بالعامية، جاء أضحوكة الأضاحيك، لا يقرأ، وإذا هو قرئ بعد كدِّ الذهن، وإعمال الروية، فلا يُفهم إلا بالتفسير والتأويل والترجمة، ثم هو بعدُ يحتاج إلى الاستعانة بأبناء القرية التي أنجبت عالمنا النحرير، وسكت المؤلف بعد ذلك سكوت أهل الكهف، انقطع صوته، ومات كتابه، وماتت فكرته معه[١].

مقارنة بين الفصحى والعامية

والمقارنة بين الفصحى والعامية مقارنة مع الفارق، لا تحتاج إلى دليل إلا إذا احتاج النهار إلى دليل.

فصلاح الفصحى شامل لكل غرض من أغراض الحياة، وللتعبير عن كل جليل ودقيق من المعاني الجليلة الشريفة الرفيعة، إلى الحاجات العادية السوقية الوضيعة. هذا على حين أن اللهجة العامية عاجزة عن تأدية معنى يخرج عن المعاني الساذجة العادية المتعارفة، لذلك كان صوت المنادين باللغة العامية يتقطع بين حين وحين، ويخرج ضعيفاً خانقاً، ثم تذهب به الريح. وتبقى اللغة الفصحى مرفوعة الرأس، ثابتة البنيان[٢].

وإذا أردنا أن نكون في أحكامنا منطقيين أقرب إلى العدالة، وأبعد من

(١) من مقال للأستاذ عارف النكدي بعنوان (اللغة العربية بين الفصحى والعامية) في مجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٣٢، الجزء الأول ص١٩٣، ٢٩ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ/ ١ كانون الثاني ١٩٥٧م.

(٢) المصدر السابق.

الحيف والظلم فإنه يترتب علينا أن نعدد إيجابيات العامية وما تتميز به من الفوائد والمنافع، ثم نعمد إلى تعداد السلبيات والمضار، وذكر المفاسد والشناعات، ثم نقارن بين السلبيات والإيجابيات، ونوازن بين المفاسد والمنافع.

هذا إذا أردنا أن نكون علميين في برهة من زماننا، وأن نكون منطقيين في لحظة من حياتنا، فمن إيجابيات العامية: الاختصار في التراكيب، والاختزال في استعمال الكلمات والجمل، وبخاصة إذا كان التواصل بين المتخاطبين تاماً، فيكتفى بالرمز واللمحة الخاطفة التي تشير إلى تراكيب عديدة. أضف إلى ذلك ذلاقة اللسان في النطق بالعامية، والسرعة في إدارة الحديث بين المتحادثين بها، ولعل إهمال الإعراب، وعدم التقيد بالحركات في أواخر الكلم علاقة وثيقة في خفة النطق بها وسرعة الإبانة عن المضامين، أضف إلى ذلك ما تجده بين من يتبادلون الحديث بالعامية من توادد وانسجام وتحابب وتوافق.

١- أما إذا أردت تعداد السلبيات للتحدث بالعامية فلا يبعدن عنك ما يجري بين المتفاهمين بها من قوقعة فيما بينهم وتمايز يجعلهم في منأى عن غيرهم كأنما هم أبناء جلدة واحدة.

٢- وليست العامية - باعتبار اختيار أصحابها - لهجة واحدة، بل تتعدد بتعدد الميل والانحراف الذي يجري على ألسنة الناطقين بها، وتتعدد بحسب المدينة والقرية والحي والجهة، وما إن يتقدم بها الزمان حتى تزداد انحرافاً وبعداً عن الأصل، فهي متطورة حسب العوامل والدوافع والأزمنة.

٣- وهي لهجة لسانية بحتة تتأبى على التدوين، وتستعصي على الكتابة، وتنأى عن التحديد، وبعض حروفها مزيج غير منضبط إلا بما يجري على ألسن المتحدثين والناطقين. وحتى إذا أريد تدوينها فإنها تعسر قراءتها حتى لمن

كتبها أو دونها. فما يجري على بعض حروفها من التمطيط والإمالة والمدود لا يجري على قاعدة ولا يسير وفق نظام، ولا يدري فيها الواجب والملتزم من السائب المتخير.

٤- وهي غير متوقع منها أن تؤدي من النقل بالأمانة، وأن تحمل من المعاني والدقائق في الوصف وخلجات النفوس ومدارك العقول ما تحمله الفصحى؛ إذ ليس فيها من المفردات والكلمات، والتراكيب والجمل ما يصلح لنقل نتاج الأدب في الفصحى، وما تحمله الثقافة في رحلتها عبر الأجيال والعصور يعسر أن يؤدى بالعامية في رشاقة ووضوح وسلاسة.

٥- ثم هي أولاً وآخراً دعوة تخريق وتمزيق، وصيحة تقطيع وتفريق، تقطع أوصال الأمة وتمزق أشلاءها، وتخرق صفوفها، وتفرق ما اجتمع من أجزائها، لم يُنطق بها في سنة أو كتاب، ولم يتواصل بها الأصدقاء والأحباب، ولم تسجل بها العهود ولا الحدود، ولم يتحدث بها إلا لأجل معدود، لم تحفظ الصلة قائمة بها من القديم إلى الحديث، ولم تذكر من العهود إلى العهد الرثيث.

وإذا أردت مزايا الفصحى، ثم المقارنة بين المزايا والسلبيات فنفعل بذلك كما فعلنا بالعامية.

١- الفصحى لم تؤثر فيها صروف الزمان، ولا تقلب الحدَثان، فطول المدى لم يكسبها إلا قوة واقتداراً، وتعاقب السنين وتوالي الأيام أمكنها من مقارعة الخطوب، والتغلب على الأزمات مهما كان نوعها، فكم توالى عليها الدهر بمعاول الهدم، وكم تعاون الخصوم للنيل منها وكسر شوكتها، فلم يزدْها ذلك إلا رونقاً وبهاء، وكانت تخرج من كل معركة راسخة القدم، قوية البأس، مرفوعة الهام. تزداد متانة وقوة، بمحاولات الأعاجم خفت صوتها، وإسكات نأمتها.

لم تقوَ عليها صروف الأيام، ولم تغلبها محاولات الاستعمار، عبر الانتكاسات المتتالية، والحجج الواهية، والأساليب الهزيلة. ولاسيما بعد أن ترسخت أقدامها بانتشار العلم والصحافة والإذاعة وبقيام دولة عربية لها مجالسها النيابية، وقوانيها وبلاغاتها ومنشوراتها، وكلها لا تصلح لها إلا اللغة العربية الفصحى الصحيحة.

٢- وها هي قد حفظت الصلة قائمة بين القديم والحديث، وها نحن في القرن الحادي والعشرين نقرأ من معلقات الشعراء الجاهلين فنفهم مرادهم، وندرك مراميهم وكأننا في عصرهم، والفضل الأكبر في ذلك لهذا الكتاب العظيم وهو القرآن الكريم الذي تُعد تلاوته قربة إلى الله من كل مسلم في أنحاء المعمورة، ومهما تكن لغته فلابدَّ أن يتلو القرآن باللغة العربية الفصحى ولو لم يفهم معانيه ولم يدرك مراميه.

وهذا هو الذي خيب جهود المستشرقين المضنية في سبيل الفصل بين هذه الأمة ولغتها الفصحى مما جعل أحدهم وهو (جب) يخرج عن توازنه ليقول: «إن هذه المعاهد الدينية لا تزال قائمة، ولا يزال حافظو القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم، ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين».

نعم هذا الذي جعل جهود هؤلاء الكائدين للإسلام وأهله يؤوبون بخيبة أمل، وفشل مسعى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٦].

خلاصات ونداءات

فيا أيها الصلحاء من أبناء هذه الأمة، يامن بالله وكتابه وخاتم أنبيائه تؤمنون، ولأمانة الكلمة تحملون، ولريادة اللغة وأجيالها تتصدرون: دعوا

العامية لأهلها المضطرين إليها، تحيا بحياتهم، وتذهب بذهابهم، لا تؤصلوا لها بدعاية أو رواية، ولا بطباعة أو نشر أو إعلام أو تعليم، اتركوها فقد أغناكم الله عنها بما آتاكم الله من اللسان العربي السوي، ولا تخدعنَّكم أقاويل المروجين ولا أكاذيب المبطلين، فالكنوز الحقيقية تكمن في كتاب الله وأساليبه الرفيعة، تلك التي خلدت بسببها علوم الأمة وحضارتها عبر خمسة عشر قرناً حتى الآن، لتصل إلينا نصوصها حتى الآن، رغم المحن حية نابضة، دعوها فقد أغناكم أعداء كتاب الله مؤونة التورط في رعايتها و(صون كنوزها) والترويج لها وطبع كتبها بأموالهم وأنفسهم، ولن يحصدوا بحول الله إلا الخيبة والخسران في الدنيا، والسعير والعذاب في دار البقاء والخلود، فما أشبه عملهم في محاربة الفصحى بعمل أبرهة الأشرم في هدم الكعبة.

وأنتم يا حفاظ كتاب الله، ويا سَدَنة هذه اللغة العظيمة التي اختارها من بين اللغات قالباً لكتابه ووعاء لحفظه وصيانته، يامن حصرتم جهودكم وكثفتم جهادكم لحفظ هذه اللغة، وصيانتها من كل عبث، فحفظتم مفرداتها ودونتم كلماتها في هذه الموسوعات والمعاجم؛ ليرويها الخلف عن السلف، ويا من قعَّدتم لها القواعد في نحوها وصرفها، فلم تفرطوا في روم ولا إشمام، ولم تقصروا في غنة ولا إدغام، يا من أحطتم برواية القراءات بلا حذف ولا إسقاط، ولم تألوا جهداً في إسناد الروايات لأصحابها، ولا عزو القراءات لأهليها. ما فعلتم ذلك إلا لغاية بلغتموها، ونهاية تواصيتم عليها، ونفذتم بها وصية ربكم فاستحققتم أن تكونوا الأداة التي بها حفظ الله كتابه، فاسعدوا بهذه المنحة، واغتبطوا بهذه العطية، وافرحوا لهذه المهمة التي أناطها الله بكم، وبها فزتم بجنة الله ورضوانه، وعبرتم عن إيمانكم بالفعل لا بالقول، وبالإصرار لا بالادعاء، فحفظتم لنا حروف كلام الله ندية صافية، كأننا نسمعها من أفواه أصحاب رسول الله - رضوان الله عليهم - فحظيتم بما وعدكم الله به

من الرفعة والدرجات العلا يوم يقوم الحساب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٥٠/٣٧].

ولله در شاعر النيل حافظ إبراهيم وهو يُنْطِقُ اللغة العربية بهذه الأبيات التي تُعدُّ ترجمة لهذه الأفكار والرد على خصوم اللغة العربية إذ يقول في ١٩٠٣م:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي[١]

رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عُداتي[٢]

ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالاً وأكفاء وأدت بناتي[٣]

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آيٍ به وعظات[٤]

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ... ومنكم وإن عز الدواء أساتي[٥]

فلا تكلوني للزمان فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي[٦]

---

(١) رجعت لنفسي: أي تأملت. والحصاة: الرأي والعقل. واحتسبت حياتي: عددتها عند الله فيما يدخر. يقول على لسان اللغة العربية: إنني عدت لنفسي وفكرت فيما آل إليه أمري، فأسأت الظن بمقدرتي، وكدت أصدق ما رموني به من القصور، وناديت الناطقين بها أن ينصروني، فلم أجد منهم سميعاً، فادخرت حياتي عند الله.

(٢) العداة: الأعداء، يقول: اتهموني بأني لا ألد على حين أني في ريعان شبابي، وليتني كنت كما قالوا، فلا يحزنني قولهم. وكنى بالعقم هنا عن ضيق اللغة وجمودها.

(٣) يريد بالعرائس الألفاظ المجلوة الحسنة، ووأد البنات: دفنها حية.

(٤) الآي: جمع آية.

(٥) الأساة: جمع آسي وهو الطبيب.

(٦) تكلوني: تتركوني، تحين: تحل.

أرى لرجال الغرب عزاً ومَنْعَةً   وكم عزَّ أقوام بعز لغات[١]
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً   فياليتكم تأتون بالكلمات
أيُطرِبُكم من جانب الغرب ناعب   ينادي بوأدي في ربيع حياتي[٢]
ولو تزجرون الطير يوماً علمتم   بما تحته من عثرة وشتات[٣]
سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً   يعز عليها أن تلين قناتي[٤]
حفظن ودادي في البلى وحفظته   لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرقُ مطرقٌ   حياءً بتلك الأعظم النخرات[٥]
أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً   من القبر يدنيني بغير أناة[٦]
وأسمع للكُتَّاب في مصر ضجة   فأعلم أن الصائحين نعاتي[٧]
أيهجرني قومي -عفا الله عنهم-   إلى لغة لم تتصل برواة[٨]
سرت لوثة الأفرنج فيها كما سرى   لعاب الأفاعي في مسيل فرات[٩]

---

(١) يقال: هو في منعة: أي في قوم يحمونه ويمنعونه.

(٢) الناعب: الصوت بما هو مستكره، ربيع الحياة: أيام الشباب والقوة.

(٣) زجر الطير: هو أن ترمي الطائر بحصاة، أو تصيح به، فإن ولاك في طيرانه ميامنه تفاءلت به خيراً وإن ولاك مياسره تطيرت منه، والعثرة: السقوط، والشتات: التفرق، يقول: لو استنبأتم الغيب بزجر الطير - كما كان يفعل العرب - لعلمتم ما يجرُّ عليكم دفني من السقوط والانحلال.

(٤) القناة: الرمح، ولينها كناية عن الضعف، ويريد بالأعظم: من دفن بالجزيرة من الأولين.

(٥) النخرات: البالية المتفتتة.

(٦) المزلق: مكان الانزلاق، أي: السقوط والزلل، والأناة: التأني والإبطاء، ويريد وصف لغة الجرائد إذ ذاك بالضعف.

(٧) النعاة: جمع ناع وهو المخبر بالموت.

(٨) لم تتصل برواة: أي لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من التغير، كما هو الشأن في العربية، ويشير إلى تلك اللغة المرقعة التي كانت مستعملة أيام نشر هذه القصيدة.

(٩) اللوثة: بالضم عدم الإبانة. ولعاب الأفاعي: سمها. والفرات: الماء العذب.

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائي بعد بسط شكاتي[1]
فإما حياة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلك الرموس رفاتي[2]
وإما ممات لا قيامة بعده ممات لعمري لم يقس بممات

(١) الشكاة: الشكاية والشكوى.

(٢) الرموس: جمع رمس وهو القبر، والرفات: الدقاق وما بلي وتفتت.

فهرس المصادر والمراجع

لمقالة (الدعوة إلى ترسيخ العامية في الميزان)

للدكتور محمد الطيب الإبراهيم

١- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، بتحقيق عبد السلام هارون.

٢- ابن جني: أبو الفتح، عثمان، الخصائص، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية.

٣- سلطاني، محمد علي، حقيقة الفصحى والعامية، من منشورات مجمع أبو النور الإسلامي، العام الجامعي ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٤- فريحة، أنيس، مقدمة كتابه (اللهجات وأسلوب دراستها) الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٥- ابن فلاح اليمني، منصور، المغني في النحو، رسالة دكتوراه في النحو والصرف (تحقيق ودراسة) للدكتور عبد الرزاق السعدي.

٦- مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلدات ٣٢/ ١٩٥٧م، ٤٣/ ١٩٦٨م، ٤١/ ١٩٧٨، مقالات حول الفصحى والعامية.

٧- معروف، نايف، خصائص العربية وطرائق تدريسها، بيروت - دار النفائس، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٨- النكدي، عارف، بين الفصحى والعامية، مجلة مجمع اللغة العربية، شوال ١٣٨٨هـ/ كانون الثاني ١٩٦٩، عدد خاص بمناسبة مرور خمسين عاماً على تأسيس المجمع.

في تكريم الدكتور شوقي

الأستاذ الدكتور مازن المبارك

الأخ الفاضل الدكتور شوقي أبو خليل حفظه الله..

..وبعد، فقد عرفتك من كتبك قبل أن ألقاك، ثم لقيتك، ثم ازددتُ قرباً منك فإذا أنت أنت، وإذا فكرك الذي قرأت وعقيدتك وآراؤك التي عرفت، كل ذلك مطابق للسلوك الذي رأيت، لقد سُعدت أنني أمام إنسان لا ازدواجية بين لسانه وسلوكه، ولا بين قلمه وأخلاقه، فاللسان والقلب والجوارح تلتزم طريقاً واحداً لا تغادره، والعقيدة المستقرة في القلب والظاهرة على اللسان هي ما يترجم عنها السلوك ويعبّر عنها العمل.

وسعدت أنني رأيت فيك مسلماً حرّاً، لا يعنيك إلاّ أن تكون مسلماً وكفى، ولا تعنيك الطاعة والعبودية إلاّ لله.. لقد أسعدني يا أخي إدراكك أن كمال العبودية لله هو حقيقة الحرية للإنسان؛ لأنها وحدها العبودية لله هي التي تحرّر الإنسان وتخرجه من عبودية الإنسان، ولأنه كلما زادت عبودية المرء لخالقه ارتقاءً وكمالاً زادت حريته بين الخَلق، وكانت حقيقة العبودية لله هي حقيقة التحرّر ممّا سواه.

وإني أحيي قلمَك المسلم الحرّ الذي كتب للأطفال وللناشئين وللكبار قصصاً وتاريخاً وتراجم رجال، وصنع المصوّرات لأعلام القرآن الكريم

والحديث النبوي، فلم تكن له شطحات، ولم تغلبه عاطفة، ولم يصدم علماً أو يصادر عقلاً..

وأحيّي قلمك الناقد الذي وضع في (الميزان) رجالاً كشف حقيقتهم، وفضح المطبّلين والمزمّرين من كتّاب وإعلاميين جعلوا منهم - في غفلة أو سذاجة - أعلاماً في القصة والتاريخ، وروّاداً للنهضة العربية!!

إليك يا أخي تهنئتي لما وفّقك الله إليه، وإليك هذه الطاقة (الباقة) استخلصتها وصفّيتها لك من كتبي ومقالاتي هدية لك واعترافاً بفضلك في يوم تكريمك.

اللّغة

- اللغة صفة الأمة في الفرد، وآية الانتساب إلى القوم، وحكاية التاريخ على اللسان.

فمن أضاع لغته فقد تاه عن نفسه، وفقدَ نسَبَهُ، وأضاع تاريخه.

(مقالات في العربية/٥)

- لا يبلغ الوعي السياسي والقومي مداه ما لم يقترن بوعي لغوي سليم.

- الوحدة اللغوية تمهيد للوحدة السياسية، تدفع إليها ثمَّ تحافظ عليها.

- ليست حماية الأمة بحماية أرضها فحسب، ولكنها - قبل ذلك - بحماية لغتها من الضعف والضياع.

- الدعوة إلى العاميّة دعوة جاهل أو شعوبي.

وهي لا تعني - اجتماعياً - غير التقاطع والانزواء وقوقعة المجتمعات الضيّقة ولا تعني - قومياً وسياسياً - غير تفكيك وحدة الأمة وتمزيق شعوبها والإكثار من كياناتها المتجزئة.

ولا تعني - إسلامياً - غير إنشاء جيل مسلم بلا قرآن!

(نحو وعي لغوي/١٨)

- نقول للواقفين في وجه التعريب، واللاهثين وراء التغريب، والذين تُعشّش في عقولهم (عقدة الخواجة) ولو كانوا أصحاب مناصب:

هل حدثنا تاريخ التقاء الغرب بالشرق حين التقيا لقاء الغرب المتعلم بالشرق المعلّم أنّ الغرب استشرق أو استعرب بلسانه أو فكره؟ هل ذكر تاريخ أمة في الدنيا أنّ غربياً واحداً نادى يوم كان الغرب يقعد من العرب مقعد التلميذ من أستاذه في الأندلس بأن تكون العربية لغة التعليم في الغرب؟؟ إنّنا لم نسمع بشيء من هذا، ولن نسمع به ما دام بين الناس من يعرف أنّ اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم، وإنّما هي جزء من شخصية الأمة، وركيزة من ركائز قوميتها، وشيء من معناها.

(نحو وعي لغوي/٢٨)

- وحدة العرب اللغوية أقوى من وحدتهم السياسية.

بذلك نطق التاريخ حين انحلّت الوحدة السياسية، وقامت في أحضان الخلافة العباسية دويلات وكيانات، وبقي اللسان العربي الواحد يجمع شعوب تلك الدول والكيانات.

وكذلك يحدثنا اليوم أنّ العربية واحدة موحَّدة وموحِّدة على رغم كثرة الأسماء التي تعبّر بها الشعوب العربية اليوم عن أقطارها؛ لأن القول بأن الوطن العربي يمتدّ من الخليج إلى المحيط لا ينطبق إلاّ على الوطن الذي تسود فيه اللغة العربية الفصحى. إنّها وحدها اليوم مظهر تلك الوحدة.

(نحو وعي لغوي/٣٢)

- إنّ أبرز ما تفخر به لغتنا العربية أنها قادرة على الاستجابة لمطالب التجديد بما تتصف به من مرانة التعبير والقدرة على التوليد والاشتقاق، مع محافظة على صفات الأصالة والخلود، وهي لولا هاتان الصفتان لما بقيت حتى اليوم، ولما اتّسعت لعلوم الطب والفلسفة وسائر العلوم ثمّ ظلّت يفهمها ابن القرن العشرين عن ابن الجاهلية، لم تقطع بينهما الأيام ولم تختلف فيما بينهما الحروف.

(نحو وعي لغوي/٣٨)

- إنّ كلّ دعوة إلى بناء المجتمع العربي، مهما تلبس من أثواب وترفع من شعارات، وتنشر من أفكار ودعوات روحية أو سياسية، أو وطنية أو اجتماعية أو ثقافية، إذا لم يكن للغة فيها نصيب فهي دعوة ناقصة أو متناقضة.

- إنّ كلّ دعوة إلى نهضة الأمة العربية، مهما يكن اسمها أو شعارها إذا لم توفّر للغة العرب أسباب نهضتها، فهي دعوة بتراء.

- إنّ كلّ حماية للأمة في حدود أوطانها وصدّ العدوان عنها، إذا لم تتكفل بحماية لغتها من الضياع والمزاحمة فهي حماية ناقصة.

(نحو وعي لغوي/٤٤)

- إنّ كلّ وعي ثقافي أو سياسي أو قومي لا يتأتّى على وجهه الصحيح، ولا يبلغ الكمال إذا لم يرافقه وعي لغوي سليم، وكيف يكون هناك وعي ثقافي أو قومي إذا لم يرافقه بل يسبقه وعي لأول مقومات الثقافة والقوميّة؟

(نحو وعي لغوي/٤٣)

- إنّنا لا نسمّي واعياً من اكتفى بفهم اللغة، أو أحسن التكلّم بهما، أو مهَر بالإنشاء على أساليبها. ولكن الوعي السليم - في مجال اللغة - أن يفقه

المرء طبيعة لغته وحقائق خصائصها، ويتّخذ - بعد ذلك - من مشكلاتها موقفاً واعياً مبصراً ينسجم مع وعيه لجميع جوانب حياته الروحية والسياسية والقومية والفكرية.

(نحو وعي لغوي/٤٣)

- إنّ الأمة العربية اليوم بأبنائها وشعوبها ومصلِحيها وحكوماتها في أشدّ الحاجة إلى بعث الوعي اللغوي السليم الذي افتقده الكثيرون، فكانت لهم أمام أعيننا مواقف غريبة، لا مبالية، أو شاذة، أو هدّامة، من لغة الأمة.

- إنّ اللغة مِلك للناس جميعاً يتكلمونها، ولكنه ليس من حق كلّ منهم أن يتصرّف بها على وفق هواه، وهم لو فعلوا ذلك لكانت اللغة أمراً فردياً لا يحقق الغاية التي وجدت من أجلها، وهي التفاهم الاجتماعي. إنّ الناس يتكلمون اللغة كما يستعملون الدواء، وليس غير الطبيب المختص يستطيع أن يصف الدواء، وليس الطبيب في ميدان اللغة من كتب قصة أو نظم قصيدة أو دبّج مقالة في صحيفة.

(نحو وعي لغوي/٤٨)

- لقد كان من مفاخر اللسان العربي أن كان هو المظهر اللغوي للمعجزة الإلهية الخالدة المتجليّة في القرآن.

(نحو وعي لغوي/١١٦)

- ليس مخلصاً للعروبة ولا للغتها، وليس صادقاً في ادّعائه القومية العربية، من لم يَدْعُهُ إخلاصه لها وصدقه في حبّها إلى تقدير القرآن وهو كتابها الأكبر، وأنموذج أدبها المعجز، والكتاب الذي ما تجلّت لغة في الدنيا بمثل ما تجلّت به لغة العرب.

وليس مخلصاً للإسلام ولا صادقاً في حبّ القرآن من لم يدعه حبّه وإخلاصه للإسلام إلى العناية باللغة العربية - أيّاً كانت لغته الأم - لأنّ العربية لسان الدين الذي يخلص له ولغة القرآن الذي يحبّ.

(نحو وعي لغوي/١٣٠)

- إن قولنا أن الوطن العربي يمتد من الخليج إلى المحيط، قول ينطبق أول ما ينطبق وأصدق ما ينطبق على وطن اللسان العربي المشترك. ومن هنا يجب الربط بين الوعي القومي والهدف الوحدوي من جهة، والوعي اللغوي من جهة ثانية.

(اللغة العربية/٧)

- إنّ الأمّة التي تهمل العناية بلغتها أمة تحتقر نفسها وتفرض على أجيالها التبعيّة الثقافية لغيرها.

(اللغة العربية/١٩)

- إنّه لموقف مريب أن نلقّن طلابنا شرفَ لغتنا وكونها دعامة قوميتنا، ثمّ نباعد بينهم وبينها، ونعزلها عن ساحات العلم والتعليم، ونقْصُرَ تعليمها على من سيختصوّن بها وكأنها لغة أجنبية!!

(اللغة العربية/٣٤)

- إنّ الذين يتحدثون عن ضعف اللغة ولا ينظرون إلى ضعف الأمة وما وصلت إليه يغمضون أعينهم عن رؤية الواقع العربي ويفتحونها على واقع اللغة العربية وحده كمن لا ينظر إلاّ بعين واحدة، ولا يرى من القضية إلا جانباً واحداً.

(اللغة العربية/٦١)

- اللغة تاريخ فكري للأمة يصل بين أجيالها.

(مجلة العربي، العدد ٣٧٢)

- إنّ نقل ثمرات التقدّم العلمي والفكري لا يقتضي تبنّي اللغات التي كُتبت بها، وإلاّ تخلّت معظم الشعوب عن لغاتها الأصلية.

(العربي، العدد ٣٧٢)

- لقد نقل العالم قديماً علوم العرب والمسلمين، ولم ينقل لغتهم، والأمم اليوم تتناقل العلوم ولا تتناقل اللغات.

(مقالات في العربية/٥٠)

- أليس عجيباً ومؤسفاً أنّ المثقف العربي في مجتمعنا يخجل ويعتريه الشعور بالنقص إذا هو أخطأ بلغة أجنبية يتحدث بها ثمّ هو لا يبالي إذا تحدّث بالعربية أن يجانب الصواب في كثير مما يقول!!؟

(مقالات/٥٦)

- تتميّز اللغة من بين سائر العلوم بأنها مزدوجة المنفعة أو ثنائية الغاية؛ لأنّها بالإضافة إلى أنها علم بذاتها، وسيلة لاكتساب غيرها من المعارف والعلوم.

(مقالات/١٨٦)

العلمانية بين الدولة وشروط النهضة

الأستاذ الدكتور احمد محمد قدور

تمهيد

عادت في السنوات الأخيرة من خلال مراجعة المشروعات السياسية والفكرية الراهنة الدعوة إلى العلمانية، على أساس أنها المنقذ من ضلال الواقع الذي تتردى فيه الأمة بعد إخفاق (النهضة) العربية بشقيها الاقتصادي والسياسي. ويرى دعاة العلمانية الجدد أن (المشروع) القومي حول العلمانية إلى (شعار) فارغ من أيّ مضمون؛ لأن هذا المشروع يتسم بالعفوية والشعبية، ويقوم على تلفيق المعطيات التاريخية[1]. أما المشاريع الماركسية والدينية فلم تحفل بالعلمانية أصلاً على أيّ صعيد نظري أو عملي.

والعَلْمانية لغة مصدر صناعي مأخوذ من (العَلْم) بمعنى العالم، وهو خلاف الديني والكهنوتي[2]. وترجع جذور هذا المصطلح - وهو أوروبي - إلى الكلمة اليونانية (Laicos) التي تعني الشعب كلّه ما عدا رجال الدين. وبناء على ذلك جرى التميز ما بين الشعب الذي يعيش حياته بكل معطياته، وبين

---

(١) انظر: جاد الكريم الجباعي (العلمانية في المشروع القومي الديمقراطي)، مجلة الوحدة، السنة السابعة، العدد (٥٧)، كانون الأول ١٩٩٠، ص١٢٥.

(٢) انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٦٢٤.

رجال الدين الذين يتدخلون في هذه الحياة من أجل ضبطها[١]. ونجد لدى بعض الباحثين مصطلحاً آخر هو (العَلْمنة) بمعنى الاتجاه نحو (الدنيا) (Scularisation) أي نزع التقديس عن وجه الأرض، إذ إن ما كان البشر يعتقدونه مقدّساً ودينياً طيلة العصور الوسطى قد رُدّ إلى حالته الطبيعية، وصار مادياً صرفاً[٢].

ويبدو واضحاً أن العلمانية وما أُلحق بها من مصطلحات أو تبعها من تفسيرات برزت في الفكر الغربي ضمن ما عرف بصعود البرجوازية الصغيرة، والتحوّل من الإقطاع، وتغليب علوم الطبيعة. وقد توافقت وعصر التنوير الأوربي الذي قدّم شعارات المساواة والحرية والعدالة، ورفض سلطة الكنيسة والملكية، وأعلى من شأن العقل، وفصل الدولة عن سلطة الدين.

وفي نطاق المأزق الخطير الذي تواجهه الأمة يتجه بعض المفكرين إلى إعادة بناء مفهوم العلمانية ضمن جوّ محموم يحمّل كلّ ما جرى من إخفاق للدين والقومية دون احتساب أيّ دور للاستعمار والقوى الصهيونية في هذا الإخفاق. ويبشر بانتهاء عصر الإيديولوجية لصالح العولمة وفرض مبادئ الانتقائية البراجماتية في السياسة والاقتصاد والفكر والتعليم، ويهدّم منجزات الأمة ويتهمها بالعجز، ويصِمُها بالإرهاب والتخلّف. ويبدو أنّ هذا الاتجاه يمتدّ إلى الستينيات من القرن الماضي حين نشأت حركة مقاومة للفكر القومي حين ظهر تأثيره قادها مستغربون بشّروا بالوضعية، وانحازوا إلى النزعات العرقية والطائفية، وعمّقوا الصراع بين اليمين واليسار، وأوهموا الناس أن

(١) انظر: جاد الكريم الجباعي، مرجع سابق، ص١٢٦.

(٢) انظر: هاشم صالح (مقال في الحداثة) مجلة الوحدة، السنة الخامسة، العدد (٥١)، كانون الأول ١٩٨٨، ص٢٩١.

القضية الأولى بالاهتمام هي قضية توزيع الثروة، وحرّضوا على الصراعات الإقليمية[١].

مراجعة لمفهوم (العلمانية) في الفكر العربي

يتبين للدارس أنّ مفهوم العلمانية طُرح في خطابنا الفكري الحديث في ظروف مشابهة للظروف التي ظهر فيها أصلاً في أوروبة بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، إذ وقف العرب مع مطلع القرن العشرين على وضع شابه الكثير من المظاهر التي توصف عادة بالتخلّف، وتطلعوا إلى بناء دولة حديثة، على أسس جديدة تستعين بفكر عصر التنوير وشعاراته التي منها (العلمانية) التي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة. وقد جرى في هذا السياق جدل شهير بين محمد عبده (ت١٩٠٥م) وفرح أنطون (ت١٩٢٢م) دار حول مفهوم النهضة وبناء الدولة الحديثة. ورأى محمد عبده أن السبيل إلى تحقيق ذلك هو إنشاء دولة الإسلام القائمة على الخلافة والجامعة الإسلامية ومواجهة الصليبية الاستعمارية. على حين رأى أنطون أن الاستعانة بفكر عصر النهضة والتنوير الأوروبي هي التي تحقق المطلوب؛ لأن التأخر لا يعالج بالرجوع إلى الوراء، بل بالاستفادة من أصحاب التقدّم الذين نجحوا في التخلص من آثار الانحطاط، لأنهم استندوا إلى مبادئ الحرية في الفكر والعقيدة، وأعلنوا المساواة ورفضوا التميز، وفصلوا بين الدين والدولة لما يشكله الدين من عرقلة للتقدّم العلمي وتدخّل في شؤون الناس، وابتدعوا مفهوم المواطنة والتسامح الديني[٢].

---

(١) انظر: سمير بطرس (الهجمة الثقافية الجديدة على القومية العربية، خصائصها واتجاهاتها)، مجلة الوحدة، السنة الخامسة، العدد (٥٠)، تشرين الثاني ١٩٨٨، ص١١١-١١٢.

(٢) انظر: كمال عبد اللطيف (مفهوم العلمانية في الخطاب السياسي العربي، الحدود والآفاق)، مجلة الوحدة، السنة الثالثة، العدد (٣١/ ٣٢)، نيسان/ أيار ١٩٨٧م، ص٦٢-٦٣.

ويضاف إلى ما تقدّم كتاب علي عبد الرازق (ت١٩٦٦م) (الإسلام وأصول الحكم) الذي صدر عام ١٩٢٥، وهو ينطلق من مفهوم الليبرالية وضرورة فصل الدولة عن الدين؛ لأن النبوة شيء يختلف عن الدولة التي يُحتكم فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة. ويدافع عبد الرازق عن دنيوية الفعل السياسي وتاريخيته؛ لأنه فعل بشري نسبي قابل للتطوير والتغيير[١].

ولا يخفى على الدارس أنّ هذه الآراء التي روج لها بعدئذ لطفي السيد وطه حسين وإسماعيل مظهر وسلامة موسى وغيرهم جاءت في إطار الليبرالية الغربية التي بدأت تغزو الشرق الإسلامي، وتحاول أن تجد لها موطئ قدم. وقد تم لها ذلك في تركية التي قادها مصطفى كمال أتاتورك (ت١٩٣٨م) إلى العلمانية المتطرّفة، وبنى دولة على أسس انقطاع سيرورة التاريخ، واعتماد القطيعة المعرفية، والاتجاه بالمكان غرباً نحو أوروبة، وقد غذّت محاولات أتاتورك ومشروعاته المتطرفة الصهيونية المقنّعة التي وجدت مجالاً للثأر من الخلافة الإسلامية التي رفضت بيع فلسطين للمهاجرين اليهود.

وقد أعجب بأتاتورك وأفعاله عدد من المفكرين والكتاب، ورأوه قدوة لما يمكن أن يكون عليه الحال في البلاد العربية التي كانت تشارف على بناء دولها الحديثة، لكن شيئاً مما تمّ في تركية لم يجاهَر به في هذه الدول حين أسّست، مع أن دساتيرها ضمّت مفردات جديدة كالمساواة والحرية والعدالة والمواطنة، غير أنها لم تقترب من التصريح بالقطيعة المعرفية والتاريخية، وفصل الدين عن الدولة، مع أن معظمها جعل الشعب مصدر السلطات، واستورد النظم والشرائع الغربية[٢].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص٦٤-٦٥.

(٢) تجدر الإشارة إلى انفراد بورقيبة الرئيس التونسي السابق بالتصريح بأن مصطفى كمال أتاتورك هو ملهمه، وقد طلب من أستاذه (مانتران) تزويده بكل المستندات التي بحوزته حول =

لكنّ الجدل حول ضرورة العلمانية لبناء الدولة تراجع كثيراً إبان صعود الفكر القومي بعد الحرب العالمية الثانية، وإنشغال الناس بقضية فلسطين، وما خلّفته من آثار ساعدت على تلاحم الحاضر والماضي، ووافقت ما بين الدين والدولة إلى حدّ بعيد. ومعروف أن الفكر القومي لم يركز على العلمانية بوصفها شرطاً لبناء الدولة، ولم يقم أصلاً على القطيعة التاريخية والمعرفية، ولم يغامر كما غامر أتاتورك. بل قام هذا الفكر على البعث والإحياء والتوسّط العقلاني، وحقّق بالممارسة فصلاً عملياً بين عناصره (المدنية) التي لا حرج من نقل عناصرها كافة؛ لأنها أدوات العيش ووسائل التنمية من جهة، وعناصر (الثقافة) التي غلب عليها المعطى التراثي المستند إلى حضارة عبقرية، مع الانفتاح المتّزن على الثقافات العالمية على سبيل الإغناء والرفد، لا الإحلال والرفض من جهة أخرى. وواضح أن الاتجاه القومي قَبِلَ الدين بوصفه جوهراً ومثالاً وعنصراً لبناء الشخصية العربية التي تمتاز من غيرها بقوة أركانها الروحية والتاريخية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض دعاة الفكر القومي انزلقوا إلى تفريغ المفهوم الإحيائي التصالحي من محتواه الحقيقي لصالح الانحياز إلى الفكر الماركسي ومبادئه الاقتصادية، ممّا شجع بعض الكتاب على تحويل مسيرة الفكر القومي الأولى إلى طريق أخرى استبعدت أيّ تلاق بين الدين والدولة. ويبدو لي من الوجهة الفكرية الصرف أنّ هؤلاء فهموا أن (الاشتراكية) جزء من المفهوم

= فكر أتاتورك قبل انطلاقه إلى (الإبداع التشريعي)؟ وقد قدّم بورقيبه نفسه شخصاً علمانياً، وقال عن نفسه: «إنه ملحد». ومعروف أنه ألغى التعليم الإسلامي، وأنشأ قانوناً للأحوال الشخصية مخالفاً للشريعة، وقام بنفسه بنزع غطاء الرأس عند النساء، ومنع الصلاة في المؤسسات وأنكر الصيام وأفطر علناً أمام الجمهور وهزئ بالحج وشكك بالنبوة والقرآن. انظر: عبد المجيد تراب الزمزمي، تونس في مواجهة التضليل: (البورقيبة وماهيّة تغيير السابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، دار الروضة، بيروت ١٩٨٩، ص١٢١ وما يليها.

النظري المبدئي للفكر القومي، مع أنها (عنصر) إجرائي يحقّق ذلك الفكر في مرحلة ما، ربما ينتهي حين تنتهي، ويظهر عنصر آخر، على حين أن الفكر المبدئي ثابت، وهو إنشاء الدولة القومية الموحّدة التي تستند إلى رسالة الأمة الحضارية التي عمادها الإسلام والعروبة. فالاشتراكية التي أُعلنت شعاراً لا تعدو كونها وسيلة إلى التنمية، وهي اشتراكية توفيقية وجدت لدى بعض المفكرين الإسلاميين مهاداً إسلامياً يبعدها عن الطابع الماركسي المستورد.

وتجدر الإشارة إلى أنّ العلمانية التي ابتدعتها أوروبة للتخلص من آثار الكنيسة والإقطاع، ونجحت في فصل الدولة عن الدين من حيث الامتيازات والتدخل المباشر أبقت على الدين جزءاً من الحياة الاجتماعية، مع إفساح المجال للتملص من الدين بالليبرالية وحرية المعتقد. أما ما فعله أتاتورك فقد كان من باب (هدم) الدين، لا فصل الدين عن الدولة. ولذلك تدخّل في اللباس والمدارس والشعائر والقوانين، وسعى إلى جعل الناس ينسون تاريخهم وثقافتهم ودينهم بالقوة[1]. وكذلك كانت الماركسية التي لم تضع العلمانية ضمن أسسها، مع أنها تلتقي مع بعض نتائجها كالبعد عن الدين وقبول الإلحاد[2]. وليس خافياً أنّ بعض الدول العربية التي انحازت إلى اليسار انحيازاً متطرفاً اتجهت الوجهة الماركسية نفسها في (هدم) الدين، وجعل ذلك من مبادئها التي تقود إلى الحداثة واللحاق بركب الحضارة، مع أن هذه الدول لم تحقّق شيئاً من ذلك ما خلا جلب النكبات وافتعال الحروب والفتك بالشعوب[3].

---

(١) انظر: كمال عبد اللطيف، مرجع سابق، ص٦٦، وقارن بكتاب الزمزمي: تونس في مواجهة التضليل للربط بين أتاتورك وبورقيبة ومقارنة أعمالهما، ص١٢٢-١٢٤.

(٢) انظر: جاد الكريم الجباعي، مرجع سابق، ص١٢٥. وانظر: علي المؤمن (العلمانية المتديّنة)، جريدة السفير، العدد (٩٦٦٤١)، ٣ تشرين الثاني ٢٠٠٣، ص١٩.

(٣) ظهر ذلك واضحاً في اليمن الجنوبي (دولة اليمن الديمقراطية والشعبية)، كما ظهر بصور أخرى متفاوتة في الجزائر والعراق وغيرها، ولكن لفترات قصيرة لم تشكل منهجاً سائداً في الحكم.

والخلاصة أنّ الدولة الغربية الحديثة حيادية بين الدين والدنيا، أما الدولة الأتاتوركية فهي معادية للدين أصلاً. على حين أن معظم الدول العربية والإسلامية ليست حيادية بين الدين والدنيا (أي بين الدين والدولة)، لأنها تولي الدين أهمية خاصة، وتنتقي مجالات اللقاء والفصل وفقاً لما تقتضيه مصالحها. وتخصص بعض هذه الدول مؤسسات دينية مختلفة لها حق الرقابة أو تقديم المشورة أو الفتيا أو القضاء.

إعادة بناء (العلمانية) في المرحلة الراهنة

تتعالى الصيحات في هذه الأيام داعية إلى إعادة بناء العلمانية لتلافي المأزق الخطير للنهضة العربية، كما تتوالى الاتهامات الموجّهة إلى الدين في أسسه ومظاهره، لأنه (عائق) يعرقل مسيرة النهضة ومشاريعها الحديثة. ولاشكّ في أنّ هذه الوجهة تتفق والخطط الجديدة لدى الاستعمار الأمريكي والصهيوني الساعية إلى استلال كلّ عناصر القوة من الأمة وتدميرها. ولذلك يجري في هذا الصدد التبشير بانتهاء عصر الإيديولوجية والقومية وحلول العولمة. والسعي إلى (السلام) مع الأعداء، وهو استسلام خسيس لا تقرّه كرامة الإنسان، والهزء من قوّة الأمة المتمثلة في المقاومة والانتفاضة وسائر ضروب الصمود والممانعة.

ويرى أصحاب هذه الدعوات والاتهامات أنّ العلمانية التي (يتصوّرونها)، وهي نسخة مشوّهة من العلمانية الأصلية لدى أصحابها الغربيين، كفيلة بالقضاء على جملة من الأدواء الفكرية والاجتماعية التي تفتك بالأمة، على حدّ زعمهم، وهي:

١- حرفية تفسير النصوص والأصول، والتمسك بها تمسكاً أعمى يمنح أصحاب السلطة الحقائق مكتملة، ويلغي حق المراجعة والمناقشة والحوار الحرّ.

٢- تكفير المعارض ومحاولة إزالته نهائياً، ورفضه وجوداً، ومنع إجراء أي لقاء حقيقي للمحاورة والمناقشة الفكرية.

٣- مركزية السلطة أياً كان وجهها أو مستواها، مما يلغي الإرادة الإنسانية للجماهير ويشلّ طاقاتها، ويجعل كفاءاتها أرقاماً مجردة لا حقائق فاعلة.

٤- شيوع المنهج التبريري، والقفز على الروح العلمية. فلكل شيء تبريره الجاهز وتوظيفه الملائم اعتماداً على غياب جرأة النقد وحرية الفكر.

٥- هدم العقل بتدمير العلم والاستعاضة عنه بالتعليم النمطي الفارغ من المحتوى الفكري والحضاري[1].

وربما بدا أنّ بعض ما تقدّم ذكره من أدواء صحيح، لكنه يبقى - ضمن سياقه - كلمة حقّ أريدَ بها باطل. أما ما تتردى فيه الأمة من ضعف وتفكك وتدمير لعناصر الوجود المادي والروحي فلا يلتفت إليه هؤلاء الذين يغفلون دور الاستعمار وأطماعه ومراكزه، ويطلعون على الناس يوماً بعد يوم ببطلان (نظرية المؤامرة)؛ لأنّ كل ما وصفوه - والله المستعان على ما يصفون - إنما جاء من أيدي الناس الذين يستحقون الاحتلال والغزو والتدمير؛ لأنهم لم يستمسكوا بعروة (العلمانية) الوثقى!.

والحقّ أن العلمانية لها شروط تاريخية تتعلق بسيطرة الكنيسة في أوروبة، وهي دعوة إلى بناء الدولة بمعزل عن الدين، وليست دعوة إلى (هدم) الدين وإزالة أسسه ومظاهره من الحياة. والعلمانية لم تسهم في النهضة الأوروبية إلا ضمن إطار واسع من مفهومات الحرية والإنسانية والمساواة ونحوها. وعلى

---

(١) انظر: جاد الكريم الجباعي، مرجع سابق، ص١٣٠-١٣١.

عكس ما يدعو هؤلاء فإن مفهوم (التحديث) أصحّ وأوفر من العلمانية والعولمة وما أشبه ذلك؛ لأن مفهوم التحديث مفهوم نفعي عملي لا يمسّ جوهر الشخصية العربية والإسلامية، بل يقوّيها ويسدّد خطاها، والتحديث أساسه (العلمية)، أي: النزعة العلمية التي ينبغي أن تسود الحياة بكلّ جوانبها دون استثناء. وإذا كان للعلمانية من فوائد، فإن (العلمية) تحقق ما يربو عليها، على حين أنها تجنبنا سلبيات العلمانية، وسوء تطبيقها، وتقضي على (التخلف)، وتقود إلى التطوير المستمر.

إنّ العودة إلى تاريخ الروح العلمية في الغرب توضح أنها كانت مزدهرة لدى الإغريق الذين ورثوها من الشعوب القديمة كالمصريين والساميين في بلاد الرافدين والشام، كما كانت مزدهرة لدى المسلمين الذين حثهم دينهم على العلم، وجعله سبيلاً إلى الجنة، ولم يفرّق في طلبه بين كبير وصغير ورجل وامرأة، بل صار صنو العبادة. لكن هيمنة النظرة اللاهوتية في القرون الوسطى في أوروبة كانت تعيق الاتجاه نحو العلم، وتعاقب كلّ مجتهد يخرج على مسلّمات الكنيسة. ثم كان الفصل بين عالم الطبيعة وما وراء الطبيعة، واعتبار ما وراء الطبيعة مجالاً خارجاً عن حدود إمكانات التفكير العقلي والعلمي، بمعنى أنه يستعصي على الملاحظة والتجربة والعيان. وقد عدّ هذا الفصل (ضربة فلسفية) كبرى حرّرت العقل الغربي من هيمنة اللاهوت والميتافيزيق، وأدت إلى توليد فلسفة علمية أخذت تهيمن على كل القرن التاسع عشر وأوائل العشرين بعد أن ورثت مقولات عصر التنوير[١].

وتشير مراجعة الفكر الإسلامي في عصور ازدهاره إلى أنّ أيّ تناقض بين الدين والعلم لم يكن وارداً؛ لأن العلم كان موضع تقدير من سلطات الحكم

---

(١) انظر: هاشم صالح، مرجع سابق، ص٢٩١-٢٩٤.

على اختلاف اتجاهاتها، على حين أن تناقضاً حصل بين الدين الذي مثّله الفقهاء، والفلسفة التي مثلتها جماعات متأثرة بسلطة العقل المطلقة على كلّ شيء في الوجود. وتؤكد هذه النتيجة أن الروح العلمية لم تكن محاربة من الدين أو من السلطة الممثلة له أو المستندة إليه، على حين حوربت بعض أفكار الفلاسفة التي روّجت للزندقة وشجعت على الإلحاد ونفي النبوة. والأمران مختلفان كما هو واضح، إذ بقيت مجالات العلم مفتوحة لمن أراد؛ لأنّ العلم وسيلة لتحقيق استخلاف الإنسان في الأرض. ومن هنا تظهر المفارقة بين ظهور العلمانية في الغرب، وتطبيقها في الشرق؛ لأنّ ضعف العلم في أقطار العالم الإسلامي لم يكن بسبب سيطرة الدين وحظره للتفكير، إنما كان بسبب تخلّف الحكم، وفساد الطبقات الغنية والمتنفذة وما يلحق بها، وسعيها إلى إشاعة الجهل والخرافة والانحراف عن الدين الصحيح.

خطاب الهوية ومشروع النهضة الجديدة

تهتم (الهوية) بوصفها مقولة فلسفية بالثابت والمشترك بين الأشياء والأحكام، على حين أن التمايز يشير إلى اختلافها وعدم تساويها وتطابقها. أما الهوية الثقافية فهي تلك العناصر التي تكوّن خصائص مجموعة بشرية متجانسة نسبياً تنعكس على طرائق العيش وسلّم القيم وأساليب الإنتاج والعلاقات الاجتماعية والآثار الأدبية والفنية. فالهوية الثقافية هي خصائص الثقافة التي تميّز أمة من أمة في السمات الاجتماعية والنفسية وسائر عناصر الحضارة كالعادات والمعلومات والمهارات والحياة الأسرية والعامة في أوقات السلم والحرب والدين والعلم والفنّ والسياسة والقانون[1]. فالثقافة التي تضمّ

(١) انظر: المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو ١٩٨٦، ص٥٢١، وقاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور لإيكه هولتكرانس، ترجمة محمد الجوهري =

العناصر المعنوية كلها (الفكرية والروحية والفنية) تجعل السياسة جزءاً منها، ولاسيما على صعيد المبادئ أو القيم. لكن السياسة جزء مهمّ من الثقافة، له خصائص حيوية فاعلة تتجلى في (السياسة الثقافية) التي يستند إليها الحكم من خلال الممارسة الفعلية. والهوية الثقافية العربية هي مجموع عناصر العروبة والإسلام. والعروبة هي عروبة اللسان وعروبة العقل وعروبة القلب. والعروبة متضمنة بالقوة أو بالفعل في كلّ النماذج الثقافية العربية كالنموذج التقليدي والسلفي والثوري والقومي. أما الإسلام فهو رسالة الأمة التنويرية التي امتزجت بالعروبة امتزاجاً يستعصي على الفصل. والجديد الآن ليس الهوية. لأنها حقيقة تعيشها جماهير الأمة عبر تاريخها، بل (خطاب) الهوية، أي: الكلام الذي يدور على معرفة الذات من خلال الآخر. وخطاب الهوية خطاب حديث العهد جداً، فمنذ عقد أو اثنين من الزمن بدأ الكلام على الهوية في أوروبة والعالم الثالث.

ويرى بعض المفكرين أن التبدل في علاقات القوة على مستوى العالم مهّد لظهور هذا الخطاب، إضافة إلى إخفاق مشروعات النهضة واستنفاد مقولاتها أو وصولها إلى الإفلاس التام. ويبدو أن (الهوية) اندرجت في الخطاب القومي خاصة، على حين أن العكس يحصل الآن، إذ يبدو أن القومية هي التي تندمج في خطاب ثقافي. فالثقافة تأخذ اليوم أسبقية على السياسة في تأكيد القومية وخطابها[1].

وحسن الشامي، دار المعارف بمصر ١٩٧٢، ص١٤٣-١٤٦، وانظر: محيي الدين صابر (حول الإبداع والهوية القومية)، مجلة الوحدة، السنة الخامسة، العدد (٥٨/٥٩)، تموز وآب ١٩٨٩، ص٢٧.

(١) انظر: برهان غليون (ندوة: الهوية هل هي تعلة؟)، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد (١٧)، كانون الأول ١٩٨١، وكانون الثاني ١٩٨٢، ص١١٤-١١٩.

وتذهب بعض الآراء إلى أن خطاب الهوية الثقافة استراتيجية جديدة أو إيديولوجية وريثة لإيديولوجية القومية، مع أن هذا الخطاب حقيقة هو مشروع ممانعة أمام فرض العولمة المفضية إلى عطالة الإنتاج، والسيطرة على مكامن الثروة، واحتجاز قدرات العقل والعلم والحيلولة دون ممارستها القدرة والتصرف، مع تهديد مباشر تقوده قوى شريرة تعمل على تغيير واقع الأمة وإعادة صياغة مبادئها وتاريخها وقيمها. ولاشك في أن الأمة الآن مهددة بأخطار تفوق تلك الأخطار التي هددت الأمة منذ مطلع القرن العشرين كاحتلال الأرض ونهب الثروات وتزوير الإرادة. فالذي يتضح جلياً هو أن الأصولية الأمريكية وأوروبة والصهيونية، وهي قوى استعمارية أصلاً، تسعى إلى إعادة الأمة إلى عصور ما قبل الحضارة بعد أن تمّ لها إضعافها وتفكيكها والعبث بمصالحها الخاصة، مستندة إلى استغلال قوتها العسكرية المسيطرة إلى أبعد مدى.

لقد أدت الهجمات المتعددة على الأمة إلى تشكيل حالة من حالات التراجع الذي صار (أزمة نهضة)، ثم صار (مأزق حكم) و(زعزعة وجود). ولذلك بات ضرورياً ابتداع خطاب جديد يستفيد من خطابات النهضة السابقة، أو يضمّها. والأمر منوط بالمثقفين قبل السياسيين لرسم ملامح الخطاب الجديد ووضعه أمام الجماهير الذاهلة من هول الواقع[1]. والهوية الثقافية مشروع لتحصين الأمة والمحافظة على وعيها بتاريخها ومكامن قوّتها، ولذلك بات من الضرورة بمكان تجاوز دعوات العلمانية الجديدة التي لا تقود إلى نفع، وترسيخ عناصر الوجود والأصالة والإبداع عن طريق مبادئ رئيسة، أهمّها:

---

(١) انظر: عمر الحامدي (الثقافة العربية والنظام العالمي الجديد)، مجلة الوحدة، السنة التاسعة، العدد (٩٩) كانون الأول ١٩٩٢، ص١٠١-١٠٨، وانظر في العدد نفسه: عبد الحميد غانم (الهيمنة الأمريكية في ظل النظام العالمي الجديد)، ص١٠٩-١١٣، وانظر: محمد سعيد طالب، (النظام العالمي الجديد والقضايا العربية الراهنة)، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٤.

١- العروبة ولسانها المبين في آفاق العلم والثقافة والحياة.

٢- العلميّة بوصفها منهجاً في البناء المادي.

٣- الأخلاقية الروحية المستمدّة من الدين.

٤- النفعية القائمة على مراعاة مصالح الأمة وإعمار مرافقها واستثمار ثرواتها.

وليس مهمّاً بعد ذلك أن يكون الحكم ملكياً أو جمهورياً أو غير ذلك؛ لأن الهوية وعناصرها هي المحتوى الفعّال، على حين أن الحكم، في حالته الوضعية الراهنة شكل إجرائي يخضع لظروف متعدّدة بعضها تاريخي ذو قيمة رمزية، ولأن خطاب الهوية خطاب ثقافي أصلاً، وليس مشروعاً سياسياً، مع أنه يأخذ اليوم أهمية بالغة تجعله أساساً للفكر السياسي وسنداً في مواجهة الأخطار المحدقة بالأمة جمعاء. وأكبر دليل على هذا الاستنتاج هو اتفاق أوروبة على مشروع الاتحاد الاقتصادي ثم السياسي على الرغم من اختلاف أشكال الحكم في دولها الكبيرة والصغيرة على حدّ سواء.

وعلى النقيض من أوهام العلمانية الجديدة يبقى الدين مكوِّناً أساسياً لعناصر الهوية، ومشروعها التحصيني يجب إعلاء مفاهيمه والإفادة من شرائعه في بناء الدولة بناءً علمياً هدفه التحديث دون الانجرار إلى افتعال مشكلة نظرية بين الدين والدولة تقود إلى صراع لا يخدم إلا أعداء الأمة والطامعين فيها من قوى الغرب والشرق.

إن خطاب الهوية الثقافية ما هو إلا إعادة صياغة لخصائص الأمة الأصيلة التي ينبغي أن تعي ذاتها لتقف أمام الآخر الوقفة التي تحفظ كيانها وتدفعها إلى امتلاك قوّتها والتحكم بمصيرها وارتياد آفاق نهضتها المنشودة.

☆ ☆ ☆

أحمد بن أبان بن سيّد
صاحب الشرطة والمصنف اللغوي الكبير
(... - ٣٨٢هـ)

الدكتور عز الدين البدوي النجار

[لا يعدو هذا البحث أن يكون قطعة من ترجمة ابن سيد، للقارئ العام ثم للقارئ المشتغل، يمكن أن يتسع بها التتبع والنظر واستغراق المادة إلى أكثر مما قيد منها في هذه السطور؛ إلى ما طويناه منها مقاربة واختصاراً].

الأندلس على عهد الناصر

بلغت الأندلس على عهد الناصر عبد الرحمن بن محمد المديد (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ثم على عهد ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) غاية ما ستبلغه في تاريخها من اجتماع أسباب القوة المستقرة لها، من نواحيها الإنسانية والاجتماعية المختلفة ثم باستفاضة هذه القوة صوراً متحضرة باذخة غاية في الترفُّه والكمال.

وعلى أصل متين راسخ مما قدمه الناصر والمستنصر مضى المنصور بن أبي

عامر (٣٢٦ - ٣٩٢ هـ) في عهده الطويل المظفر[1]، لتتم للقرن الرابع في الأندلس عظمته وامتيازه، ولينفرد قرناً ذهبياً بين قرون التاريخ الأندلسي خاصة، والتاريخ العربي كله عامة.

وكان الناصر حين تولى الأمر شاباً له اثنتان وعشرون سنة، وكانت ولايته من المستطرف الغريب فيما ذكر المؤرخون، وذلك أنه كان بالحضرة حين توليه جماعةٌ أكابرُ من أعمامه وأعمام أبيه، وذوي القُعْدُدِ في النسب من أهل بيته، فلم يعترض معترض، واستمر له الأمر.

وكان هذا مما اجتمع له من أسباب السعادة، إلى ما أوتيه من المواهب والملكات.

وكان شهماً صارماً، وجد الأندلس مضطربة فسكّنها حتى استتبت له، ودخلت جميع أقطارها في طاعته. وحين بلغه ضعف الخلافة بالعراق أيام المقتدر، تسمى بأمير المؤمنين، وتلقب بالناصر لدين الله.

الزهراء عاصمة العاصمة

وحين تمهدت للناصر الأمور، وقَدَرَ على أن ينظر في نواحي الحضارة المختلفة، التفت إلى العمارة، وكان بها شغوفاً، فاختط (مدينة الزهراء) بناحية

---

(١) حين توفي الحكم المستنصر سنة ست وستين وثلاثمئة (٣٦٦ هـ) كان عمر ابنه هشام المؤيد عشر سنوات وأشهراً ؛ فتولى المنصور بن أبي عامر مقاليد الأمور نائباً عن هشام، إلى وفاته سنة (٣٩٢ هـ) أو (٣٩٣هـ)، ولم يكن لهشام معه إلا الصورة . وكانت أيام المنصور امتداداً، بل تتمة، لأيام الناصر والمستنصر؛ بل كان هو نفسه أشبه بأن يكون ثمرة من ثمرات تلك الأيام . وكان قد ورد إلى قرطبة من الجزيرة الخضراء شاباً، فطلب العلم والادب، وسمع الحديث، وتميز في ذلك . وحين تولى الأمر بعد الحكم سار في العلم وأهله سيرته التي شب عليها؛ فكان "محباً للعلم، مؤثراً للأدب، مفرطاً في إكرام من ينتسب إليهما، ويفد عليه متوسلاً بهما، بحسب حظه منهما، وطلبه لهما، ومشاركته فيهما" . وفي عصر المنصور هذا سيستكمل صاحبنا ابن سيد عمله العلمي الكبير.

قرطبة، وهي آبدة من أوابد العمارة العالمية، واتخذها منزلاً له وكرسياً لملكه، واستعلن بها للعالم ضخامةُ ما آلت إليه صورة الحضارَةِ في الأندلس.

قرطبة حاضرة الأندلس

وكانت قرطبةُ حاضرةُ الأندلس العريقة قد بلغت في عهده شأواً بعيداً ضارعت به أكابر حواضر المشرق، بل أَرْبَتْ على بعضها فخامة وضخامة. قال ابنُ حَوْقَل الجغرافي الرحالة حين زارها سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة (٣٣٧هـ)، في خلافة الناصر:

«هي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبه، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل، وسَعَةِ رقعة، وفُسْحَةِ أسواق، ونظافةِ مَحَالّ، وعِمَارةِ مساجد، وكثرة حمامات وفنادق».

ومدينة العلم

وكانت مدينةَ العلم، ومهوى أفئدة طوائفَ من العلماء والأدباء ورجال الفكر في العالم الإسلامي كله.

قال الحِجَاري[١]: " كانت قرطبة مركز الكرماء، ومعدن العلماء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب، ويباري فيها أصحابُ الكتبِ أصحابَ الكتائب".

وقال ابن سعيد: «ولأهلها رئاسةٌ ووقار، ولا تزال سِمَةُ العلم متوارثة فيهم، وهي من أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشدها اعتناء بخزائن الكتب».

---

(١) نسبة إلى (وادي الحجارة) بالأندلس .

قرطبة وإشبيلية عاصمتا العلم والفن

ومن أغرب ما جاء فيها وفي إشبيلية حاضرة الفن في الأندلس ما حكاه ابن رشد قال:

«إذا مات عالم بإشبيلية فأُريدَ بيعُ كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريدَ بيعُ آلاته حملت إلى إشبيلية. وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً».

الناصر والعلوم وأبو علي القالي

وكان الناصر - مع اتساعه في العمران وتأنقه - قد رغب في أن تدخل الأندلسَ مفاخرُ كل جهة، وزينةُ كل بلد، فكتب إلى أبي على القالي حين سمع بشهرته في اللغة والأدب، ورغب في الوفود عليه لنشر علمه. ووافق هذا رغبةً من أبي علي فيما يظهر، حين رأى أنه لاحَظَّ له في العراق فيما نقل ياقوت، بعد أن كان قد أقام في بغداد - قادماً إليها من بلده مَنَازْ جِرْد[1] - خمساً وعشرين سنة، سمع فيها من أكابر علماء العصر في اللغة والأدب والعربية، فاستحكمت مادته واستبحرت، واستفاضت له شهرة بالعلم في فنونه التي أخذ بها نَفْسَهُ، غير أنه لم يقبل عليه من الدنيا ما كان يرجو، بحسب نص ياقوت، أو أنه جذبته الصورة البالغة الرواء والجمال التي للأندلس، مع السكينة والاستقرار اللذين هما من غرض كل عالم، فقصد الأندلس سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة (٣٢٨هـ) ووصلها سنة ثلاثين وثلاثمئة (٣٣٠هـ).

---

(١) من ديار بكر، وقالي قَلا التي نسب إليها أبو علي قرية من قرى مَنَازْ جِرْد، كان أهلها يُكْرَمُوْن لمكانهم من الثَّغر. وكان أبو علي حين انحدر من بلده مَنَازْ جِرْد في رفقة كان فيها أناس من أهل قالي قلا، فلما دخل بغداد انتسب إليهم. قال أبو علي: "ورجوت أن أنتفع بذلك عند العلماء، فمضى علي القالي". وعلى أنه ربما نُسِبَ بغدادياً لطول مقامه في بغداد، وإنما كان هذا في الأندلس وعند الأندلسيين خاصة لكونه وفد عليهم منها.

حدث ثقافي

وكان وصول أبي علي إلى الأندلس حدثاً ثقافياً سجلته المصادر، وسجلت به دلالته البالغة على مقدار ما للعلم من منزلة في أندلس الناصر. فقد ذكروا أن الحَكَمَ بن الناصر - وكان يتصرف من أبيه كالوزير - قد أمر عاملَهم ابن رَمَاحس أن يجئ مع أبي علي إلى قرطبة، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته، ينتخبهم من بياض أهل الكُوْرَةِ تكرمةً لأبي علي. ففعل، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم ويتناشدون الأشعار. وكان دخوله إليها لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلاثمئة كما تقدم.

وفي قرطبة تلقاه أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي الشاعر، ومدحه بقصيدة طنانة مطلعها:

مـن حـاكـمٌ بـيني وبـين عـذولي   الشَّجْوُ شَجْوي والعويلُ عويلي

متمماً أَلَقَ الصورةِ التي أُعدت لأبي علي، نموذجاً غاية في الروعة للحفاوة بعالم.

ومن أبياتها في الثناء على أبي علي قوله:

قِـسْـهُ إلى الأعـرابِ تـعـلـمْ أنـهُ   أَوْلَى مـن الأعـراب بـالـتـفـضيلِ

حازت قبائلُهم لغاتٍ فُرِّقَتْ   فيهم و حازَ لغاتِ كُلِّ قَبِيْلِ

أبو علي القالي ومدرسته اللغوية

استوطن أبو علي قرطبة ضيفاً مكرماً على الناصر، مختصاً إياه بتعليم ولي عهده الحَكَمِ، الذي سيبلغ معه فيما بعد غايةَ ما يرجو عالِمٌ من حاكم من تجلة وإكرام.

وفي قرطبة نشر أبو علي مذخور علمه ونفائس معارفه في اللغة والأدب.

وأقبل عليه علماء الأندلس وأدباؤها وطلاب المعرفة فيها يسمعون منه ويقرؤون عليه. وكان يملي (أماليه) المشهورة في أيام الأخمسة بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة. وكان قد حمل معه في رحلته جملة من دواوين العلم المشرقي لأكابر العلماء وأثباتهم، فرغبت الجماعة في أن يقرؤوا عليه ذخائره.

ومضى أبو علي هكذا على سَنَنِهِ في الإملاء والإقراء والتصنيف، مُوْرِثاً أهلَ الأندلسِ علمَه، حتى توفي في خلافة الحكم سنة ست وخمسين وثلاثمئة (٣٥٦هـ).

وبأبي علي ومن التف حوله وقرأ عليه من الأندلسيين تمكن للعربية وعلومها في الأندلس تيارٌ مازال يَعُبُّ عُبَابُهُ، مع ما انضاف إليه من علوم من ارتحل إلى المشرق ثم رجع إلى بلده من الأندلسيين، إلى أن طويت صفحة العرب والعربية في الأندلس بعد ذلك بنحوٍ من خمسة قرون.

الملك العالم

وحين توفي الناصر سنة خمسين وثلاثمئة (٣٥٠هـ) و تولى ابنُه الحكمُ تلميذُ أبي علي مكانه، كأنما تحقق به حلمٌ من أحلام الفلاسفة منذ أيام أرسطو وتلميذه الإسكندر المقدوني.

وكان الحكم مع قيامه بأعباء الملك أتم قيام محباً للعلوم، مكرماً لأهلها، مغرماً باقتناء الكتب القيمة على اختلاف أنواعها «فسبق من تقدمه، وجمع ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، فأقام للعلم سوقاً.. وجلبت إليه بضائع الفضل من كل قطر» والحكم هو الذي بعث في (كتاب الأغاني) بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه أبو الفرج بنسخته قبل أن يخرجه إلى العراق.

وبعض من نبغ في عصره من العلماء:

فمن نوابغ تلاميذ أبي علي، وممن نَجَمَ في أيام الحكم، صاحبُنا الذي عقدنا له هذه الكلمة. ومنهم، بالاعتبارين جميعاً، عَلَمٌ أندلسي آخر من أعلام اللغة والعربية، كان - بالقياس إلينا- أوفرَ حظاً من صاحبه، فقد سلمت طائفة من آثاره من الضياع، والتفت إليها المعاصرون فأخرجوا جملة منها، فعرفه الناس حديثاً مثلما كان معروفاً قديماً، نرجو أن نفرد له، في سياق هذه الصحف، كلمة مستقلة أخرى.

ابن سيّد، صاحب الشرطة والعالم المصنف

وصاحبنا هنا هو أبو القاسم أحمد بن أبان بن سيّد، صاحب شرطة قرطبة أيام الحكم، وأحد مفاخر الأندلس في التصنيف اللغوي. فاخر به ابنُ حزم الأندلسي في رسالة (فضل الأندلس) في جملة من فاخر بهم من رجالاتها وأكابر حَمَلَةِ العِلْمِ وأصحاب الفنون فيها. وعندنا أنه أحد مفاخر التأليف اللغوي في التراث العربي كله.

ليس هو ابن سِيْدَه صاحبَ المخصص والمحكم:

وابن سَيّد الذي نترجم له ليس هو ابن سِيْدَه صاحب (المخصص) و (المحكم). كلاهما من لغويي الأندلس، وكلاهما له في اللغة مصنف كبير على الأجناس على ما ستراه بعد، غير أن الأول قرطبي متقدم (ت ٣٨٢هـ)، مُبْصِرٌ، عمل للسلطان عملاً في بلده قرطبة؛ والآخر أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سِيْدَه، ضرير من أهل مُرْسِيَةَ، من أعمال تُدْمِيْرَ بشرق الأندلس، ولد بعد وفاة ابن سَيّد بِنَحْوٍ من ست عشرة سنة (٣٩٨هـ) وانتقل إلى دانِيَةَ، وانقطع للأمير أبي الجيش مجاهدِ العامري، وله ألّف معجميه (المخصص) و (المحكم). وبدانية توفي سنة (٤٥٨هـ) عن ستين سنة أو نحوها، وتقديرنا

أن ابن سيّد توفي عن سن تجاوز السبعين، كما سترى بيانه والتدليل عليه من بعد.

قلة المادة المتاحة عن حياة ابن سيد وأخباره

وليس بين يدي الباحث كبير شيء عن حياة ابن سيّد، شأن كثيرين غيره من العلماء والأدباء في التاريخ العربي سقطت أخبارهم بسقوط المكتبة العربية بتوالي النكبات والمحن عليها.

ومن شواهد هذا فيما يتعلق به خاصة أن بعض من ترجم له حكى خبراً من أخباره عن أبي مروان بن حيان مؤرخ الأندلس الكبير في كتابه (المقتبس)، وقد هلك هذا الكتاب فيما هلك من عيون التراث العربي، وما بقي منه إلا قطع تدل دلالة بليغة على عُلُوِّ نَفَسِ مؤلفه فيه، وعلى غزارة مادته وأصالتها وبلاغة عبارتها. وقد كان - لو وجد- مظنة أن نجد فيه من أخبار ابن سيّد أكثر بكثير من هذا القليل المتناثر الذي لَمَمْنا شتاته مما وقفنا عليه من آثار.

وقد انضاف إلى شح المادة الخاصة به في المكتبة العربية ضَيَاعُ كتبه نفسها، فليس بين يدي الباحث من آثاره ما يستعين به على اجتلاء صورته الإنسانية أو العلمية. وعسى أن يظهر على الأيام من خبيء المكتبات، ولا سيما مكتبات أوربة، بعض ما نرجو الوقوف عليه من آثاره - ولا سيما كتابه العظيم (العالم) - وآثارِ المؤلفين العرب، المعدودة الآن في حكم المعدومة أو المفقودة.

ونحن نتمم على القليل الذي وقفنا عليه ببعض ما تعين المادة المتاحة على الذهاب به في أساليب التظنن والتقدير.

جمهرة خبر ابن سيّد فيما تَيَسر الوقوف عليه

وهو أبو القاسم أحمد بنُ أبانَ بنِ سَيِّد، الإمام في اللغة والعربية، الحاذق الأديب. روى عن أبي علي القالي، وأبي عثمان سعيد بن جابر الإشبيلي،

وغيرهما من علماء بلاده. وأخذ عنه أبو القاسم ابن الإفليلي[1] وأبو عمر يوسف بن عبد الله بن خيرون الأديب النحوي.

كان معتنياً بالآداب واللغات وروايتهما وتصنيفهما، مقدماً في معرفتهما وإتقانهما، سريع الكتابة، مطلق القلم بالتصنيف.

سمع جملة ذات شأن من كتب اللغة والعربية من أبي علي ومن غيره من أشياخه في الأندلس. سمع من شيخه أبي عثمان سعيد بن جابر كتاب (الكامل) للمبرد، وحدث به، وممن أخذه عنه تلميذه أبو القاسم ابن الإفليلي.

وسمع (الأمالي) وغيره من تصانيف أبي علي القالي، إلى سماعه منه جملةً مما حمله معه من ذخائر المشرق.

أشهر كتبه (كتاب العالم) في اللغة، في نحو مائة مجلد، ووقع في خبر آخر أنه في أربعين مجلداً، ولا تناقض في هذا لإمكان اختلاف مقدار الأوراق في كل مجلد على التقديرين. وهو مرتب على الأجناس، أي الموضوعات، بدأ فيه بالفَلَكِ وختم بالذَّرَّةِ. وهو المَعْلَمُ اللغوي الكبير في بابه في المشرق والمغرب قبل (مخصص) ابن سيده، الذي سَيَنْجُمُ بعده بقليل كما رأيت آنفاً. ووقوفُ ابن سيده على كتاب ابن سيد مجهولٌ من مجهولات التاريخ، يُرجى أن تكشف خبيئَه الأيام.

وإن من السعادة التي لا تزال ترى آثارها في الحياة والأحياء أن يبقى كتاب

(١) أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري، ويعرف بابن الإفليلي. وهو أندلسي من أهل قرطبة، إلا أن نسبته هذه - كما أخبر عن نفسه - إلى "إفليلا" وهي قرية من قرى الشام، وينبغي أن تكون أصوله منها. و "إفليلا" عند ياقوت (١/ ٢٣٢): أفليلاء = = بفتح الهمزة وبالمد. وهو من صدور علماء اللغة والأدب بالأندلس. توفي سنة إحدى وأربعين وأربعمئة وقد ناهز التسعين (٣٥٢ هـ - ٤٤١ هـ).

ابن سيده، وأن يَعْدَمَ - أو يفقد - كتابُ ابنِ سَيِّد، ولا يبقى منه إلا خبرُه، وإلا حسرةٌ عليه يجدها في نفسه كل صاحب علم.

كان (كتاب العالم) موجوداً حتى القرن السابع، و بقيت منه قطعة على الأقل إلى القرن الحادي عشر الهجري.

ونسب إليه - وإلى غيره[1] -كتابُ (العالم والمتعلم) في العربية. وشرحُ كتابين للكسائي والأخفش، لم يُسَمَّ مضمونُهما، وإن كان الظاهر أنهما في العربية، ولا سيما كتاب الكسائي.

فهذه جملة مما تيسر الوقوف عليه نصاً، يمكن أن تزاد عليها أشياء لا يتغير معها من عمود الصورة شيء، هي كالشرح والتفصيل لبعض ما تقدم. وقد بقيت بعدُ أشياءُ نصرف إليها عنان القول تأولاً واستظهاراً، وبسطاً لما لعله ينفع بعض النفع بالقياس إلى المعاصرين.

اسم ابن سيّد، واسم أخيه!!

واسم صاحبنا أحمد، ولا نعرف أحداً ممن ترجم له خالف عن ذلك، فإن رأيت في شيء من كتب المتقدمين من يذكر محمداً، فذلك أخوه، وهو من طرائف الاتفاق، أن يكون أخوان يَنْزِعان في العلوم مَنْزِعاً واحداً، غير أن أحدهما أشهر، وحظه في التصنيف أوفر.

أما أنهما أخوان - محمد وأحمد - فذلك ما ذكره الحميدي في (جذوة المقتبس) في خبر عزيز أمر فيه الحكم المستنصر بمقابلة كتاب (العين) للخليل ابن أحمد مع أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي؛ وابني سيّد، في دار الملك

---

(١) وهذا - وغيره معه - من مشكلات ترجمة ابن سيد التي نرجو أن نستوفي الكلام عليها في مقام آخر.

التي بقصر قرطبة، وأحضر من الكتاب نسخاً كثيرة، في جملتها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي رواها بمصر عن ابن ولّاد...

و أما أن محمداً أقبل على اللغة، و سمع من علمائها نحواً مما سمع أخوه، فما يدل عليه الخبر المتقدم، وما يدل عليه نص ساقه القفطي في (الإنباه)، عزيزٌ نفيسٌ هو أيضاً. قال القفطي: «شوهد على كتاب المقصور والممدود للقالي بخط القالي: قرأ جميع المقصور والممدود محمد بن إبراهيم بن معاوية القرشي، ومحمد بن أبان بن سيّد، وعبد الوهاب بن أصبغ، ومحمد بن حسن الزبيدي - أعزهم الله - وأعانوا بانتساخه ونقله من طوامير تخريجي له، وقابلوا به كتبهم..».

وتعلق هذا الخبر بكتاب أبي علي (المقصور والممدود) مرة، وبذكر محمد بن أبان دون أخيه أحمد مرة أخرى، سنحتاج إليهما فيما بعد، حين سيضطرنا المقام إلى التماس مولد صاحبنا أحمد بالظن والتقدير، بعد أن أعيانا أن نجد ذلك بالنص والتعيين.

محمد بن أبان بن سيد

وإذ قد ذكرنا محمداً فلا بأس في أن نذكر قطعة من خبره. وهو عند ابن الفَرَضيّ: محمد بن أبان بن سيد بن أبان اللخمي. وقد أفدنا من نسبه فائدة أخرى، هي معرفتنا أن اسم أبي جدي محمد وأحمد: أبان، مرتفعاً نسبُ أحمد هكذا درجة أخرى فوق المذكور المتكرر في المواطن التي ذكرته، ولم تتجاوز في نسبه اسم جده سيد.

ويكنى محمد أبا عبد الله، وهو من أهل قرطبة. وكان عالماً بالعربية واللغة، حافظاً للأخبار والأنساب والأيام والمشاهد والتواريخ. أخذ عن أبي العباس

البغدادي وغيره. وولي أحكام الشرطة، وكان مكيناً عند المستنصر بالله، وألف الكتب[١] وكتب عنه. توفي سنة أربع وخمسين وثلاثمئة (٣٥٤ هـ)[٢].

قلت: وهذا كله كلام ابن الفرضي، وهو يثير مسائل ليس هنا موضع الكلام عليها، بعضها متعلق تعلقاً وثيقاً بحياة صاحبنا أحمد.

بلد ابن سيّد

ليس فيما وقفنا عليه من نصوص ما ينأى بابن سيّد عن قرطبة العاصمة. وكونه من قرطبة هو المرشّحُ الصحيحُ لأن يكون صاحبَ شرطتها فيما بعد ؛ هذا هو المتبادر القريب في تصور الأشياء ؛ وهو المرشّحُ أيضاً له - ولمحمد أخيه قبله - أن يكونا في عداد الآخذين عن أبي علي في دار قراره بالأندلس قرطبةَ العاصمة، دون أن تكون لهما رحلةٌ مذكورة في طلب السماع، يطلبونه في مواطنه من أصحاب الرواية وكبار العلماء. يقوي هذا كله ويُوَكِّدُهُ أن محمداً نفسه كان صاحب شرطة قرطبة قبل أخيه أحمد.

وعلى أن ابن الفرضي كفانا مؤونة النظر في قرطبية أحمد بالنص على قرطبية أخيه محمد كما رأيت في النص المتقدم، وذلك قوله: «من أهل قرطبة».

إلا أن القفطي في خبر له عن ابن وحشية الإشبيلي في شأن (كتاب العالم) لابن سيّد وصف ابن سيّد هناك بالإشبيلي.

---

(١) أخشى أن في نص المطبوع من كلام ابن الفرضي سقطاً، وأن الكلام تاماً: وألف له الكتب، أي للحكم المستنصر. وهو ما يستظهر من جملة القرائن والمقدمات.

(٢) وللأندلسيين "محمد بن سيد" آخر، هو محمد بن أحمد بن سيد بن عمر بن حبيب بن عمير. كان نحوياً لغوياً، وشاعراً مطبوعاً. أخذ عن ابن الغازي وغيره من العلماء. وكان من حاضرة إشبيلية، وأشراف جندها. توفي سنة ثلاثمائة (٣٠٠هـ).

ولهم أيضاً محمد بن عبد الله بن سيد، أبو عبد الله. وكان من الفقهاء، من أهل بَجّانة. توفي سنة (٣٦٣هـ) أو نحوها.

وليس هذا بممتنع، وقد يكون إشبيلي المولد أو الأصل، قرطبي الدار، إلا أن العارف بالقفطي يعلم أن عنده غرائب، ولا يثبت ما يخالف فيه المشهور إلا أن يؤيده نص، أو ترجحه قرينه. وربما شهد لهذا ما جاء في خبر ابن وحشية نفسه، فقد ساقه القفطي في موضعين من كتابه، ذكر الكتاب في أحدهما باسم: (كتاب العالم في اللغة)، وفي الآخر باسم: (كتاب العالم والمتعلم)؛ وهما كتابان مختلفان مذكوران فيما أضيف إلى ابن سيد من تصانيف.

وعلى أنا نذكر بعدُ أن ممن سمي من أعيان شيوخ ابن سيد أبو عثمان سعيد ابن جابر الإشبيلي.

تاريخ ولادته

وليس فيما وقفنا عليه أيضاً ذكر لسنة مولده، أو لمبلغ عمره عند وفاته. غير أن الترفق بالنصوص المتاحة، ومعارضة بعضها ببعض؛ ربما أعان على تقدير مولده ظناً وتقديراً، يرجحان عند التأمل - فيما نرجو - بعض الرجحان.

١- فأول ذلك وأظهره أنه كان من تلاميذ أبي علي، وأنه سمع منه كتبه، وعِدَّةً ليست بالقليلة مما حمله معه من المشرق من كتب اللغة والعربية، مما سنأتي على ذكره بعد يسير. فهذه جملة تكثر، لا تكفي لقراءتها أو سماعها نجوماً متتالية - فضلاً عن أن تكون غير ذلك -مدةٌ يسيرة.

وأبو علي توفي سنة ست وخمسين وثلاثمئة (٣٥٦هـ) ولا بد أن يكون ابن سيّد قد قرأ عليه في سن تؤهله لذلك. فلو قدرنا أنه شرع في القراءة عليه والسماع منه وهو ابن عشرين، وأن ذلك كان سنة خمسين وثلاثمئة (٣٥٠هـ) - تقديراً وسطاً - فهو إذن من مواليد ثلاثين وثلاثمئة (٣٣٠هـ).

٢- غير أن نصاً وقفنا عليه يوجب أن نرجع بتقدير مولده إلى أبعد مما ذكرنا آنفاً. ذكروا أن أباً علي كان ضنيناً بكتاب (الزاهر) لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ) فلم يسمعه منه إلا ابنُ سيّد «لمكانه من السلطان».

و«مكانُ ابنِ سيّد من السلطان» معروفٌ، وهو أنه كان صاحب الشرطة أيامَ الحَكَمِ، وذلك - فيما يتعلق بسياقنا هنا - متعينٌ بين سنة خمسين وثلاثمئة (٣٥٠هـ) وهي سنة تولّي الحَكَمِ الحُكْمَ، وبين سنة ست وخمسين وثلاثمئة (٣٥٦هـ) وهي سنة وفاة أبي علي.

فلو كان من مواليد سنة ثلاثين وثلاث مئة (٣٣٠هـ) كما قدرنا في الفقرة السابقة، فإن عمره حين كان صاحب شرطة الحكم بين العشرين سنة خمسين وثلاث مئة[1] (٣٥٠هـ) وبضع وعشرين ست وخمسين وثلاثمئة (٣٥٦هـ). وهذا مستبعد جداً: أن يكون من كان في تلك السن في مثل ذلك المنصب العظيم الخطر في عاصمة الخلافة، مع اشتغاله بالعلم، وغلبته على قلبه، إذ كان في تلك السن في غلواء الشباب.

ولا يعسر على هذا أن نرجع بسنة مولده عشر سنوات أخرى، تقديراً وسطاً أيضاً ليس في اليد غيره، نترفق به، ونترفق في التأدي إليه، في أمثال هذه المقامات.

---

(١) إن كان ما أسند إليه من أمر الشرطة مع أول - أو أوائل - أيام الحكم سنة (٣٥٠هـ)، وهو ما يدل عموم اللفظ؛ لانتفاء ما يخالفه، ولعدم النص على ما يقيده؛ مع علمنا أن أخاه محمد بن أبان كان مقرباً من الحكم، وأنه كان صاحب شرطته في قرطبة، وأنه توفي سنة (٣٥٤هـ) كما تقدم؛ والاحتمال قائم إذن أن محمد بن أبان كان صاحب الشرطة صدراً من أيام الحكم إلى أن توفي في السنة المذكورة، أو قبلها إن كان قد منع من استمرار ولايته الشرطة مانع، وهو ما لا نعلمه: لا بنص، ولا بتقدير واحتمال .

٣- وربما أدى النظر في عمر محمد بن أبان بن سيّد إلى إعادة النظر فيما اقترحناه من عمر أخيه أحمد مرة أخرى.

ومقدمات النظر في عمر محمد، من الوجوه التي تطمئن لها النفس، متعددة، نطوي الكلامَ عليها البتة كما طوينا غيرها، أو اختصرناه. وصحةُ نتائجها - إن صحت، وصحتُها عندنا غالبة إن شاء الله - يترتب عليها أن يُرْجَعَ بمولد أحمد بن أبان خمس سنوات أخرى وراء التقدير الذي انتهينا إليه فيما سلف. وثمرة هذا كله أن مولد أحمد كان حول سنة (٣١٥هـ) ؛ وهو تقدير نطمئن إليه - بحسب مقدماته - كل الاطمئنان[١] ونحمل ضرورةً تبعته.

اتصال ابن سيّد بأبي علي وسماعه منه

لا أحسب أنه يختلج في صدر أحد أدنى شك في أن ابن سيّد قديم العهد بصحبة أبي علي، بعد أن يكون قد وقف على ما رتبناه في هذه الصحف التي خَلَتْ، وأنه ربما صحبه وشرع في السماع منه منذ دخل الأندلس واستوطن قرطبة، آنساً في هذا ومُمَهَّداً له طريقه بأخيه محمد الأكبرِ منه سناً، والشبيه به صدقَ رغبة في طلب العلم.

والمذكور من مرويات أبي علي التي قرأها عليه ابنُ سيّد جملةٌ ليست بقليلة. فنذكر قطعة مما ذكروه منها، ثم نُقَفِّي عليه بذكر ما لم يذكروه، استظهاراً وتأولاً على ما ستراه بعد.

فمن الشعر قرأ ابن سيّد (ديوان المفضليات) المشهور، الذي اختاره المفضل الضبي الراوية (ت ١٦٨هـ) من شعر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، وأكثره

(١) وانظر ما سيأتي بعد بعنوان: سماعه من أبي عثمان سعيد بن جابر، فهناك الفصل في التقدير المقارب لتاريخ مولده .

جاهلي من المطولات دون المُقَطَّعات. وقرأ ديوان أبي تمام حبيب بن أوس (ت ٢٣١هـ). وقرأ من كتب اللغة والعربية (البهي) في النحو للفراء (٢٠٧هـ)، (والغريب المصنف) في اللغة لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وهو أول كتاب من كتب اللغة مرتب على المعاني من النوع لذي سيبلغ غايته فيما بعد في (مخصص) ابن سيده. وقرأ (الأصوات) و (الفرق) و (خلق الإنسان) و(النبات) و(القلب والإبدال) و(الأضداد) و(معاني الأبيات). وهذا كله لأبي يوسف يعقوب بن السكيت (ت٢٤٤هـ). وقرأ (الفَرْق) في اللغة لثابت بن أبي ثابت - وهو من أصحاب أبي عبيد القاسم بن سلام، وأثبتُ من روى عنه علماً - وجزءاً فيه شرح (بسم الله الرحمن الرحيم)، لأبي إسحاق إبراهيم بن سهل بن السري الزجاج (ت ٣١٦هـ).

سماعه من أبي عثمان سعيد بن جابر

وسمع ابنُ سيّد من أبي عثمان سعيد بن جابر بن موسى الكَلَاعي الإشبيلي كتاب (الكامل) للمبرد، بروايته عن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش (ت ٣١٥هـ) عن المبرد (ت٢٨٦هـ) ولسعيد بن جابر رحلة إلى المشرق سمع فيها غيرَ واحد من المحدّثين، سماهم ابن الفَرَضي (ت ٤٠٣هـ) في ترجمته له في (تاريخ علماء الأندلس). غير أنه يعنينا من سماعاته هنا سماعه من الأخفش الأصغر تلميذ المبرد، وهو من أصحاب العربية، ويموت بن المُزَرِّع، ابن أخت الجاحظ، وكان نحوياً أديباً راوية، توفي بطبرية، وقيل بدمشق، سنة ثلاث وثلاث مئة (٣٠٣هـ) أو أربع وثلاث مئة (٣٠٤هـ).

وبقرطبة سمع منه غير واحد، منهم ولي العهد الحكم المستنصر. ولا ندري: أسمع منه ابن سيّد كتاب (الكامل) بإشبيلية إن صحت إشبيليته، أم سمعه بقرطبة مع من سمع منه فيها.

توفي سعيد بن جابر سنة خمس أو ست أو سبع وعشرين وثلاثمئة (٣٢٧هـ) على اختلاف في رواية من روى خبره أو ترجم له من معاصريه أو من المؤرخين.

قلت: وبوقوفنا على تاريخ وفاة أبي عثمان سعيد ينحسم ما كنا فيه من تقدير سنة مولده، وهي - مع ما وقفنا عليه أخيراً - تترد حول سنة عشر وثلاث مئة (٣١٠هـ) ولا تزيد عليها كثيراً، لتبلغ (الخمس عشرة) التي قدرناها أولاً بحال.

ونحن نبقي على نسقنا الذي رتبناه بصورته التي مضت، تذكرة للنفس ومُعْتَبَراً: أن يحيط الباحث بتفاصيل بحثه كلها، حتى لو بدا له بعضها هيناً لا خطر له، فَرُبَّ هَيِّنٍ ضئيلِ الشخص من مواد العلم ومفرداته تكون له في البحث العلمي آثار جسام، وربما أغنى الالتفات إليه وتوفيتُه حَقَّه من التأمل والنظر عن بحث كثيرٍ ذاهبٍ سُدًى، يحتاجه الباحث أمس حاجة - أعني هذا البحث الكثير - في جوانب بحثه الأخرى.

وأيضاً فنحن نرجو أن يكون في النظر العقلي الذي قدرنا به تاريخ مولد ابن سيّد بوجوه الاستدلال المختلفة؛ نوعُ فائدة للباحث الناشئ المتمرس بأساليب البحث، المتطلع إلى أن يصل فيها إلى غاية ما يرجوه لأنفسهم الباحثون.

هل قرأ ابن سيّد على أبي علي كتاب سيبويه؟

ونرجع إلى أبي علي شيخ ابن سيّد الكبير في اللغة والعربية، بل شيخ الأندلس كلها في عصره. فمن طريقه وطريق ثلاثة من تلاميذه (صَحَّت اللغة في الأندلس)، ورجع طلابها إلى أصول وثيقة محكمة، نرجع إليه لنسأل سؤالاً يكاد يمليه ما انتهينا إليه آنفاً في عمر ابن سيّد وجملة ما نعرف من حاله: هل قرأ على أبي علي ما ذكر المتقدمون أنه قرأه؟ والجواب إيجاب بيقين، ذلك أنه يبعد

جداً، بل يتعذر، أن يكون ابن سيّد قد لقي أبا علي ستاً وعشرين سنة كاملة، وهي مدة حياته في الأندلس إلى أن توفي، ثم لا يقرأ عليه إلا ما ذُكِرَ أنه قرأه، مع الحرص الشديد والتَّوْقِ، ومع مواتاة الأسباب من وجوهها كلها. وحسبك بالسياق العلمي الجارف الذي أشاعه الحكم المستنصر - منذ كان ولياً للعهد - فيمن حوله، حتى صار العلم بضاعة نافقة يتقرب بها إليه المتقربون. وقد قدرنا آنفاً أن كفايات ابن سيّد العلمية - المجتمعة له باتصاله بأبي علي في المقام الأول - هي من المُرَشِّحَات له عند الحكم لأن يوليه من أعمال السلطان ما ولاه.

لا جَرَمَ كان العلم، بدواعيه كلها، حياةَ ابنِ سيّد التي كان ينفق فيها حياته، ولا جَرَمَ كان أبو علي - مدة حياته - في مركز القطب من تلك الحياة، ولا جَرَمَ - مرة ثالثة - أن يكون ابن سيّد قد قرأ عليه أكثر بكثير مما ذكر المتقدمون أنه قرأه.

غير أن النص على هذا كله، على صحة تقديره في ذاته، يكاد يكون غير ذي غَناء، لولا أن ههنا شيئاً يجذب إليه، ويغري علمياً بالنص عليه.

١- قال القفطي في (الإنباه) في حق أبي علي: «قرأ على ابن دَرَسْتَوَيْهِ كتاب (سيبويه) أجمع، واستفسره [عن جميعه][1] وناظره فيه، ودقق النظر، وكتب عنه تفسيره، وعلل العلة، وأقام عليها الحجة، وأظهر فضل البصريين على الكوفيين، ونصر مذهبه على من خالفه من البصريين أيضاً، وأقام الحجة، قال أبو علي: وقرأ معي الكتاب أجمع أبو جعفر بن أبي محمد بن درستويه تعليماً ورواية». انتهى كلام القفطي.

---

(١) في مطبوع (الإنباه): واستفسره جَمْعَهُ، ولم أعرف ما هو، وأرجو أنّ صواب الموضع ما أثبت. وقد جاء النص في غير كتاب الإنباه: واستفسر جميعه.

قلت: فهذا خبر جليل مُعْجِبٌ، وحسبك به في الدلالة على ما أخذ به أبو علي نَفْسَهُ في تحصيل العلم، وفي التأدي به إلى أعلى مراتبه تحقيقاً وتصحيحاً. وإن كتاباً جليلاً ككتاب سيبويه، متلقًى على ذلك النحو الجليل الذي تلقاه به أبو علي، لهو خبيئة نفيسة مذخورة، لا ندري من سيقف عليها من أصادق طلاب العلم، ومن ذوي العناية والجد من نُبَهَاءِ الرجال.

٢- ذكر الحاج خليفة في (كشف الظنون) أن فيمن شرح كتاب سيبويه أحمد ابن أبان بن سيّد، وتابعه عليه عمر رضا كحالة من المحدثين.

٣- فهذان خبران بليغان، إذا أنت ضممت إليهما ما يغلب على قلبك من أن اللغة أغلب على ابن سيّد لا العربية، وجدت نفسك بإزاء أطروحة مائلة الأفق:

هل قرأ ابن سيّد كتاب سيبويه على أبي علي بنحو ما قرأه أبو علي على ابن درستويه؟

وهل بقيت ثمرة تلك القراءة ذخيرة في قلب ابن سيّد، أو على نسخته، أو في أوراقه، أثبتها فيما بعد في شرحه على الكتاب؟.

يؤيد هذا ما يشبه أن يكون انفراداً من ابن سيّد - لمكانه من السلطان - بسماع بعض ذخائر أبي علي.

٤- أما نحن فنعلق الجواب على صحة الخبر القائل بأن لابن سيّد شرحاً على الكتاب، فإن صح فأنت ونحن جميعاً مع الظن الذي يشبه اليقين: أن ابن سيّد قرأ كتاب سيبويه على أبي علي فيما قرأه من مروياته وسماعاته، وأنه أفرغ حصيلة ذلك في شرحه الذي ما بقي لنا إلا الإشارة إليه، وضاع فيما ضاع، أو ضاع السبيل إليه، من ذخائر العرب والعربية في غَيَابات التاريخ.

صاحب الشرطة

وَصْفُ ابن سيد بأنه (صاحب شرطة قرطبة)[١] هو أحدُ الوصفين الجامعين في ترجمة من ترجم له؛ والآخر وصفه بالعلم باللغة والعربية، والعناية بهما، والتصنيف فيهما.

ونحسب أن قرب ابن سيّد من أبي علي كان من أسباب اجتباء الحكم له، وتوليته ما ولاه إياه. وذلك أن إعظام الحكم لأبي علي كان غاية من الغايات، وكان يُعِدُّهُ لكل مهم، فكأنه كان يراه في كل من اقتبس منه أو أخذ منه بسبب. وقد رأينا أن ابن سيّد كان مع أخيه محمد في (فريق العمل) الذي كلفه الحكم بمقابلته نسخ (العين). فهو قريب منه إذن، عارف به وبكفايته، وما يصلح منها للعلم، وما يصلح لعمل السلطان.

ولعله ثَقِفَ أصولَ هذه الكفاية بقربه من أخيه محمد في أثناء ولايته لهذه الخطة من خطط السلطان. وكفايته المستفادة هذه - فيما نقدر - مُرَشِّحٌ آخَرُ له عند الحَكَمِ؛ إلى كفايته العلمية، وقربه من أبي علي. ولهذه المعاني كلِّها، الملحوظةِ في أمر أحمد، وأمر أخيه محمد قبله، شاهدٌ آخَرُ يأتي في موضعه من هذه البحوث إن شاء الله.

وليس بين أيدينا من خبره في عمله خبرٌ واحدٌ يجلو شيئاً من ملامح سلوكه فيه، غير أنا نقدر أنه كان على قَدْرٍ عالٍ من الكفاية العملية، استطاع أي يبقى معه سنواتٍ طوالاً[٢] قيماً على أمن عاصمة الخلافة، وإحدى عواصم الدنيا الحافلة في ذلك الزمان.

---

(١) وربما قالوا: صاحب الشُّرَط.

(٢) بين اثنتي عشرة سنة على تقدير، وست عشرة سنة أو نحوها على تقدير آخر، كما ستراه لتوك.

وأدنى ما يمكن أن تقدر به مدة ولايته الشرطة أن يكون قد وَلِيَهَا ابتداء من سنة أربع وخمسين وثلاثمئة (٣٥٤هـ) - وهي سنة وفاة أخيه محمد - حتى وفاة الحَكَمِ سنة ست وستين وثلاثمئة (٣٦٦ هـ)، وذلك اثنتا عشرة سنة.

وعلى أنه يمكن أن تكون ولايته تلك منذ تولى المستنصر الحكم سنة خمسين وثلاثمئة (٣٥٠هـ)، وهو ما يدل عليه ظاهر العبارة في قولهم: «وكان صاحب الشرطة أيام الحكم»، مع انتفاء ما يعارض هذا الظاهر، إلا شيئاً نرجو أن نعرض له في موضعه من هذه الصحف كما أومأنا إليه غير مرة.

وينبغي لصحة هذا التقدير أن يكون قد عَرَضَ لمحمد بن أبان أَمْرٌ من الأمر صَرَفَهُ عن ولاية ما كان يتولاه من أمر الشرطة سنوات أربعاً إلى أن توفي، وصرف هذه الولايةَ إلى أخيه.

مع احتمال أخير غايةٍ في التوقي والاحتياط: أن يتراخى زمنُ ولايةِ محمدٍ أمْرَ الشرطة إلى أوائل تولي المستنصرِ الحُكْمَ، حتى وفاته - أي وفاة محمد - سنة أربع وخمسين ؛ لتزيد ولاية أحمد أخيه أو تنقص بالقَدْرِ نفسه.

أصالة علم ابن سيّد وأصالة تصانيفه

لا ننفي عن ابن سيّد أصالته العلمية إذا قلنا إن علمه مبنيٌّ على علم أبي علي، وأنه لم يكن ليبلغ ما بلغه لولا أن أبا علي نَجَمَ له - ولغيره - بغتة في أفق الأندلس، ولولا أنه أَظَلَّهُ - كما أَظَلَّ غيرَه - زمانُ الناصرِ والمستنصرِ السعيد.

وللغة العربية تاريخها

الدكتور ايمن الشوا

تمهيد

ترتقي لغة كل قوم بدرجة رقي المتكلمين بها ونجاحهم، ومد سيطرتهم على الأصقاع الأخرى ومخالطتهم لغيرهم من الأقوام، إذ يأخذون من اللغات الأجنبية ما يكون سهلاً ويحتاجون إليه سداً للفراغ الذي يحدثه فقر لغتهم في كثير من العلوم والفنون المتداولة فيما بينهم.

ولا يخفى ما كان للعرب من حضارة مشرقة، ومن سطوة ونفوذ وكثرة فتوحات وسعة معارف وعلوم.

واللغة العربية كانت الأسمى ولقد انتشرت في أصقاع العالم القديم والمعاهد العلمية الزاهرة، خاصةً في بلاد الشام والعراق ومصر والأندلس، حتى أصبحت كعبة يحج إليها طلاب أوروبة وآسية وإفريقية، ولا تزال -إن شاء الله- فتمكنوا بهذه الواسطة من نشر آدابهم بين أولئك الأقوام الذين أخضعوهم لأحكامهم، فدانوا لآدابهم وفلسفتهم وعلومهم وفنونهم الجميلة...

إنَّ الكلام عن اللغة العربية هو قديم جديد: فهو موضوع قديم لأن أسلافنا أشبعوه بحثاً، فبينوا أصل اللغة وحقيقتها ودورها في حياة الأمة، وضرورة

استيعابها، منطلقين من الماضي التليد دارسين التراث العربي الأصيل الذي كان منارة في بناء الصرح الحضاري الإنساني.

وهو جديد لما نجده من اهتمام الأمم قاطبة بلغاتها والعناية بها خير عناية، ولنا من بين هذه الأمم الناهضة كلها شأن غير شأنها، ومن ثمة كانت علينا واجبات أكبر من واجباتها، حتى نبلغ مرحلة الوعي لمبادئنا.

وأصالة الكلام في اللغة، ولا سيما إذا كانت كاللغة العربية لها شأن في التاريخ ومقام في الأدب، وأثر في الحضارة، لَمِّا يتسع فيه مجال القول. وغني عن البيان أن اهتمام الأمة -أي أمة- بلغتها دليل على حضارتها وأصالتها، فليس الإنسان بابن عنصره الأصلي، ولكنه ابن لغته، وليست الأمة شيئاً سوى لغتها، أو بعبارة أصح الأمة لفظ واللغة معناه وأي أمة أضاعت لغتها فقد هلكت، قل: لا تفنى الأمم، ولكنها تموت اللغات.

وكم نادى أصحاب الغيرة في أوائل العصر الحاضر: عصر القوميات بالتركيز على أهمية اللغة والدفاع عنها وحمايتها وصونها، ورددوا قول الشاعر:

لغةٌ إذا وقعت على أسماعنا كانت لنا برداً على الأكباد

ستظل رابطة تؤلف بيننا فهي الرجاء لناطق بالضاد

ثم عرفوا يقيناً أن اللغة هي الركن الأقوى الذي يشاد عليه بناء القومية، فخليق بعد ذلك بالعرب جميعاً أن يحرصوا على لغتهم -وهي تلك اللغة التاريخية السامية- حرص الشريف على أعز كرائمه وأخص مميزاته.

اللغة العربية أرسخ اللغات ثباتاً وبياناً، فلقد ماشت الدهر قديمه وحديثه وهي هي لم تتغير ولم تختلف فيها مناحي البلاغة، ولا تبدلت وجوه الفصاحة منذ أعرق زمن عرفت فيه إلى يومنا هذا ثم من بعده آخر الدهر.

لقد بعث الله في القرون الخمسة من بعد الهجرة رجالاً أكرمهم بروائع

الكلم واصطفاهم لحر القول وأجرى على ألسنتهم الحكمة وفصل الخطاب، فوعوا ما ألهمهم إياه، وبلغوا رسالة البيان على أتمها.

وقفّى على آثارهم بقوم اتبعوا سنن من قبلهم حذو القذاة بالقذاة، وعدُّوا الخروج عما اختطه السلف من ضلالات البدع بل من كبائر الفواحش، فاجتنبوا ما ظهر منها وما بطن، وبذلك نزلوا بطوعهم ورضاهم عن حق الوجدان النفسي والشعور الباطني وكل ما يقذف في روع الشاعر، فكانوا يحتذون مثال غيرهم، ويضربون على غرار سواهم، وينطقون بما لا تجيش به صدورهم، وكان مثلهم كمثل الذي شدَّد فَشُدِّد عليه.

قال غوستاف لوبون: كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم، ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين وأن جامعات الغرب لم تعرف لمدَّة خمسة قرون مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وأنهم هم الذين مدَّنوا أوروبة مادة وعقلاً وأخلاقاً، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفُقْهم قوم في الابتداع الفني...

ولم تزل للعرب عناصر حضارتهم وإن شئت فقل: ديانتهم ولغتهم وفنونهم حية.

وثبتت أصول شريعة الرسول، وفنون العرب ولغتهم أينما حلت[1].

قال الثعالبي في (فقه اللغة وسرّ العربية): «مَنْ أحبَّ الله أَحَبَّ رَسُولَهُ (المصطفى) ﷺ؛ وَمَنْ أَحَبَّ النَّبِيَّ العَرَبِيَّ أَحبَّ العَرَبَ؛ وَمَنْ أَحَبَّ العَرَبَ

(١) حضارة العرب: ٣٨، ٣٩. ترجمة المرحوم عادل زعيتر.

أَحَبَّ اللغة العَرَبِيَّةَ؛ وَمَنْ أَحبَّ العَرَبِيَّة عُنِيَ بِهَا، وَثَابَرَ عَلَيْهَا، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا؛ وَمَنْ هَدَاهُ الله لِلإِسْلاَمِ وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلإِيمانِ، وَآتَاهُ حُسْنَ سَرِيرَةٍ فِيهِ اعْتَقَدَ أَنَّ (مُحَمَّداً) ﷺ خَيْرُ الرُّسُلِ، وَالعَرَبَ خَيْرُ الأُمَمِ، وَالعَرَبِيَّةَ خَيْرُ اللُّغَاتِ وَالأَلْسِنَةِ، وَالإِقْبَالَ عَلى تَفَهُّمِهَا مِنَ الدِّيَانَةِ؛ إِذْ هِيَ أَدَاةُ العِلْمِ، وَمِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، وَسَبَبُ إِصْلاَحِ المَعَاشِ وَالمَعَادِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الإِحَاطَةِ بِخَصَائِصِهَا، وَالوُقُوفِ عَلَى مَجَارِيهَا ومصَارِفِهَا، وَالتَّبَحُّرِ فِي جَلاَئِلِهَا وَدَقَائِقِهَا، إِلاَّ قُوَّةُ اليَقِينِ فِي مَعْرِفَةِ إِعْجَازِ القُرْآنِ، وَزِيَادَةُ البَصِيرَةِ فِي إِثْبَاتِ النُّبُوَّةِ الَّذي هوَ عُمْدَةُ الإِيمانِ؛ لَكَفَى بِهما فَضْلاً يَحْسُن أَثَرُهُ، وَيَطِيبُ فِي الدَّارَيْنِ ثَمَرُهُ».

إنّ اللغة تمتاز من بين سائر العلوم بأنّها مزدوجة المنفعة أو ثنائية الغاية؛ لأنّها بالإضافة إلى أنها علم بذاتها، وسيلة لاكتساب غيرها من المعارف والعلوم، وتظهر هذه الميزة للّغة العربية حين يكون البحث متّصلاً بالمصادر التراثية التي صاغها أصحابها بأساليبَ لغويةٍ أصيلةٍ لايُدرِكُ بُعدَها إلا من حظي من العربية بنصيبٍ وافر، كما تظهر هذه الميزة أيضاً في كثيرٍ مما نقرأ من مؤلفاتٍ وبحوثٍ وقراءاتٍ معاصرةٍ في الشريعة والتفسير والفلسفة والتاريخ والتراجم وغيرها.وما نقف عليه فيها من نقصٍ أو قصورٍ أو خطإٍ كان سببَه سوءُ الفهم اللغوي، وقلّةُ بضاعة الباحث من اللغة، وعدمُ معرفته لأساليب العرب في التعبير، وخطؤه في إدراك مدلولات الألفاظ.

وإن المتتبّعَ لنشأة علماء المسلمين ومراحل تعلّمهم يدرك أنه كانت لهم أصولٌ راسخةٌ يتّبعونها في التنشئة العلمية أو ما نسمّيه اليوم بالتربية والتعليم، وأنه كان من أوكد تلك الأصول أن يتقن المتعلّم كتابَ الله ثمّ يثنّي بعلوم اللغة، فما من عالمٍ في القراءات أو التفسير أو الفقه إلاّ وهو عالم باللغة ونحوها ودلالات ألفاظها وأساليب العرب في التعبير بها. وما من مختصّ-أياً

كان اختصاصُه -إلاّ قد أتقن قبل أن يسلك طريق اختصاصه العلومَ التي تخدُم اختصاصَه وتؤهّله للبراعة فيه، ومن أبرز تلك العلوم علومُ اللغة العربية التي سمّاها علماؤنا (علومَ الآلة) لإدراكهم أنها التي يُحصّلون بها علومَهم، إذ بها يفهمون تلك العلوم، وبها يعبّرون عنها ويؤلّفون فيها.

ولّما كانت اللغة العربية هي الطريقَ إلى فهم كتاب الله، وبأساليبها عُرِضَ الوعدُ والوعيد، وبكلماتها صُوِّر النعيم والجحيم، وصيغت الحدود والأحكام، وبها نطق النبي صَلّى الله عليه وسلّم، فكم أضلَّ الضعفُ بها أقواماً، فزاغ منهم الفهم وانحرفت العقيدة. لذلك كان معظمُ علماءِ الأمة يتقنون علومَ العربية إتقانَهم لاختصاصهم نفسه، حتى لم تَعُدْ تعرِفُ بأيِّ تلك العلومِ كان أحدُهم أكثرَ اختصاصاً! هكذا كان الاختصاص عند علمائنا داعيةً إلى إتقان علومٍ تسبِقه وتلازمه، وتكون دِعامةً له، تؤهّل له وتعين عليه.

وظل الأمر على ذلك قروناً، وجنينا منه أطيب الثمار التي تعتزّ بها المكتبة الإسلامية والعربية. وإذا ما ألقينا نظرةً مقارِنةً على لغات الأمم الحيّة وجدنا الحرصَ ثم الغيرةَ على احترام هذه الأمم للغاتها تبلغ التقديس؛ فلحكيم الصين المشهور: كونفوشيوس كلمة يقول فيها: لو قُدِّر لي الحكم لبدأت بإصلاح اللغة، والصينيون يقدّرون لغتهم. وأربابُ اللغة الإنجليزية أيضاً يهتمون كلَّ الاهتمام والعناية والرعاية بلغتهم، ويعكُفون على تعليم قواعد تلك اللغة بأساليبَ شتّى ودعاياتٍ مختلفة. والفرنسيون يحافظون على رفعة لغتهم وسموّ مكانتها، وهم يفرضون الغراماتِ الباهظةَ على من يستهين بالتحدث باللغة الفرنسية الراقية، ولا يسمحون لدعايةٍ من الدعايات أو لافتةٍ من اللافتات أن تُكتَبَ بلغةٍ عامية أو ملحونة...ولغاتُ تلك الأممِ ليست لغةَ أديانهم!!

وإذا وقفنا عند صلة العربية بالشريعة فإننا لن نتحدَّث عن العربية لغةً كسائر اللغات، ولن نتحدَّث عن الإسلام ديناً إلهياً وتشريعاً مجرّداً عن وسيلة

تلقّيه وآلة تبليغه ولغة رسالته، ولكننا نقصد إلى هذه الصلة التي هي صلة الدين باللغة أو صلة الإسلام بالعربيّة.

لقد شاءت إرادةُ الله سبحانه وتعالى أن تكون العربية لغةَ كتابه ولسانَ وحيه، وأن يكون ذلك الكتابُ الكريم آخِرَ كتبه وخاتمةَ رسالاتِه إلى عباده، فكانت للعربية من ذلك صفةٌ تفرّدت بها من بين اللغات الحيّة؛ فلم ترتبط لغةٌ حيّة من لغات العالم بكتاب إلهي ارتباطَ اللغة العربية بالقرآن الكريم، ولم تحظَ لغةٌ غيرُها بصفة الإعجاز اللغوي، وهي المعجزة الخالدة للقرآن الكريم، وكان من حكمة الله وجميل صنعه ألاّ يصحّ نقلُ القرآن إلى لغةٍ أخرى، فهو لا يترجم واقعاً، ولا تجوز ترجمته شرعاً، وإنما تترجم معانيه وتنقل أفكارُه، ولا تسمّى تلك الترجماتُ ولا ذلك المنقول قرآناً، فالقرآن عربيّ كما وَصَفَه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ١٢/٢]، وأعاد هذا الوصف في غير آية من آيات كتابه الكريم بلغت إحدى عشْرة آيةً، هي:

﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٦/١٠٣].

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٣-١٩٥].

﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٤].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ١٢/٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ١٣/٣٧].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [طه: ٢٠/١١٣].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [الزمر: ٣٩/٢٨].

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: ٤١/٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ٤٢/٧].

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٣].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٢].

وقد رأيت في التعبير القرآني عن هذه الصفة آية من آيات الإعجاز اللغوي في القرآن؛ فلقد جاءت كلمة (عربيّ) في القرآن صفة للقرآن، كما في الآيات السابقة، وصفةً للسان كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٦/١٠٣]. وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٣-١٩٥][1] وبذلك كانت (العربية) في كتاب الله صفةً للقرآن وللّسان، والقرآنُ من قرأ، واللسانُ بمعنى اللغة، ولم تأت (العربيّ) وصفاً للقوم أو المخاطَبين ليتلاءم هذا مع كون القرآن ليس خاصاً بالعرب وحدَهم، ولا مخاطِباً لهم دون سواهم؛ فهو للناس كافةً وللعالمين جميعاً، فكان أبلغ تعبير عن عالمية الدعوة وإنسانية الرسالة وعربية الخطاب.

وكان أبلغ دليل على أن القرآن يُعرِّب المسلمين لساناً، ولا مكان لألسنتهم فيه، إنه يعربهم ولا يستعجم لهم.

ولو أخلص دعاة القومية العربية من غير المسلمين لعروبتهم لقدّروا ذلك حقَّ قدْرِه وأحلّوا القرآنَ المنزلةَ الرفيعةَ في دعوتهم، لأنّه يشدّ إلى اللغة العربية أقواماً وشعوباً ما كانت لولاه لتقرأ من العربية حرفاً.

---

(١) انظر: كتاب مقالات في العربية: د مازن المبارك، مقالة: تعلموا العربية.

إن المسلمين يعرفون أنْ لا إسلامَ بلا قرآن، وأنْ لا قرآنَ إلا بالعربية، ولا صلاةَ للمسلم أياً كانت لغته إلا باللفظ العربي للقرآن.

إن كونَ العربية لغةَ القرآن وشريعتَه هو الذي جعل مئاتِ العلماء من غير العرب يعكُفون على خدمة علوم العربية دراسة وتأليفاً، وهو الذي جعل العربية تنتقل من لغة قومٍ أو أمة لتصبح لغة أقوام وأمم، ولا تقف عند حدود قومها بل تنتشر مع دعوة القرآن وانتشار الإسلام والحضارة الإسلامية.

ولا بدّ أن تُوضَعَ هذه الصلةُ بين العربية والإسلام موضعَها الذي تستحقّ في كل مجال من مجالات الدعوة والسياسة والتعليم، ولقد غفَل عنها كثيرٌ من الدعاة، وأهملها متعمّدين كثيرون من العاملين في ميدان السياسة ومناهج التعليم.

وتأثرَّ كثير من كليات الشريعة والآداب بنظم التعليم الغربية، وخضع بدعوى التخصص في أحد المسارين الشرعي أو الأدبي واللغوي إلى ما يقتضيه التخصّص في غيرهما من تباعد، فلم يكن عند أحدهما ما يحتاج إليه تخصّصه من ثقافة الآخر، فقصّر كل منهما ولم يدرك الغايةَ في تخصّصه.

هذا ولا بدَّ لطالب الشريعة أن يدرك أنه لا يتهيّأ له فهمُ كتاب الله وإدراكُ مقاصده، ولا معرفةُ النصوص الفقهية وأساليبِ استنباط الأحكام واصطلاحات الأصوليين ما لم يكن واسعَ المعرفة باللغة وعلومها لفظاً واشتقاقاً وتصريفاً ونحواً وبياناً. ولا بدّ لطالب العربية أن يدرك أنّه لا تتهيّأ له القوة في اللغة والجودةُ في التعبير ما لم يتوفر على الممارسة العملية والمذاكرة الدائمة لتلك النصوص القرآنية التي بلغت بالعربية حدَّ الإعجاز، ولتلك الأحاديث النبويّة التي مثّلت جوامعَ الكلم، ولتلك النصوص الأدبية جاهليّها وإسلاميّها التي ضمّت ثروةً ضخمةً من الألفاظ وصوراً رائعة من الأداء

اللغويّ الحيّ، وكانت معارضَ لفنونٍ لسانية وأساليبَ تعبيريةٍ لا تغني عنها المعاجم على كثرتها.

ولولا هذه المنزلة للعربية في الإسلام وعلومه لما وصف بها جَلَّ جلالُه كتابَه المبين، ولما حضّ النبيّ صَلّى الله عليه وسلّم على تعلّمها، ولما قال الصحابة والتابعون فيها وعنها ما قالوه، ولما رأينا الغُيُر من رجال الفقه وأعلام الشريعة يؤلفون في ألفاظها ونحوها وإعرابها واشتقاقها مئاتِ الكتب خدمةً يرونها مؤدّيةً إلى خدمة القرآن وعلومه والإسلام وشريعته.

ولعلّ في هذا دليلاً مقنعاً على ما نقرّره من أمر هذه الصلة بين العربية والشريعة، وما ندعو إليه من إحكام الصلة بينهما، ورعاية هذه الصلة في مناهج كلّيات الشريعة والآداب في الجامعات.

إنّ علماء العربية قد كفَوا الناس مَؤُونةَ وضع القواعد العربية، وأحكموا إحكاماً بيّناً لما دوَّنوه من مؤلفاتٍ، وذلك لشدة حاجة الناس إلى معرفة لغة العرب، ليصلوا بها إلى فهم القرآن الكريم، وحديثِ رسوله الأمين، ورأوا أن الجهلَ بذلك نقصٌ ظاهر على المرء المسلم، وشَيْنٌ فاضح على كل ذي دينٍ ومروءة، لذلك أوجبوا في نصوص متعددة بيّنة تعلُّمَها على كل ذي شرف حسيب، وعلى كل مسلم أديب، وفي معرفتها له الفضل والزَّين، وفي الجهل بها عليه النقص والشَّيْن.

أهمية النحو العربي

يرى كثير من العلماء أنّ الذي له حقُّ التقدّم من علوم العربية هو النحو، إذ به يُعرَفُ صوابُ الكلام من خَطَئه، ويُستعان بواسطته على فهم سائر العلوم:

النحو يبسُط من لسان الألكَن   والمرءُ تكرِمُه إذا لم يَلْحَنِ

وإذا طلبْتَ من العلوم أجلَّها   فأجلُّها نفعاً مقيمُ الألسنِ

لقد تكلَّم العربي لغةً هذَّبتها الفطرة وأحكمتها السليقة، بموجب قانون تراعيه من أنفسها، وقد تناوله الآخر عن الأوّل، والصغير عن الكبير من غير أن تحتاج في ذلك إلى وضع قواعد صناعية.

سبب وضع النحو

سبب وضع النحو مع أن النطق بالإعراب سجية العرب من غير تكلف أنَّ العرب لما علت كلمتهم بالإسلام، وانتشرت رايتهم في بلاد فارس والروم، وفتحوا البلاد واختلطوا بهم في المصاهرة والمعاملة والتجارة والتعليم. دخل في لسانهم العربي المبين وَضْمةُ اللسان الأعجميّ؛ فخفضوا المرفوعَ ورفعوا المنصوبَ، وما إلى ذلك من تعرّض اللسان لِلَّحن والفساد، حتى كاد أسلوبُ النطق العربي يتلاشى لأسباب كثيرة، فاستدعى الحال إلى استنباط مقاييسَ من كلامهم يُرجَعُ إليها في ضبط ألفاظ اللغة، فكانت جهود العلماء بارزة في ذلك.

روي عن عاصم بن أبي النجود أنه قال: أولُ مَنْ وضَعَ النحو أبو الأسود الدّؤلي، جاء إلى زياد بالبصرة، فقال: إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجمَ وتغيّرت ألسنتُهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلاماً يَعرِفون أو يقيمون به كلامهم قال: لا، فجاء رجل إلى زياد فقال: أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنوناً فقال زياد: توفي أبانا وترك بنونا؟!! ادْعُ لي أبا الأسود، فقال: ضع للناس الذي نهيتُك أن تضعَ لهم. فكان أبو الأسود أولَ من وضع العربية بالبصرة[1].

---

(١) إيضاح الوقف: ٤٢، عيون الأخبار: ٢/ ١٥٩، فضائل القرآن لابن كثير: ٨٩.

وكتب معاوية إلى زياد يطلب عبيد الله ابنه، فلما قدم عليه كلّمه فوجده يلحن فردّه إلى زياد، وكتب إليه كتاباً يلومه فيه، ويقول: أَمِثْلُ عُبيدِ الله يُضَيَّع.؟!.

فبعث زياد إلى أبي الأسود فقال له: يا أبا الأسود إنّ هذه الحمراءَ قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب. فلو وضعْتَ شيئاً يصلح به الناس كلامَهم ويعربون به كتاب الله. فأبى ذلك أبو الأسود وكره إجابة زياد إلى ما سأل، فوجّه زياد رجلاً وقال له: اقعد في طريق أبي الأسود فإذا مرّ بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمّد اللحن فيه ففعل ذلك، فلما مرَّ به أبو الأسود رفع الرجل صوته فقرأ: «أنَّ الله بريء من المشركين ورسُولِه» فاستعظم ذلك أبو الأسود، وقال: عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم رجع من فوره إلى زياد فقال له: يا هذا قد أجبتك إلى ما سألت، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن فابعث إليَّ بثلاثين رجلاً، فأحضرهم زياد، فاختار منهم أبو الأسود عَشَرةً ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس، فقال: خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدةً فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله. فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات غُنّةً فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره[1].

ونُقِل عن أبي الأسود الدؤلي أنَّ ابنتَه رفعت وجهها إلى السماء وتأملت بهجةَ النجوم وحسنها، فقالت: ما أحسنُ السماءِ؟؟ على صورة الاستفهام فقال لها: يا بنية نجومُها.فقالت: إنما أردت التعجّب، فقال لها: قولي ما أحسنَ السماءَ، وافتحي فاك.

---

(١) إيضاح الوقف: ٤٠-٤١.

وقف أعرابي على رجلٍ وهو يعلّم آخرَ القرآنَ، وهو يقول: «أنَّ الله بريء من المشركين ورسُولِه».

فقال له الأعرابي: والله ما أنزل الله هذا على نبيّه محمد صَلّى الله عليه وسلّم. قال: فوثب إليه الرجل فَلبّبَ الأعرابيَّ ثم قال: بيني وبينَك أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب، فذهب به إلى عمر فقال له: يا أمير المؤمنين إني كنت أعلّم رجلاً فسمعني هذا وأنا أقول: أنّ الله بريء من المشركين ورسولِه، فقال: والله ما أنزل الله هذا على محمد، فقال عمر: «صَدَقَ الأعرابي، إنما هي: ورسولُه»، برفع اللام[1].

وروي هذا الخبر بوجهٍ آخرَ عن ابن مليكة رضي الله عنه قال: قدم أعرابيّ في زمان عمر فقال: من يقرئني مما أنزل الله على محمد؟ قال: فأقرأه رجل (براءة) فقال: (أنَّ الله بريء من المشركين ورسولِه) بالجر، فقال الأعرابي: أوَقد برىء الله من رسوله؟ إن يكن برىء الله من رسوله فأنا أبرأُ منه. فبلغ عمرَ مقالةُ الأعرابي فدعاه. فقال: يا أعرابي!أتبرأ من رسول الله؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا عِلْمَ لي بالقرآن، فسألت من يقرئني القرآنَ فأقرأني هذا سورةَ براءة، فقال: (أنّ الله بريء من المشركين ورسولِه) فقلت: أوقَد برىء الله من رسوله فأنا أبرأ منه. فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي. قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أن الله بريء من المشركين ورسولُه. فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأُ ممن برىء الله ورسوله منه، فأمر عمر بن الخطاب ألاّ يقرئ القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود فوضع النحو[2].

---

(١) ورسولُه: الواو عاطفة، رسولُ: مبتدأ مرفوع، . والخبر محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: ورسوله بريء أيضاً.

(٢) إيضاح الوقف: ٣٦-٣٩، القرطبي: ١/ ٢٤.

قال الزمخشري في الفائق: أبو الأسود الدؤليّ رحمه الله وضع النحو حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقة، أي اللغة التي يسترسل فيها المتكلم بها على سليقته أي سجيّته وطبيعته، من غير تقيّد إعراب ولا تجنب لحن، قال:

ولست بنحويٍّ يلوك لسانَه ولكن سليقيّ أقول فأعرب[١]

(يلوك: أي يمضغ شيئاً صلباً. يديره في فيه).

قال الرازي في كتاب الزينة:

«وقد كان لسانُ العرب فَسَدَ حين تعرّبت العجم، واختلطت اللغات، ولَحَنَ أكثرُ الناسِ في كلامهم؛ فاستدرك ذلك أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السّلام، فوضع للناس رسماً في النحو، فأخذه عنه أبو الأسود الدّؤلي، فأسس العربية، وفتح بابها، ونهج سبيلها، ووضع فيها قياساً»[٢].

ولا شك أن أفضلَ العلوم ما كان زينةً وجمالاً لأهلها، وعوناً على حسن أدائها، وهو علم العربية الموصِلُ إلى صواب النطق، المقيمُ لزيغ اللسان، الموجب للبراعة، المنهج لسُبُل البيان. بجودة الإبلاغ المؤدّي إلى محمود الإفصاح، وصدق العبارة عما تُجنّه النفوس ويكنّه الضمير من كرائم المعاني وشرائفها، وما الإنسانُ لولا اللسانُ، وقد قيل: المرء مخبوء تحت لسانه، والإنسان شطران، لسان وجَنان، وهو من قول النبي البليغ: «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه»[٣].

قال أبو عبيدة: «ولم يحتج السَّلَفُ ولا الذين أدركوا وحيَه إلى أن يسألوا النبيَّ صَلّى الله عليْه وسلم عن معاني القرآن، لأنهم كانوا أعربَ الألسن،

(١) الفائق: ٢/ ١٩٥ .

(٢) الزينة: ٧١.

(٣) حديث صحيح.

فاستغنوا بعلمهم عن معانيه وعمّا فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتخليص»[١].

وقال ابن شهاب الزهري: «إنما أخطأ الناسُ كثيراً من تأويل القرآن لجهلهم بلغة العرب. وقال أبو عبيد: سمعت الأصمعيّ يقول: سمعت الخليل ابن أحمد يقول: سمعت أيوب السختياني يقول: عامّة من تزندق بالعراق لقلّة علمهم بالعربية»[٢].

قانون اللغة العربية

للغة العرب مع هذا الكمال فضائلُ ليست لسائر اللغات، فإن لها قانوناً يُرجع إليه فيها، ومعياراً يُعتبَر به ومقياساً يقاس عليه، فإذا شرد عنهم حرف أو اعوَجَّ عن سَنَنِه، أو اشتبه معناه رجعوا إلى قانونهم، ووزنوه بمعيارهم، واستعانوا عليه بمقياسهم، فأقاموا دَرْأه، وقوّموا عِوَجَه، لكي لا يبطل معاني الأسماء، فتمحق عن اللغة وتَدْرُس، كما درست سائر اللغات[٣].

قال الرازيّ: «النّحو هو معيار جميع كلام العرب، ما كان منه منثوراً، وما كان منه شعراً، وما كان منه سجعاً، وغير ذلك من وجوه كلام العرب، وبالنحو يُرتَّلُ القرآن الذي هو كلام الله عَزَّ وجَلّ فيعرَبُ كل حرف منه به، ويُقوّم عليه، حتى لا يُترَكَ حرف واحد إلاّ ويُعطَى حقَّه من الإعراب».

وهكذا كان الفصحاء من العرب يفعلون في كلامهم كله يعطون كلّ حرف حظّه من الإعراب، وليس هذا لسائر لغات الأمم، وهي فضيلة خصّت بها هذه اللغة دون غيرها.

---

(١) الزينة: ١١٦.

(٢) انظر الزينة للرازي: ١١٦-١١٧.

(٣) الزينة: ٧١.

وهذا ما وصل إليه العالم الألماني فك في كتابه (العربية) حيث يقول: «لقد احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرّف الإعرابي بسمةٍ من أقدم السمات التي فقدتها جميع اللغات السامية... فأشعار عرب البادية من قبل العهد الإسلامي ومن بعده - ترينا علامات الإعراب مطّردةً كاملةَ السلطان كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين واللغويين الإسلاميين كانوا حتى القرن الرابع الهجري على الأقل يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم، يدل على أن التصرف الإعرابي كان بالغاً أشدّه لذلك العهد»[١].

من بلاغة العربيّة[٢]

قال الفرّاء: «نظرنا في الكلام، فوجدنا أبلغه عند ذوي العقل والألباب وأبقاه في الحِكَم والآداب، وأخفّه على سامعه والحامل له، ما كان أوجزَه وأجمعَه وأدلّه على ما يحيط به الكثير، ووجدنا للعرب في ذلك فضلاً على جميع الأمم، اختصاصاً من الله عَزَّ وجَلّ وكرامةً أكرمهم بها، فبعث منهم رسوله محمداً صَلّى الله عليه وسلّم وأنزل عليهم قرآناً بلسان عربي مبين. فوجدناهم أدخلوا ذلك للإيجاز في القول، والاكتفاء بقليله الدالّ على كثيره، فقالوا: «ضَرَبَ أخوك أخانا» فدلّوا برفع أحد الأخوين ونصب الآخر على الفاعل والمفعول به، ولو كان مخرج الكلمتين واحداً فقيل: ضرب أخوك أخونا، أو أخاك أخانا، لم يكن فيهما فرق يدلّ السامع على الضارب من المضروب.

وفي مجال فقه اللغة وسبر العربية سمّى العرب معنيين باسم واحد، فاجتمع لهم التوسعةُ في الكلام والإيجاز في القول من ذلك أن (الضَّرْب)كلمة واحدة

---

(١) انظر كتاب الزينة: ٧٩ والحاشية: ٣ منه.

(٢) انظر الزينة: ٧٦-٧٧.

تحتها تفسيرٌ بوجوه؛ فقالوا للضرب في الوجه لَطْماً، وفي القَفَا صَفْعاً، وفي الرأس نقْفاً، وشجَّاً، إذا أدمى. في أشياء كثيرة لا تحصى.

وكان قولهم: لُطِمَ فلان، أوجز من قولهم: ضُرِبَ على وجهه، وقولهم: صُفِع فلان، أوجز من قولهم: ضُرِب على قفاه، فَوسموا الحرفين كلاً منهما بسمةٍ، فعبّرت عن كلمتين. وفي مثل هذا المعنى قالت العرب في الجراحات لما كان بالسيف (ضربة)، وبالرمح (طعنة)، وبالسهم (رشقة)، وبالسكين (وَجْأة)، وبالحجر (شدخة)، وبالسوط (تقنيع)، فاكتفوا بذكر هذه الجراحات عن ذكر اللسان. وليس هذا لسائر الأمم حتى يذكروا السلاح المعمول به، واختصرت العرب هذه الألفاظ اختصاراً عليها من ذكر الآلات المستعملة.

أخبار في الحضّ على تعلّم العربية

إنّ أهمية فهم العربية وإدراك قواعدها ومعرفة أسرارها، كل ذلك كان دافعاً لأهل الغيرة على البيان القرآني والحديث النبويّ حضَّ على تعلّم العربية تعلماً كافياً كاملاً لأدوات الآلة وعلومها، وهذه الأخبار الصريحة جُمِعَت من عهد رسول الله ﷺ وصحابته والتابعين ومن بعدهم تبيّن قدسيّة هذه اللغة وعزتها...

هذه اللغة الكريمة التي حَرَصَ عليها أسلافنا الأقدمون حِرصاً بالغاً لم تَعْهَدْهُ لغةٌ غيرُها في روايتها؛ وترتيب قواعدها؛ واستقصاءِ أصولها، وإحصاءِ مفرداتها؛ واستيعاب الشواهد عليها؛ وضبْط كلماتها وموازينها؛ وبيان الفروق اللغوية بين مترادفاتها؛ وتحقيق المعرَّب والدخيل ولغة السَّواد، وتأدية الفُصْحَى إلينا في سِياجٍ منيعٍ من الصَّون والعناية.

هذه اللغة الكريمة ظفرت بأبناءٍ بَرَرة من أئمتها الثقات الأثبات، وقفوا جهودَهم المثمرةَ الناضجة على العناية بها، وبالغوا في رعايتها وحفظها وتنقيتها، وكان ذلك منذ عصر الجاهلية حيث كان الشعراء والخطباء يتفاخرون بالفصاحة والبيان، إلاّ أنّ العنايةَ ازدادت والرعاية عظُمتْ بمجيء الإسلام؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما جاء بالإسلام كان دينه القَيِّمُ الحق مؤيِّداً العربيةَ ورافعاً مكانتها وشأنها إلى أعلى الذُّرى، وصارت وسيلةً من وسائل العبادةِ والتشريع، وسبيلاً يُفْضي إلى العلم بالدين، فالصلاة وهي عماد الدين وعمودُه لا تتم إلاّ بالقرآنِ الكَريم، ولا تصِحُّ إلاّ إذا تُليتِ السور بالعربية كما أنزلت من الله.

وكانت العناية الأولى باللغة استجابةً إلى ما توجبه المحافظةُ على القرآن الكريم وتفهُّمُ معانيه من حفظ مادته اللغويةِ وما ترمى إليه من دقيق الدلالة والمغزى، وصحيح المبنى والمعنى[١].

ثم نجد بعد هذا العربية لم تكن سبيل العلم بالدين وحدَه، بل نجدها سبيلاً إلى المعارف الإنسانية كلّها، ومظهراً من مظاهر الحضارة والمدنية وترف العقل والإحساس، وأداةً للتعبير عن تجارب الشعور والخواطر والآراء.

غيرة النبي صَلّى الله عليه وَسلّم على العربية

إذا كان الرجل لا يصفُ نفسه إلا بما يفخَرُ به، فإننا نستطيع القول: إن النبي ﷺ كان يفخر بلسانه ولغته، فصاحةً ووضوحاً وسلامة وبلاغة.

وقد جاء ذلك في أحاديثَ كثيرةٍ منه قوله ﷺ: «أنا أعربكم، أنا من

---

(١) (مقدمة الصحاح).

قريش، ولساني لسان سعد بن بكر»[١]. وأوضح من هذه الرواية في تأكيد سلامة اللغة والتبرؤ من اللحن قوله ﷺ: «أنا أعرب العرب، ولدت في بني سعد، فأنّى يأتيني اللحن؟»[٢]. وأشدّ وضوحاً في استنكار اللحن وتسميته ضلالاً ما رووا من أن النبي صَلّى الله علّيه وسلم سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضلّ»[٣] وفي حديث ابن الزناد أن رجلاً قرأ عند رسول الله صَلّى الله عليه وسلّم فلحن فقال رسول الله صَلّى الله عليه وسلّم: «أرشدوا صاحبكم»[٤] وتسمية اللحن بالضلال بلاغة لا تصدر إلاّ عن بليغ؛ لأنها تسمية الشيء بما يؤدي إليه، وكم ضلّ أناس في الفهم لضلالتهم في اللغة، سواء كان ذلك في دلالات الألفاظ أو أساليب التعبير أو حركات الإعراب. وما أظن ابن جني ومن تقيّله إلا مقتبسين من هذا الحديث النبوي حين قالوا ما قالوه من أن ضلال بعض الفرق راجع إلى ضلالتهم في فهم اللغة... وإن أكثر من ضلّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه واستخفّ حلمَه ضعفُه في هذه اللغة الكريمة الشريفة[٥]، ثم عاد ابن جني ثانية ليبيّن أن فساد الاعتقاد كثيراً ما يرجع إلى التعلق بظاهر اللغة دون معرفة أسرارها وأغراضها[٦].

وجاء عن النبي صَلّى الله عليه وسلّم وعن أصحابه وتابعيهم رَضِيَ الله عنهم من تفضيل إعراب القرآن، والحضّ على تعليمه، وذمّ اللحن وكراهيته ما

---

(١) رواه ابن سعد مرسلاً. كنز العمّال: ١١/ ٤٠٤ برقم: ٣١٨٨٤.

(٢) رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري. انظر كشف الخفاء: ٢/ ٢٣٢.

(٣) الخصائص: ٢/ ٨.

(٤) انظر كنز العمال: ٢٠٨٩.

(٥) الخصائص: ٣/ ٢٤٥.

(٦) الخصائص: ٣/ ٢٦٤- ٢٧٠.انظر مقالات في العربية: د.مازن المبارك، مقالة: تعلموا العربية.

وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلّمه ولو أنصف المسلمون لمنعوا من لم يكن متضلعاً من العربية أن يفتي في الشرع أو يؤلف في التفسير، ولو أنصف علماء الشريعة لمنعوا من لم يتقن العربية من التخصّص في الشريعة، ولقد كانت مناهج علمائنا أن يبدأ الطالب بحفظ القرآن، ثم يثنّي بعلوم العربية، ثم ينتقل إلى دراسة علوم الدين.

مَسْرَدُ الأخبار الدّالة على تعلم العربية

هذا سَرْدٌ للأخبار مجموع من كتب فضائل القرآن والتفسير وكتاب إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري وغيرها:

١- عن أبي هريرة رَضيَ الله عنه أنّ النبي صَلى الله عليه وسلّم قال: «أعربوا القرآنَ والتمسوا غرائبه»[١].

٢- عن الوليد بن محمد بن زيد قال: سمعت أبا جعفر يقول: قال رسول الله صَلى الله عليه وسلّم: "أعربوا الكلامَ كي تُعربُوا القرآن" ثم قال أبو جعفر: لولا القرآنُ وإعرابه ما باليت ألا أعرفَ منه شيئاً[٢].

٣- قال أبو بكر الصديق رَضِيَ الله عنه: "لأنْ أعربَ آيةً من القرآن أحبُّ إليَّ من أن أحفظ آية"[٣].

٤- قال أبو بكر وعمر رَضِيَ الله عنهما: "لَبَعْضُ الإعراب أعجبُ إلينا من حِفْظِ بعض حروفه"[٤].

---

(١) إيضاح الوقف: ١٥، فضائل القرآن للقاسم بن سلاّم: ٨٠، فضائل القرآن لابن كثير: ٢٠١، الجامع الصغير ١/٥٢.

(٢) إيضاح الوقف: ٢٢، فضائل القرآن: ٨٢، الجامع الصغير: ١/٣

(٣) إيضاح الوقف: ٢٣، فضائل القرآن: ٨٢ .

(٤) إيضاح الوقف: ٢٠، الأضداد: ٢٤٤

٥- عن ليث عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب رَضيَ الله عنه "تعلموا العربية فإنها تُثَبِّتُ العقل وتزيد في المروءة" وذكره الزمخشري بلفظ: عليكم بتعلم العربية، فإنها تدل على المروءة، وتزيد في المودّة[١].

٦- كَتَبَ عمر بن الخطاب رَضيَ الله عنه: "أنْ تعلّموا الفرائضَ والسُّنة واللّحْنَ كما تعلَّمون القرآن".

(تعلّمون: أي تتعلمون، حذفت التاء للتخفيف) اللحن: النحو. قال الزَّبيدي: تعلَّموا اللحن في القرآن: أي: تعلموا كيف لغةُ العرب فيه، الذي نزل القرآن بلغتهم. وقال الأزهري في تفسير قوله: تعلموا اللحن في القرآن، أي: لغة العرب في القرآن واعرفوا معانيه[٢].

٧- كتب سيدنا عمر بن الخطاب رَضيَ الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: أنْ مُرْ مَنْ قِبَلكَ بتعلم العربية؛ فإنها تدلُّ على صواب الكلام، ومُرْهم برواية الشعر؛ فإنّه يَدُلُّ على معالي الأخلاق[٣].

٨ - قيل للحَسَن: ما تقول فيمن يتعلّم العربية، أتخاف أن يكون ذلك يزيد في الهجاء؟ فقال: لَيس به بأس، قال عمر بن الخطاب: عليكم بالتفقه في الدين والتفهم في العربية، وحسن العبارة[٤].

---

(١) إيضاح الوقف: ٣١، طبقات النحويين واللغويين: ٣-٤، الفائق: ٤/ ٥١.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء: ١٥، فضائل القرآن للقاسم: ٩١، الأضداد لابن الأنباري: ٢٣٩، البيان والتبيين للجاحظ: ٢/ ٢٤٧، أمالي القالي: ١/ ٥، تاج العروس: (لحن): ٩/ ٣٣١ط دار صادر، الزينة: ١١٧.

(٣) إيضاح الوقف: ٣٠- ٣١.

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد: ٩٠، إيضاح الوقف: ٤٩.

٩ - كان عمر بن الخطاب إذا سمع رجلاً يخطئ قبّح عليه وإذا أصابه يلحّن ضربه بالدّرة[١].

١٠ - عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أنّ عمر بن الخطاب رَضيَ الله عنه أتى على قومٍ يقرئ بعضُهم بعضاً، فلما رأوه سكتوا، فقال: ما كنتم تراجعون؟ قالوا: كان يقرئ بعضنا بعضاً. فقال: "اقرؤوا ولا تلحَنُوا".أي لا تتركوا الإعراب فتخطئوا[٢].

١١ - عن الشعبي قال: قال عمر بن الخطاب رَضيَ الله عنه: "مَنْ قرأ القرآنَ فأعربَ كان له عند الله أجرُ شهيد"[٣].

١٢ - قال عمر بن الخطاب رَضيَ الله عنه: "تعلَّموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه"[٤].

١٣ - مرَّ عمر بن الخطاب رَضيَ الله عنه بقوم يرمون نَبْلاً، فعاب عليهم رميهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين إنا قوم متعلّمين. فقال: لحنُكم أشدُّ عليَّ من رميكم، سمعت رسول الله صَلى الله عليه وسلّم يقول: "رحم الله امرأً أصلَحَ لسانه"[٥].

١٤ - روى الترمذي عن العتبي قال علي - كرَّم الله وجهه -: "كلام العرب كالميزان الذي يُعرف به الزيادة والنقصان، وهو أعذبُ من الماء، وأرقُ من الهواء، إن فسّرته بذاته استصعب وإن فسّرته بغير معناه استحال، فالعرب

---

(١) إيضاح الوقف: ٥١.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء: ٢٠، الأضداد: ٢٤٤.

(٣) إيضاح الوقف: ٢٠.

(٤) إيضاح الوقف: ٣٥، العقد الفريد: ٢/٣٧٩

(٥) إيضاح الوقف: ٢٢، فضائل القرآن لأبي عبيد: ٩٠، الجامع الصغير: ٢/١٩، الأضداد: ٢٤٤.

أشجار وكلامهم ثمار، يُثمرون والناس يجتنون، بقولهم يقولون وإلى عملهم يصيرون»[١].

١٥ - قال أبو عمرو بن العلاء: جاء أعرابيّ إلى عليّ عَليْه السلام فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين كيف تقرأ هذه الحروف؟ (لا يأكله إلاّ الخاطون)كلنا - والله - يخطو. قال: فتبسم أمير المؤمنين عَليْه السلام وقال: يا أعرابيّ لا يأكله إلا الخاطئون، قال: صدقت - والله - يا أمير المؤمنين!ما كان الله ليظلم عباده. ثم التفت أمير المؤمنين عَليْه السلام إلى أبي الأسود الدؤلي، فقال: إنّ الأعاجم قد دخلت في دين الله كافةً، فضع للناس شيئاً يستدلون به على صلاح ألسنتهم، ورسم له الرفعَ والنصبَ والخفضَ.

وأورد الزجّاجي في أماليه عن أبي جعفر الطبري عن أبي حاتم السجستاني عن يعقوب بن إسحاق الحضرمي.. عن أبي الأسود الدؤلي قال: دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضيَ الله عنه فرأيته مُطْرِقاً متفكّراً، فقلت: فيما تفكّر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحناً، فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية، فقلت: إن فعلت هذا أحيَيْتنا وبقيتْ فينا هذه اللغةُ، ثم أتيته بعد ثلاثٍ، فألقى إليّ صحيفة فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلامُ كلُهُ اسم وفعل وحرف

فالاسم: ما أنبأ عن المسمّى. والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمّى. والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.

---

(١) كتاب الزينة للرازي: ٦٣.

ثم قال لي: تَتَبَّعْه، وزِدْ فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أنَّ الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما تتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهرٍ ولا مضمرٍ.

قال أبو الأسود: فجمعتُ منه أشياءَ، وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنَّ وأنَّ وليت ولعلَّ وكأنَّ - ولم أذكر(لكنَّ) - فقال لي: لِمَ تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها. فقال: بل هي منها، فزدها فيها".[١]

١٦- عن ابن عبَّاس رَضيَ الله عنه قال: قال رسول الله صَلى الله عليه وسلّم: "أحبُّوا العربية لثلاثٍ، لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي".[٢]

١٧- ذَكَر أبو نُعيم عن أبي خَلْدَةَ عن أبي العالية أنه قال: "كان ابن عبّاس يُعَلِّمنا اللَّحْنَ" أي اللغة.[٣]

١٨- عن ابن فُضيل عن ليث عن طلحة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: "أعربوا القرآن".[٤]

١٩- قال عبد الله بن مسعود: "جَوِّدُوا القُرآن، وزَيِّنوه بأحسنِ الأصواتِ، وأعربوه؛ فإنّه عربي، والله يُحبُّ أن يعرب".[٥]

---

(١) أمالي الزجاجي: ٢٣٨، معجم الأدباء: ١٤/٤٩، سبب وضع علم العربية: ٣٣-٣٥.

(٢) إيضاح الوقف: ٢١، الجامع الصغير للسيوطي: ١/٩، فيض القدير: ١/١٨٧، ميزان الاعتدال: ٣/١٠٣، معرفة علوم الحديث: ١٦١-١٦٢.

(٣) إيضاح الوقف: ٢٦.

(٤) إيضاح الوقف والابتداء: ١٧، فضائل القرآن لأبي عبيد: ٩٥، المشكاة: ٢/٦٦٧.

(٥) إيضاح الوقف: ١٦، الجامع للقرطبي: ١/٢٣.

٢٠ - عن ابن مسعود رَضي الله عنه قال: "أعربوا القرآن فإنه عربي، وإنه سيجيء قوم يُثقِّفونه، وليسوا بخياركم"(معنى يثقفونه: يقوّمون حروفه كما يقوم المثقف الرمح...ومعنى الحديث أنهم يُقوّمون ألفاظه ولا يعملون به).[١]

٢١ - عن سفيان بن سعيد عن عقبة الأسدي عن أبي العلاء قال: قال عبد الله بن مسعود: أعربوا القرآن فإنه عربي[٢].

٢٢ - عن أُبيّ بن كعب قال: "تَعَلَّموا اللَّحْنَ في القرآن كما تتعلّمونه"[٣].

٢٣ - عن ابن عمر رَضيَ الله عنه قال: قال رسول الله صَلى الله عليه وسلّم: "من قرأ القرآنَ فلم يُعْرِبْه وُكِّلَ به مَلَكٌ يكتب له، كما أُنزل، بكلٍّ حرف عَشْر حسناتٍ، فَإن أعرَبَ بعضَه ولم يُعْرِبْ بعضَه وُكّلَ به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حَسَنةً، فإن أعربَه وكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرفٍ سبعين حسنةً"[٤].

٢٤ - ذكر ليثُ عن مجاهد عن ابن عمر قال: "أعربوا القرآنَ"[٥].

٢٥ - قيل للحسن في قوم يتعلمون العربية فقال: "أحسَنُوا، يتعلمون لغة نبيهم صَلى الله عليه وسلّم"[٦].

٢٦ - سأل يحيى بنُ عتيق الحسنَ البصري: أرأيتَ الرجلَ يتعلّمُ العربيةَ يطلُبَ بها حُسْنَ المَنطِق، ويلتمسُ أن يُقيمَ قراءته؟ قال: "حسنٌ، فتعلمْها يا

---

(١) إيضاح الوقف: ٣٥-٣٦.
(٢) إيضاح الوقف: ٣٥، الجامع للقرطبي: ١/ ٢٣
(٣) إيضاح الوقف: ١٧، الأضداد: ٢٣٩
(٤) إيضاح الوقف: ١٦، ميزان الاعتدال: ٤/ ٥٤١، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ٢٣
(٥) إيضاح الوقف: ٢٩، القرطبي: ١/ ٢٣، الأضداد: ٢٤٤.
(٦) إيضاح الوقف: ٢٩، الجامع للقرطبي: ١/ ٢٣

أخي؛ فإنّ الرجل ليقرأ الآية فيعْيَا بوجهها فيهلِك فيها"[١]. (المنطق: أي النطق، وهو مصدر ميمي.إقامة القراءة: أداؤها باستقامة، عَمِي يعيا: إذا لم يهتد لوجهه).

٢٧- قال أبو الأسود: "إنّي لأجد لِلَّحْنِ غَمَراً كغَمَر اللحم".[٢] (الغمر بتحريك الغين والميم ريح اللحم).

٢٨- روى الفراء عن الكسائي قال: أخبرني الكسائي عن أبي الدّينار قال: تعلّم العربية فإنها هي المروءة الظاهرة، وهي ترتّب الوضيع مراتب الأشراف[٣].

٢٩- عن إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد أنه كره اللَّحْن في القرآن[٤].

٣٠- عن عبد الله بن بريدة عن رجلٍ من أصحاب النبي صَلى الله عليه وسلّم قال: "لو أني أعلمُ أني إذا سافرت أربعين ليلةً أعربت آيةً من كتاب الله لفعلت"[٥].

٣١- عن أبي جعفر محمد بن علي أنّ العباس قال للنبي صَلى الله عليه وسلّم: ما الجمال في الرجل يا رسولَ الله؟قال اللسانُ[٦].

---

(١) انظر إيضاح الوقف والابتداء: ٢٨، فضائل القرآن لأبي عبيد: ٩٥، الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٧٩، ٢/ ١٨٠، الزينة للرازي: ١١٧- ١١٨.

(٢) إيضاح الوقف: ٣٢، عيون الأخبار: ٢/ ١٥٨.

(٣) إيضاح الوقف: ٤٥- ٤٦.

(٤) إيضاح الوقف: ٢٦.

(٥) إيضاح الوقف: ٢٦، الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٧٥.

(٦) إيضاح الوقف: ٢٨، البيان والتبيين: ١/ ١٩٥، عيون الأخبار: ٢/ ١٦٨.

٣٢- عن يحيى بن يَعْمُرَ أنَّ أبا ذرٍّ قال: تعلَّموا العربية في القرآن كما تتعلمون حفظه[١].

٣٣- قال أبو الحسن المدائني: كان يُقال: إذا أردت أن تعظُم في عين مَنْ كنتَ في عينيه صغيراً، أو يصغر في عينيك من كان عندك كبيراً فتعلم العربية[٢].

٣٤- قال مسلمة بن عبد الملك: مروءتان ظاهرتان: الرّياشُ والفصاحة[٣].

٣٥- عن ابن شهاب الزهري قال: ما أحدثَ الناسُ مروءة أعجبَ إليَّ من تعلّم الفصاحة[٤].

٣٦ - عن الشعبي قال: قلت: إني لأسمع الحديث ليس فيه إعراب، فأعربه قال: نعم.[٥]

٣٧- عن مكحول قال: بلغني أنّ من قرأ القرآن فأعربه كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب.[٦]

٣٨- سمع أبو عمرو بن العلاء رجلاً يلحَن، فقال: ألا أراك نَذْلاً بعدُ؟!!.[٧]

---

(١) إيضاح الوقف: ٢٣، العقد الفريد: ٢/ ٣٧٩.

(٢) إيضاح الوقف: ٣٢، عيون الأخبار: ٢/١٥٧.

(٣) البيان والتبيين: ١/٣٨٦، طبقات النحويين واللغويين: ٢٢- ٢٣، إيضاح الوقف: ٤٧.

(٤) إيضاح الوقف: ٣٤.

(٥) إيضاح الوقف: ٣٤، الكفاية: ١٩٤.

(٦) إيضاح الوقف: ٢١.

(٧) إيضاح الوقف: ٤٥.

٣٩- روى الأصمعي عن عيسى بن عمر قال: قال رجل للحسن: يَوْمَ يُحْشَرُ فقال: (المتّقون) قال: فإنها (المتقين) قال: فهي (نحشُرَ المتّقين) مريم: ٨٥.[١]

٤٠- روي عن مجاهد أنه قال: "لأنْ أُخطِئَ بالآية أحبُّ إليَّ من أن ألحَن في كتاب الله تعالى".[٢]

٤١- قال أُبيّ بن كعب: تعلَّموا اللحن في القرآن كما تعلَّمونه.[٣]

٤٢- عن عبيد الله بن عمر عن نافع أنَّ ابن عمر كان يضرب وَلَدَهُ على اللَّحنِ في كتاب الله عزّ وجل.[٤]

٤٣- ذكر سليمان بن حرب أن أبا هلال قال: حدثني رجل من باهلة أنَّ كاتب أبي موسى كتب إلى عمرَ، فكتب: (مِنْ أبو موسى) فكتب إليه عمر "إذا أتاك كتابي هذا فاجلده سَوْطاً واعزله عن عملك"[٥].

٤٤- عن ابن شُبْرمة قال: ما لبسَ الرجال لبساً أزين من العربية، ولا لبس النساء أزين من الشحم.[٦]

٤٥- قال عبدُ الملك بن قُريب: حدثنا عيسى بن عمر، قال: قال رجلٌ

---

(١) إيضاح الوقف: ٣٠.

(٢) إيضاح الوقف: ٢٦.

(٣) إيضاح الوقف: ٢٣- ٢٤، فضائل القرآن: ٨٥، الأضداد: ٢٣٩.

(٤) إيضاح الوقف: ٢٤، الأضداد: ٢٤٤، ميزان الاعتدال: ٣/٦٣٩، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: ٢/٨٩.

(٥) إيضاح الوقف: ٢٥، البيان والتبيين: ٢/٣٤٤، مراتب النحويين: ٦.

(٦) إيضاح الوقف: ٣٢، عيون الأخبار: ٢/١٥٧.

للحسن: "أنا أفصح الناس!فقال لا تفعل.قال: خُذ عليَّ كلمةً واحدةً.قال: هذه."تبدَّى لحنُ الرجل في رفع (كلمة)وهي منصوبة على المفعولية.[١]

٤٦- عن جرير بن عبد الحميد عن إدريس قال: قيل للحسن: إنَّ لنا إماماً يلحَن، قال: أخّروه[٢].

٤٧- روى الأصمعي عن عيسى بن عمر عن ابن أبي إسحاق أنه قال لبكر ابن حبيب: ما ألحن حرفاً واحداً! فمرّت به سنّور، فقال: اخْسَيْ.فقال: هذه، ألا قلت: اخسَئِي؟![٣].

٤٨- روى الأصمعي عن عيسى بن عُمَرَ أن معاوية قال للناس يوماً: كيف ابنُ زياد فيكم؟ قالوا: ظريفٌ، على أنه يَلْحَن. قال فذاك أظرفُ له. يريد باللحن أفقه، يقول: ألحن بحجّته.

قال أبو بكر ابن الأنباري: اللحن في هذا الحديث من الصَّواب من قول الله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٠]. أي في مذهبه ووجهه، أنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى التَّيمي في هذا:

ولقد لحنْتُ لكم لكيما تفقهوا ووحيْتُ وحياً ليس بالمُرتَابِ

وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب قول أسماء الفزاري:

منطِقٌ صـائب وتَلحـَنُ أحيـا نـاً، وخيرُ الحديث ما كان لَحْنا

(١) إيضاح الوقف: ٣٠.

(٢) إيضاح الوقف: ٢٩، الجرح والتعديل: ١/١/ ١٦٤، العقد الفريد: ٢/ ٣٧٩.

(٣) إيضاح الوقف: ٣٣، بغية الوعاة: ١/ ٤٦٢، طبقات النحويين واللغويين: ٤٢، طبقات القراء لابن الجزري: ١/ ٤١٠، تاج العروس: (خسأ): ١/ ٦٤، اللسان: خسأ، إنباه الرواة: ١/ ٢٨٠، يقال: خسا فلانٌ الكلب: إذ أبعده وزجره.

يقال: قد لحن الرجل يلحَن فهو لَحِنٌ إذا أصابَ، ولَحَنَ يلحَن فهو لاحِن، إذا أفسد.

ويقال: هو ألحنُ الناس إذا كان أحسنهم قراءةً أو غناءً، وألحنَ في كلامه أخطأ، وهو ألحنُ من غيره أي أعرف بالحجة وأفطن لها منه.(١)

٤٩ - أوصى بعض العرب بنيه فقال: يا بَنِيَّ أصلحوا ألسنتكم فإن الرجل تنوبه النائبة يحب أن يتجمّل فيها، فيستعير من أخيه دابته ومن صديقه ثوبه، ولا يجد من يُعيره لسانَه.

وقال أحمد بن يحيى:

إمـّا تـريـني وأثـوابي مُـقَـارِبَـةٌ ليست بِخَزٍّ ولا مِنْ حُرِّ كَتَّـانِ
فـإنَّ في المجـد هِمـَّاتي وفي لـغـتي عُـلـويـةٌ ولـسـاني غـيرُ لَحّـانِ

٥٠ - وقال أبو هلال العسكري: علم العربيّة على ما تسمع من خاصّ ما يحتاج إليه الإنسان لجماله في دنياه، وكمال آلته في علوم دينه، وعلى حسب تقدّم العالم فيه وتأخرّه يكون رجحانه ونقصانه إذا ناظر أو صنف.(٢)

وفي عيون الأخبار طائفةٌ حسنة من أخبار الإعراب واللحن من أهمها وأبرزها ما يأتي:

سمع أعرابي والياً يخطبُ فلحنَ مرّةً أو اثنتين، فقال: أشهدُ أنكَ مَلَكْتَ بقَدَرٍ!!!.

وسمع أعرابي إماماً يقرأ: (وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى يُؤْمِنُوا) بفتح التاء من

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء: ١٨، تاج العروس(لحن): ٩/٣٣١-٣٣٢، الأضداد: ٢٣٩، أمالي القالي: ١/٥، البيان والتبيين: ١/٧٤١١٧٣، مجالس ثعلب: ٥٣١.

(٢) إيضاح الوقف: ٥٠، القواعد الأساسية للهاشمي: ٣.

تنكحوا، فقال: سبحان الله! هذا قبل الإسلام قبيح، فكيف بعده! فقيل له: إنه لحن. والقراءة: (ولا تُنْكِحُوا المشركين). فقال: قبّحه الله، لا تجعلوه بعدها إماماً، فإنه يُحلُّ ما حرَّم الله.

قال ابن سيرين: ما رأيتُ على رجلٍ أحسنَ من فصاحة، ولا على امرأةٍ أحسنَ من شحم.

وقال ابن شبرمة: إذا سرّك أن تعظُم في عين من كنت في عينه صغيراً، ويصغُر في عينيك من كان في عينيك عظيماً فتعلّم العربيّة، فإنها تجريك على المنطق وتدنيك من السلطان.

ويقال: الإعراب حليةُ الكلام ووشْيُهُ.

وقال سلمة بن عبد الملك: اللحن في الكلام أقبح من الجُدَريّ في الوجه[١].

وذكر المرزباني في معجم الشعراء لعلي بن محمد الكاتب: أبياتاً يمدح النحو ويحضّ على تعلمه وهي:

رأيت لسان المرء وافدَ عقلِهِ وعنوانَه فانظر بماذا تعنونُ
ولا تَعْدُ إصلاح اللسان فإنّه يخبِّر عمّا عنده ويبينُ
ويعجبني زِي الفتى وجماله فيسقط من عيني ساعة يلحنُ
على أنَّ للإعراب حدّاً وربما سمعت من الإعراب ما ليس يحسنُ
ولا خير في اللفظ الكريه استماعه ولا في قبيح اللحن والقصد أبينُ[٢]

هذه الشواهد وغيرها التي تحث على العناية باللسان العربي ليبقى لساناً عربياً مبيناً حياً بحياة اللغة العربية التي هي عزنا ومجدنا، ليس من قوة تستطيع

(١) عيون الأخبار: كتاب العلم والبيان: ١٥٥.١٦٠.

(٢) معجم الشعراء: ٢٩٥ .

أن تأتي عليها ما دام أبناؤها يعرفون حقها عليهم وفي صدورهم ما في صدور الأمم من معنى الحياة.

إن خزانة العقل العربي حافلة بآثار الأدب واللغة والتشريع وهي رمز العبقرية والخلود، وإنها اليوم في حاجة لأيد عاملة تنفض عنها غبار الأجيال فتخرج منها جواهر مضيئة تنظمها عقداً جديداً يتحلى به جيد الإنسانية.

إن الخير لا يرجى لهذه الأمة إلا من وراء عنايتها باللغة العربية التي هي العروة الوثقى للم شعث الأمة ووصل حبالها مهما بعدت الدار وشط المزار، ولا حياة للبلاد إلا بحياة لغتها.

وأخيراً أليس من حقنا أن نهتم بقلوبنا وضمائرنا بلغتنا العربية وأن نتحمس بدافع الغيرة عليها لتدريسها في صورتها المشرقة الزاهية وشكلها الصافي ومضمونها السامي وأنها أكمل لغة.

ولنعلم أن كل خروج باللغة عن معانيها وأهدافها، وأنها لغة التوحيد إنما هو تحريف للكلم عن مواضعه وانحراف عن الأخلاق وتَرَدٍّ في الظلمات.

فما كان لمن له مسكة في الآداب أو ذائقة من اللغة أن ينكر ما آل إليه أمر اللغة العربية من التقهقر منذ انفصمت عروة العرب.

فقد اتضع بعد الرفعة، وخبا بعد السطوع، وذلك بأيدي أناس كثيرة في أعصار متطاولة وآن الأوان لأن يهب أصحاب الغيرة بنهضة توقظه من سباته وتبعث فيه روح النشاط، وتحيي باللغة روح الحياة العربية. وتصل أسباب حياتنا بأسباب حياة أجدادنا أصحاب العز والمجد والسؤدد، والواجب الملقى على عاتق أبناء هذا الجيل الحاضر من أبناء هذه الأمة العربية في أخذ نصيب وافر من الحضارة وخدمتها كبير الشأن ثقيل الوطأة؛ لأن الموقف حرج والوسائل عزيزة والبيئة فاسدة.

ولنا الأمل الوطيد بعناية كل عربي يرجو الخير لهذه الأمة وللنهضة العلمية للغة العربية.

أخذ الله بيد متولي أمورها وقادة شؤونها إلى ما فيه الخير العام. والله لا يضيع أجر المحسنين.

المخطوطات العربية في طشقند[1]

الاستاذ محمود الارناؤوط

لا يخفى على الدارسين أمر تفرق المخطوطات العربية في جميع بلدان العالم وبنسب مختلفة تتبع أهمية كل دولة ودورها في صُنع الحضارة العالمية في الأزمان السَّالفة، ومعلوم بأن رقعة الدولة الإسلامية قد امتدت إلى مشرق الأرض ومغربها ووصلت جيوش الفاتحين إلى شمال آسية وأواسطها، بعد أن تمكن حالها واشتد عودها في غربها، كما وصلت إلى شمال إفريقية وأواسطها، وانتشرت العربية. التي هي لغة دين الإسلام. في الحواضر القديمة لتلك المناطق بانتقال الدُّعاة وتأسيس المدارس العلمية فيها على مدى قرون عدة، وتبع ذلك الأمر حركة ناشطة في التأليف والبحث والترجمة، وعلى الخصوص في بلاد ما وراء النهر[2] التي شهدت حركة علمية رفيعة المستوى، وظهرت إلى الوجود مؤلفات علمية وأدبية ودينية بالعربية على أيدي أبناء تلك المناطق الواسعة أثرت المكتبة العربية وأسهمت في حركة التأليف بالعربية في تلك العصور

---

(١) سبق للكاتب التعريف بالمخطوطات العربية في ألبانيا من خلال كتاب أصدرته دار الفكر بدمشق عام ١٩٩٣.

(٢) أي نهر جيحون ويقع معظمها الآن في جمهورية أوزبكستان.

بنصيب وافر، وصارت أسماء العلماء الذين ينتمون لتلك المناطق مذكورة على كل شفة ولسان في عالم الإسلام، وفي منتديات التأليف والبحث على وجه الخصوص، ومن يطالع كتب التراجم ويبحث فيها يجد مصداق ذلك بين يديه، فالثقافة العربية انتشرت انتشاراً واسعاً بين أهل تلك المناطق، بل إن العربية كانت لغة التعليم والتأليف فيها، لأنها كانت بحق اللغة الأهم بين لغات العلم والمعرفة التي عرفها الإنسان في القرون الهجرية الستة الأولى[١]، ولابد من الإشارة إلى أن بعض المخطوطات العربية الموجودة في معظم بلاد آسية الوسطى قد انتقلت إليها من بغداد ودمشق والقاهرة وسواها من الحواضر الإسلامية الكبرى عن طريق تجار الكتب في تلك الأزمنة، كما انتقلت نسخ من مؤلفات علماء بلاد ما وراء النهر إلى تلك الحواضر العريقة بالطريقة ذاتها، لأن تجارة الكتب كانت من التجارات الناشطة وكان يمارسها في الغالب علماء أفاضل يعرفون قيمة الكتاب والكاتب، كصاحب «الفهرست»[٢] وصاحب «عيون التواريخ»[٣] وغيرهما من الأعلام، وكان

---

(١) تنظر مقالتنا (عالمية اللغة العربية) في العدد المزدوج الخاص باللغة العربية واللغات الأخرى من مجلة التراث العربي رقم (٧١-٧٢) الصادر سنة ١٩٩٨.

(٢) هو محمد بن إسحاق النديم البغدادي أبو الفرج المتوفى سنة (٤٣٨هـ. ١٤٠٧م). تنظر ترجمته في «معجم الأدباء» (٦/ ٢٤٢٧) بتحقيق الأستاذ الدكتور إحسان عباس، طبع دار الغرب الإسلامي ببيروت، و«الأعلام» (٦/ ٢٩) للعلامة خير الدِّين الزركلي (الطبعة السادسة) دار العلم للملايين ببيروت.

(٣) هو محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي الداراني الدمشقي، المتوفى سنة (٧٦٤هـ. ١٣٦٣م). تنظر ترجمته في «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي (٨/ ٣٤٦) بتحقيقي وإشراف والدي الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، طبع دار ابن كثير بدمشق وبيروت، و«الأعلام» للعلامة خير الدِّين الزركلي (٦/ ١٥٦).

هواة جمع الكتب واقتنائها -علاوة على أهل العلم والأدب- من أرباب الحكم والسلطان، كهارون الرشيد، وولده المأمون[١] مما أدى إلى ظهور عدد من المكتبات العامة والخاصة[٢].

وفي العصر الحديث جرى جلب مخطوطات المدن الصغرى إلى مكتبات المدن الكبرى من بلاد ما وراء النهر، فكان نصيب خزانة المخطوطات الشرقية بمعهد أبي ريحان البيروني[٣] بمدينة طشقند[٤] وافراً، فانتقلت إليها مجموعات

---

(١) ينظر في هذا الصدد كتاب «تاريخ الكتاب» للباحث الكرواتي الدكتور الكسندر ستيتشفيتش، ترجمة صديقنا الدكتور محمد موفق الأرناؤوط (٢/ ٢٣٩ . ٢٤١) الصادر عن سلسلة عالم المعرفة في الكويت عام ١٩٩٣.

(٢) ينظر في هذا الصدد كتاب «دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط» للأستاذ الدكتور يوسف العش الذي كتبه بالفرنسية أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من فرنسا، ونقله إلى العربية، بعد وفاته، صديقنا الدكتور نزار أباظة بالاشتراك مع الأستاذ محمد الصباغ، ونشرته دار الفكر بدمشق عام ١٩٩١م.

(٣) هو محمد بن أحمد البيرُوني الخوارزمي، أبو ريحان، فيلسوف رياضي مؤرخ، من أهل خوارزم، أقام في الهند بضع سنين، ومات في بلده سنة (٤٤٠هـ . ١٠٤٨م). اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعلت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره، وصنف كتباً كثيرة متقنة، رأى ياقوت الحموي فهرسها بمرو في ستين ورقة بخط مكتز، منها «الآثار الباقية عن القرون الخالية» و«الاستيعاب في صنعة الأسطرلاب» و«الجماهر في معرفة الجواهر» و«تاريخ الأمم الشرقية» و«القانون المسعودي» و«تاريخ الهند» و«تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» و«استخراج الأوتار في الدائرة» وكان من أعظم العلماء الموسوعيين المتخصصين بأنواع الرياضيات. ينظر «الأعلام» للعلامة خير الدين الزركلي (٥/ ٣١٤) و«معجم المؤلفين» للأستاذ عمر رضا كحالة (٣/ ٥٣) طبع مؤسسة الرسالة ببيروت.

(٤) وكان اسمها قديماً (الشاش) وقد خرج منها علماء كبار. ينظر «الأمصار ذوات الآثار» للذهبي بتحقيقي وإشراف والدي الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ص (٩٤) طبع دار ابن كثير بدمشق وبيروت.

كبيرة جداً من المخطوطات العربية، والفارسية والأوزبكية، والطاجيكية، والأوردية، والعثمانية، والتترية، والتركمانية، وغيرها، ولكن أفضل تلك المخطوطات حالاً وأكثرها عدداً هي المخطوطات العربية، وقد كان نصيب تلك المخطوطات الإهمال خلال العقود الكثيرة التي سبقت استقلال جمهورية أوزبكستان التي تحتل طشقند منها موقع القلب باعتبارها عاصمة للبلاد، وأما مرحلة ما بعد الاستقلال فقد شهدت اهتماماً ملحوظاً . وإن لم يكن كافياً . بذلك التراث العلمي والثقافي الضخم الذي تمتلكه تلك الجمهورية الفتية، فسعى القائمون على شؤون معهد أبي ريحان البيروني إلى الاتصال بالجهات المهتمة بالكنوز العلمية العربية الإسلامية في البلاد العربية والدول الإسلامية، فوصلت إلى معهدهم بعثة استطلاعية من مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، وقامت بإعداد فهرس صغير عن منتخبات مما تحتوي عليه خزانة المعهد من المخطوطات العربية، وصوّرت ما أمكنها تصويره من تلك المخطوطات.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من العام (١٩٩٧) وفي أثناء وجودي في أوزبكستان تلبية لدعوة كريمة وجهت لي لحضور الاحتفالات التي أقيمت هناك بمناسبة مرور ألفين وخمس مئة عام على إنشاء مدينتي بخارى وخيوة، أتيحت لي فرصة زيارة معهد أبي ريحان البيروني، للاطلاع على محتويات خزانته من المخطوطات الشرقية بشكل عام، ومن المخطوطات العربية بشكل خاص، وحاولت الاستفادة من تلك الزيارة بقدر الإمكان، وسجلت في دفتري ما أمكنني تسجيله من أسماء محتويات المكتبة من المخطوطات العربية وأرقامها مما يهمني ويهم المشتغلين بالتحقيق والبحث العلمي في الوطن العربي الكبير.

ومما يلفت النظر أن معظم المخطوطات المتوافرة في خزانة المعهد المذكور كتبت على أيدي نسَّاخ متقنين وبخطوط جميلة مشكولة في الأغلب، ومن جملة ما تحتفظ به خزانة المعهد من المخطوطات العربية، مخطوطات الكتب التالية:

١- الأسرار، لأبي بكر الرازي، المتوفى سنة (٣١١هـ - ٩٢٣م).

٢- بدائع الوقائع، لزين الدِّين واصفي، (لم أقف على سنة وفاته).

٣- تاريخ بخارى، للنرشخي، المتوفى سنة (٣٤٨هـ - ٩٥٩م).

٤- تجارب الأمم، لمسكويه، المتوفى سنة (٤٢٠هـ - ١٠٣٠م).

٥- ديوان محمد بن سليمان الفضولي، المتوفى سنة (٩٦٣هـ - ١٥٥٦م).

٦- عيون المسائل، لأبي اللَّيث السمَّرقندي، المتوفى سنة (٣٧٦هـ - ٩٨٦م).

٧- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلاَّم، المتوفى سنة (٢٢٤هـ - ٨٣٨م).

٨- فصوص الحكم، لابن عربي، المتوفى سنة (٦٣٨هـ - ١٢٤٠م).

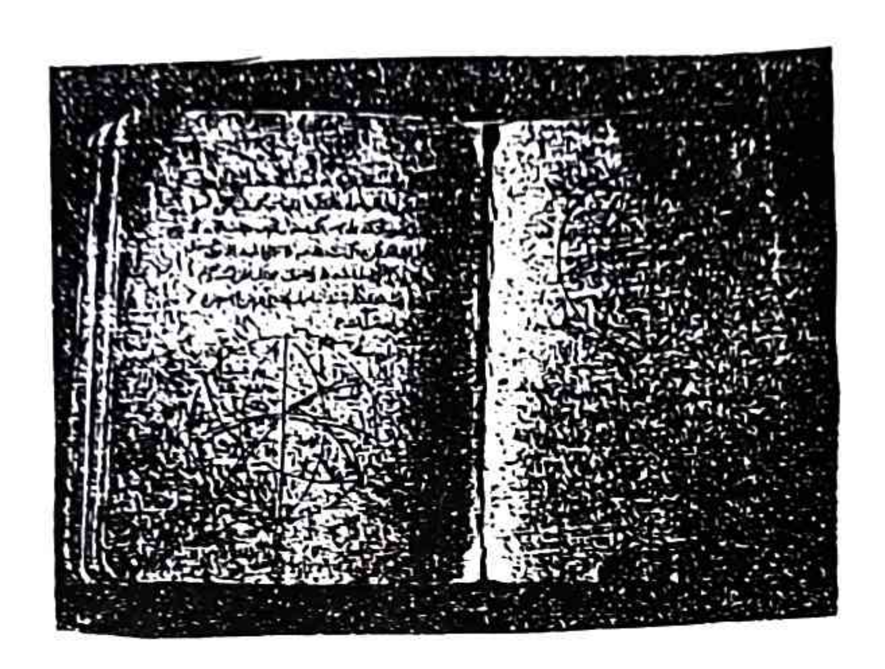
٩- القانون في الطب، لابن سينا، المتوفى سنة (٤٢٨هـ - ١٠٣٦م).

١٠- معجم البلدان، لياقوت الحموي، المتوفى سنة (٦٢٦هـ - ١٢٢٩م).

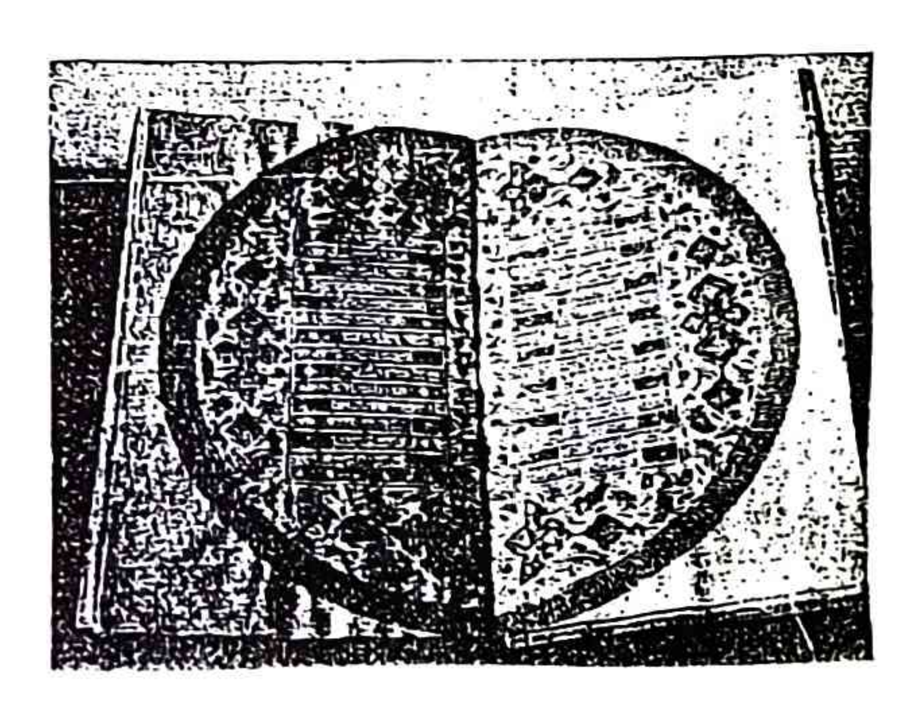
وهذه الكتب التي ذكرتها تقدم أنموذجاً مختصراً جداً عما تحتويه تلك الخزانة العامرة من تراث علماء المسلمين في تلك العصور الزاهرة، رغبة في لفت الأنظار إليها ليُنتفع بها[1]، وقد رأيت من المفيد إيراد عدد من الصور التي تخص بعض المخطوطات التي تحتفظ بها خزانة المعهد لتقريب الفائدة منها بقدر الإمكان، فجاءت هذه الصور لبعض ما ذكرته من المخطوطات في القائمة ولبعض ما لم أذكره منها.

---

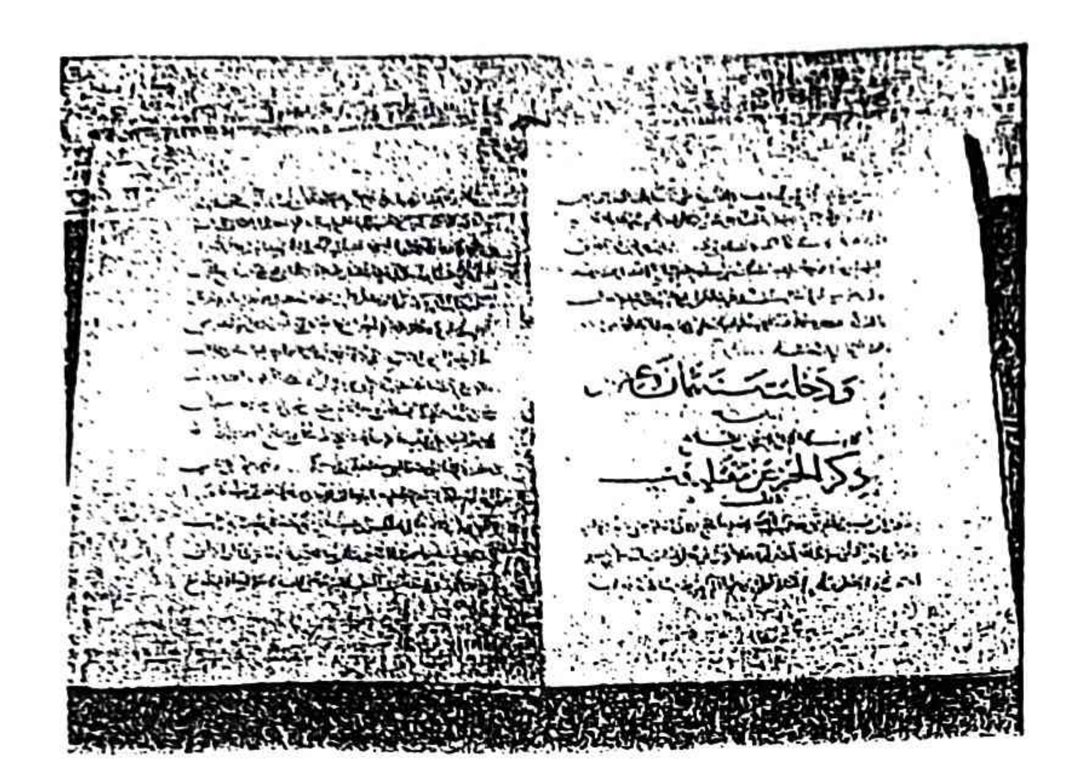
(١) ولعل من أهم الكتب التي تحتوي عليها خزانة المعهد المذكور أيضاً مما لم أذكره في القائمة مخطوطة كتاب «تاريخ الرسل والملوك» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة (٣١٠هـ - ٩٢٢م).



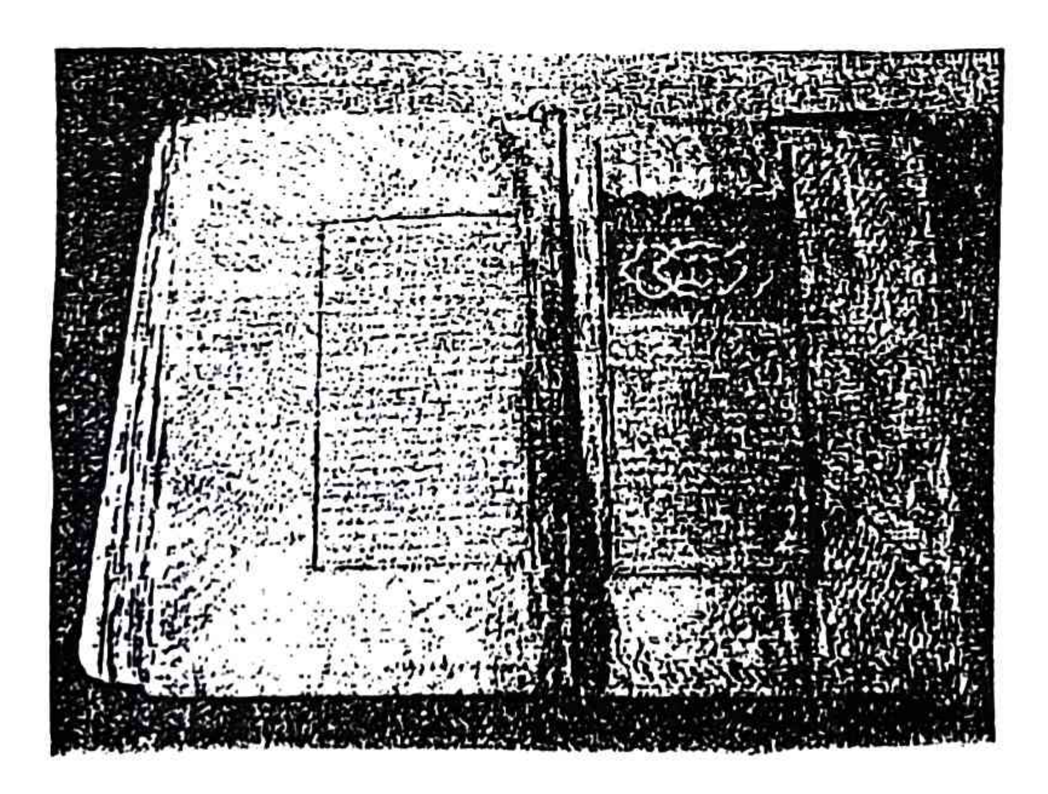
١- صورة ورقة من كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم لأبي ريحان البيروني



٢- صورة ورقة من ديوان علي شيرنوائي وهو من أنفس محتويات الخزانة



٣- صورة ورقة من كتاب تجارب الأمم لمسكويه



٤- صورة ورقة من كتاب القانون في الطب لابن سينا

بقي أن أشير إلى أنه سبقني إلى زيارة خزانة المخطوطات في معهد أبي ريحان البيروني بطشقند عدد كبير من الأساتذة والباحثين العلماء والمهتمين بشؤون المخطوطات العربية والشرقية، كالعلامة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب[١]، والأستاذ الدكتور صلاح الدّين المنجد، والصديق الدكتور محمد مطيع الحافظ، والصديق الدكتور عبد الرحمن فرفور[٢].

خادم تراث الأسلاف

محمود الأرناؤوط



(١) المتوفى سنة (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م) وكان مفخرة تونس في العصر الحديث. تنظر ترجمته في «الأعلام» (٢/١٨٧) و«معجم المؤلفين» (١/٥٤٢) طبع مؤسسة الرسالة بيروت، وكتابي «أعلام التراث في العصر الحديث» ص (١١١-١١٣) طبع مكتبة دار العروبة بالكويت ودار ابن العماد ببيروت.

(٢) وقد ذكرت أشياء أخرى تخص مخطوطات مكتبة ابي ريحان البيروني في أثناء تقديمي لكتاب «الزهور المقتطفة بتاريخ مكة المشرفة» لتقي الدّين الفاسي، المنشور في دار صادر ببيروت بتحقيق الأستاذ أديب الغزاوي ومراجعتي، ولدي المزيد من الكلام على مخطوطات تلك المكتبة الشهيرة وسيرد إن شاء الله في كتابي «مرآة التراث» الذي أعده للنشر.

لم نحجب الكأس

الشاعر الأستاذ مصطفى عكرمة

بمناسبة تكريم الأخ الدكتور شوقي أبو خليل زاده الله بسطة في العلم والجسم ونفع به.

أفرغْ بكأسيَ بعض السُّؤر تحنانا عَـلِّي بسـؤركَ أن أرتـدَّ ريّـانـا

ولا تلمني ولا تعجَبْ إذا فرغت فقد تخاطفها من كان ظمآنا

لم نحجب الكأسَ عن وُرّادِها أبداً وكم سعينا على من ضلّ، أو بانا

ما قيمة الكأسِ إن لم تروِ من ظمئوا وهم يعانون حول الكأس حرمانا!

فاسكبْ بكأسي، وخذْ منها، ومرَّ بها أمَا تَمازَجَ منذ البدء كأسانا!

أمَا على الحب والإيثار نشأتُنا أمَا لبذلهما كانت نوايانا!

وفرقة القوم يا شوقي تمزّقني حتى لتحسبُها في القلب نيرانا

فأنت أدرى بشعري كيف أرسلُه لكي أُصَحّيْ به من ظلّ وسنانا

وكيف صوتُ الجهادِ الحقِ فيه علا عسى تعود بنا ذكرى سرايانا

فاعذرْ فديتكَ إن لم تلق تهنئتي كما تمنّيتُها تنساب ألحانا

فـلـم أجـد أمّـةً ذلّـت كـأمـتنا على الزمان، ولا بلوى كبلوانا

ونحن نحن أولو التوحيد واعجباً كـان تـوحـيدنـا قـد صـار بهتـانـا

الغرب شيّد رغم الخلف وحدته ونحـن نهـدم لـلتـوحـيـد أركـانـا

واهاً لقومي نسوا نهجاً به حكموا دهراً.. ولولاه لم نعرف لهم شانا

نـسوه حتى غدوا والمقتي جسداً يـزداد عـن روحـه بـعـداً ونـسيانـا

من كل فجٍ علينا الناس قد جمعت ولا نـزال نـعـانـي الـذلّ ألـوانـا

أدنى الذي كان مرجوٌّ لوحدتنا لـو أنـنـا قـد أعـرنـا الحـقَّ آذانـا

عـزَّ الـنصيرُ، وعـزّت كـلُّ أمـنيةٍ لمـا غـزت روحَـنـا أهـواءُ دنـيانـا

مـاذا أحدّث يـا شـوقي وأنـت بهـا أدرى فعذراً إذا ما اسطعتُ كتمانا

أما خُلِقنا أيا شوقي لصحوتها ألم نـعـاهـد عـليهـا الله مـولانـا!

ألم تـكـن دعـوة الـتـوحـيد غـايـتنا منذ التقت يا أبا معتز روحانا!

وما رضينا سوى توحيدها هدفاً ولا رضينـا لـغـير الله سـلـطـانـا

أمـا وهـبنا لـنـصر الحق أنـفـسـنـا لعلنا لا نرى في الأرض طغيانا

كـنـا شـبـابـاً ولم نخـفـرْ لهـا ذمـمـاً ولا عن الحق ما في الأرض أغرانا

وها هو الشيب تكسونا مهابتُه لـكـننا لم نـزل في الـسـعـي شـبّـانـا

قـلـبي وقـلـبـك مـن أرزاء أمّـتنا كـادا يـذوبان لـولا لـطف مولانا

فكيف ننسى الذي عاناه أقصانا والـصـخـر ذاب لمـا عـاناه أقـصـانـا!

وكيف نصمت عمّن شوّهوا سفهاً مـعـنى الجـهـاد، وفـيه الله أعـلانـا

وكيف ننسى جهاداً فيه عزّتُنا ومذ تناساه قومي أمرهم هانا
كل الذي شاءه أعداء أمتنا نرضاه طوعاً وبالآلاف قتلانا
ولا يحس حياةَ مَنْ بنا غدروا ومن رأى الذل للأعداء منجانا
ما ساءني الغاصبُ المحتلُ دمّرنا وساءني أن رأى في الأهل أعوانا
إفناؤنا هم لغازينا تبرره وكم يزيدونه عُذْراً وشُكرانا
فضلاً من الله يا شوقي وتكرمة أنا على دحره نزداد إيمانا
ومنّةً منه أبقانا لأمتنا وحيث شاءت أمانيها ستلقانا
لا لن نذل، ولن يوهي عزائمنا ضلال من ذلّ، أو من ذلّةٍ خانا
عمر الطّغاة ليالٍ لن تطول بهم ونحن من سيعيش العز أزمانا
وحسبُنا عزةً أن كلما نزلت بنا خطوب عليها ازداد مسعانا
وأنت من علَّم الأجيال أن لها فجراً جعلت عليه العلم برهانا
شئت الحوار لها نهجاً يحررها من الخلاف ويعلي للهدى شانا
وعشت فينا رضياً هانئاً فطناً لما اتخذت رضا الرحمن ميزانا
أطلقت فكرك في التوحيد مجتهداً بهمّةٍ زِدْت فيها البحث إتقانا
فكم محوتَ بها زَيْفاً، وكم كشفت عن الحقيقة راناً قد تغشانا
أمدّك الله بالتقوى فكنت بها كما عهدنا على الأيام إنسانا
فيا أبا الشوق يا رمز الوفاء بنا ما كان أصفاك إيماناً وإحسانا
حسبي بسؤرك ينبوعاً سعيت له لما رأيتك قد أنهلت قرآنا

لك الجزاء من الرحمن أكرمه بما هديت، وما أهديتَ عرفانا

يبقى بياني خجولاً كلما ذكروا ما كان منك وما من قولتي كانا

وحسبيَ الحبُّ أن ألقاه يشفع لي لديك يا من بك الرحمن منّانا

محبك ابداً

مصطفى عكرمة

وثائق

التقرير الأول

أتقدم بوافر الشكر للمدّرس الكريم، لتمكنه من الثقافة التاريخيّة، ونجاحه في تدريسها، وعمله على تنفيذ مضمون البلاغ الوزاري رقم ١٨٨٣/٧/ج تاريخ ٢٢/٩/ ٩٦٥ نصاً وروحاً، ومساهمته في أعمال النشاط المدرسي وأرجو منه المثابرة على خطته والاستزادة من المطالعات التاريخية والجغرافية متمنياً له دوام التقدم والنجاح في تربية أبناء جيلنا العربي الصاعد.

المفتش: عبد الفتاح المهندس

«المالكيّة» ٩/ ١١/ ١٩٦٦

التقرير الثاني

حضرت للمدرس الكريم درساً بمادة التاريخ في الصف الأول الثانوي، وكان موضوع الدرس: الانقلاب الصناعي.

وقد أحسن المدرس في شرح درسه، وجلب انتباه الطلاب والاستفادة من السبورة بصورة ممتازة، ورسم بعض المصوّرات السبورية لإنكلترا ومنطقة السويس وغيرها. وتحدث بلغة عربية سليمة، ومتابعة أعمال النشاط المدرسي مع طلابه، والمثابرة على مطالعة بعض المصادر التاريخية.

أرجو للأخ الزميل مزيداً من التقدم والاستزادة من مطالعة المصادر والتفاني في خدمة أبناء جيلنا العربي الصاعد.

المفتش: عبد الفتاح الهندس

«القامشلي» ٢٩/ ٤/ ١٩٦٦

التقرير الثالث

أحمد للمدرس السيد شوقي أبو خليل تفانيه في أداء واجباته التربوية والمسلكية والقومية واهتمامه بأعمال النشاط المدرسي وحرصه على التعاون مع طلابه وزملائه والجهاز الإداري في الثانوية، وأرجو له أن يثابر على خطته هذه، لخدمة أبناء جيلنا العربي الناشئ.

المفتش: عبد الفتاح الهندس

«القامشلي» ٣٠/ ١٠/ ١٩٦٨

ثناء

ج. ع. س

مديرة التربية بالحسكة

الرقم ١٨٧/م ص

التاريخ ١٥/ ١١/ ١٩٦٨

إلى المدرس السيد شوقي أبو خليل

ع/ط ثانوية العروبة

بناء على اقتراح المفتش المختص لمادة الاجتماعيات في تقريره رقم ٨٣١٦/

ص وتاريخ ١٠/ ١١/ ١٩٦٨ نثني على جهودكم المشكورة وتفانيكم في أداء واجباتكم التربوية والمسلكية، وسعيكم الدائم لتطوير تدريس مادتكم.

مدير التربية بالحكسة بالوكالة: إسماعيل هاشم

التقرير الرابع

حضرت حصة بمادة التاريخ في الصف الثاني الثانوي الأدبي وكان الموضوع، الجيش والأسطول، كم كان المدرس الكريم موفقاً وناجحاً في شرح الموضوع المقرر والاستفادة من الوسائل المعينة بمختلف أنواعها، والاستعانة بمصادر متعددة جلبها إلى الطلاب خصيصاً ومنها: البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية ومجلة تاريخ فرنسية وتاريخ الأمم الإسلامية للخضري. بالإضافة إلى حيازته دفتر تحضير ممتاز، واهتمامه برسم مختلف أنواع المصورات السبورية التاريخية، مع استخدام بارع للألوان، واستثارة فعالية طلابه بشكل جيد.

وختاماً لا يسعني إلا أن أقدم له جزيل الشكر لحرصه على أداء واجبه التربوي والمسلكي على الوجه الأكمل متمنياً له دوام التقدم والتوفيق.

المفتش: عبد الفتاح المهندس

«القامشلي» ٧/ ٥/ ١٩٦٩

شكر من تربية الحسكة

ج. ع. س - وزارة التربية

مديرية التربية بالحسكة

الرقم: ١٤٢١/ ٤ ون

إلى السيد شوقي أبو خليل

مدرّس مادة التاريخ في ثانوية العروبة، ،

لقد بلغت نسبة النجاح في مادة اختصاصكم في الامتحان العام لشهادة الدراسة الثانوية الع.امة لدورة عام ١٩٦٩: ٩١,٦٪، وتقديراً منا لجهودكم المثمرة والمعطاءة في سبيل رفع المستوى العلمي لطلابكم وتطوير نسب النجاح العامة في مدرستكم، نتقدم إليكم بجزيل شكرنا وخالص تقديرنا، آملين لكم اطراد بذل الجهود والمزيد من المشاركة في بناء الوطن العربي الاشتراكي الموحد.

مدير التربية بالحكسة بالوكالة: إسماعيل هاشم

«الحسكة» في ١٢ آب ١٩٦٩

- صورة إلى وزارة التربية، مديرية التعليم الثانوي.
- صورة إلى وزارة التربية قسم الذاتيةوشؤون الموظفين.
- صورة إلى السجل العام للموظفين.
- صورة إلى الذاتية الثانوية - الاضبارة.
- صورة إلى مديرية مدرسة العروبة.

السادة الأفاضل/دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق المحترمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

وقفت بكل إجلال على ما انتجتموه من تأليف الدكتور شوقي أبو خليل تحت عنوان (أطلس القرآن).

إنني وأنا أخط لكم لابعث لكم ضمن كلماتي هذه كل التقدير والإعجاب على هذا الإنتاج الرائع والمتألق بل والمميز دونما أدنى قدر من المجاملة. فلقد وجدت من الإتقان والبراعة في العمل ما لم أجده من غيركم وما لم أجده في كتب قام بطباعتها كبريات الدور في أمريكا وأوروبة، وأكرر بأن هذا ليخلو تماماً من أي مجاملة أو مبالغة ولكن وكما يعلم سعادتكم فإن الإنسان إن وجد في العمل اتقان بارع كهذا فإنه يتوقف عند الفاصلة وشطر من خط طبع عن غير قصد، فكيف وأنا أتحدث عن هذا الإنتاج الرائع. فلقد وجدت بعضاً في عدم اكتمال الجداول المدرجة في الكتاب إن كان الجدول موزع بين صفحتين بحيث إن الجدول الأول لم يغلق بخط الخاتمة ولم يبدأ الجدول في الصفحة الثانية بترويسة وعنوان الجدول، ولكنني والله يعلم هذا إنني لا أذكر هذا الأمر كصيب بل مجرد ملاحظة في مطبوعة رائعة الجمال.

إنني أيها الإخوة الأفاضل لأود من الأعماق أن أنقل من خلالكم لسعادة الدكتور خليل خالص إعجابي وبالغ شكري وتقديري على هذا الجهد الرائع داعياً المولى العلي القدير له ولكم بمزيد من النجاح والتوفيق.

أحبتي الكرام، لي رجاء أتمنى أن يلقى قبلولكم يتمثل في دوام التواصل بيننا، فعلى أقل أمر أن أخطى بما سيتم إنتاجه من قبلكم لأكون من أوائل المقنين لما ستنتجوه، مؤكداً لكم بأنني أخ لكم عندما تحتاجون لأخ في الله، وداعياً الله أن يديم هذا الإخاء وإن يكون بيننا في القريب العاجل تعاوناً

كبيراً، وهذا ما اتطلع له عند انتهائي من إنتاجي الرابع لتكون كافة ما أنتجته تحت إدارتكم وإخراجكم وطباعتكم ونشركم فحتى هذه اللحظة لم أصدح بما أنتجت، ولكن وبعد أن وجدت بكم هذا الإتقان الرائع فإن ذلك شجعني على المواصلة وهذا الأمر سيكون قريباً بإذن الله.

لكم ولجميع العاملين لديكم وافر احترامي وبالغ تقديري، والله يرعاكم.

حسان علي الطيار

مدير التَّصاريح الدبلوماسية والعسكرية

إدارة النقل الجوي - رئاسة الطيران المدني

جدة - المملكة العربية السعودية

٢٠٠٢/١/٢٢م

مستخلص

يتناول الكتاب الرابع في سلسلة (علماء مكرمون) التي تصدرها دار الفكر في مآثر أحد أفراد أسرتها. وتكرم فيه (الدكتور شوقي أبو خليل) أحد المؤرخين الذين اهتموا بالتاريخ العربي الإسلامي، ووقفوا من أجله أقلامهم المخلصة يبينون الزيف، ويشيرون إلى الحقائق ويقدمون أجمل ما عندهم.

ويضم باقة من المقالات التي تتحدث عن مؤلفاته التي بلغت أكثر من أربعين عملاً جليلاً في التاريخ والتربية، بعضها في أجزاء، وطبع معظمها طبعات عديدة، فضلاً عما ترجم إلى اللغات الأخرى، وكان لبعض كتبه هذه أن اعتمدتها عدة جامعات مقررات لها، ولقيت القبول والاستحسان.

ويضم أيضاً مقالات تبين مكانة الدكتور شوقي في عيون أصدقائه وطلابه، كما عرفوه أخاً وزميلاً، وصديقاً، ومديراً، ومربياً، وفارس فكر، ورحالة تاريخ، وتحلل أعماله برؤية تشتمل على حقائق وعبر. وتقف على بعض مؤلفاته بالدراسة، كما تدرس شخصيته العلمية المتميزة.

ويحتوي على بحوث مهداة للعالم المكرم من علماء ومفكرين مشهورين، تتصل بتاريخ الأمة العربية وثقافتها ولغتها، كتاريخ نشوء القوميات، أو تقويم الدعوة إلى ترسيخ اللغة العامية ونقدها، أو مقتطفات من كتب قيمة، وتحليل العلمانية بين الدولة وشروط النهضة، أو دراسة لمصنف لغوي كبير، أو بحث في اللغة العربية وتاريخها، أو في المخطوطات العربية، أو قصيدة وجدانية في المكرم، مع وثائق هامة ومفيدة نافعة.

Abstract

The fourth book of this series, "Feted Scholars", that Dar Al-Fikr issues to eulogize one of its family members, by which it lionizes "Dr. Shawqi Abou Khalil", one of the historians who have taken great interest in the Arab/Islamic History and devoted their faithful pens to refute falsehood, indicate truths and produce the best of what they have.

It involves a bouquet of articles which speak about his works which have risen up to 40 titles in the fields of both history and education. Some fall into parts and others have been repeatedly reprinted, besides the ones translated into other languages. A collection of his books have also been adopted and prescribed by various universities and received approval and acceptance.

Additionally, the book includes articles bringing to light Dr. Shawqi Abou Khalil's rank in the souls of his companions and students, who have known him as a brother, a colleague, a friend, a director, an educator, a knight of thought and a historical traveler. They analyze his works through a view including facts and lessons and study his distinguished scholarly character.

It also includes miscellaneous researches dedicated to a lionized scholar by notable scholars and intellectuals who have a firm link to the history, culture and language of the Arab Nation; such as the history of the rise of nationalities, estimating and criticizing the call to the colloquial language or extracts from valuable books as well as analysis of secularism between the state and the conditions of renaissance, a study of an immense linguistic compiler, a research in Arabic and its history, Arab manuscripts or a sentimental poem on generosity, in addition to important helpful and useful documents.

Abstract

The fourth book of this series, "Feted Scholars", that Dar Al-Fikr issues to eulogize one of its family members, by which it lionizes "Dr. Shawqi Abou Khalil", one of the historians who have taken great interest in the Arab/Islamic History and devoted their faithful pens to refute falsehood, indicate truths and produce the best of what they have.

It involves a bouquet of articles which speak about his works which have risen up to 40 titles in the fields of both history and education. Some fall into parts and others have been repeatedly reprinted, besides the ones translated into other languages. A collection of his books have also been adopted and prescribed by various universities and received approval and acceptance.

Additionally, the book includes articles bringing to light Dr. Shawqi Abou Khalil's rank in the souls of his companions and students, who have known him as a brother, a colleague, a friend, a director, an educator, a knight of thought and a historical traveler. They analyze his works through a view including facts and lessons and study his distinguished scholarly character.

It also includes miscellaneous researches dedicated to a lionized scholar by notable scholars and intellectuals who have a firm link to the history, culture and language of the Arab Nation; such as the history of the rise of nationalities, estimating and criticizing the call to the colloquial language or extracts from valuable books as well as analysis of secularism between the state and the conditions of renaissance, a study of an immense linguistic compiler, a research in Arabic and its history, Arab manuscripts or a sentimental poem on generosity, in addition to important helpful and useful documents.

SHAWQI ABU KHALIL

Researches Dedicated to Him

Shawqī Abū Khalil

Buḥūth Muhdāt ilayh

هـذا هـو الكـتـاب الرابـع في سلـسـلـة كـتـب المكرّمين الـتـي تصدرهـا دار الفكـر، جـزءاً كـل سنة في مآثر أحد أفـراد أسـرتها. وقـد أصـدرت من قبل كتباً في تكريم الدكتـور مـازن المبارك، فالدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، فالدكتور وهبة الزحيلي.

ولقد كان في قائمة المكرّمين الدكتور المؤرخ نور الدين حاطوم، غير أن الدار لم تتمكـن مـن إصدار كتاب فيه وقتها.

وهـاهي ذي اليوم وبمناسـبة الـيـوم العـالمي السنوي للكتاب تكرّم الدكتور شـوقي أبـو خليـل، أحد المؤرخين الذيـن اهتمـوا بالتـاريخ العربـي الإسـلامي، ووقفـوا مـن أجلـه أقلامهـم المخلصة يبينون الزّيـف، ويشيرون إلى الحقائق، ويقدمون أجمل ما عندهم، فكان هذا الكتاب..

دار الفكر

www.furat.com

فرات

جائزون على جائزة أفضل ناشر عربي لعام ٢٠٠٢ من الهيئة العامة المصرية للكتاب

